فريق
متميزون
E-BOOK

كلاسيكيات كلمات

موريس لوبلان

شَطِيَّة القَذِيفَة

ترجمة:

د. باسم صابر ميخائيل

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

شظية القذيفة

رواية مترجمة..

موريس لوبلان

ترجمة: د. باسم صابر ميخائيل

عن الرواية..

قصة مثيرة مليئة بالغموض، تمكن المؤلف خلالها من تدوين وقائع الحرب وأهوالها وشتى تفاصيلها المفجعة دون أن يبذل جهدا كبيرا. للرواية طابع مزدوج؛ إذ تعد في المقام الأول مغامرة مثيرة ومشوقة للغاية، فهي رواية تجسس تحدث خلال الحرب العالمية الأولى، حيث يتفاجأ القارئ بالكثير من التحولات و الانعطافات والأحداث المباغتة، وفي المقام الثاني لها بعد تاريخي؛ إذ يسرد المؤلف طريقة تفكير القادة في عصره، ويصور الألمان على أنهم وحوش متعطشون لسفك الدماء تواقون للغزو والاحتلال، في المقابل، يدافع الفرنسيون عن أنفسهم بشرف وبطولة. تمتزج في الرواية حياة البطل الشخصية والحرب العالمية الأولى، كيف سيدير بول علاقته مع زوجته بعد الفضيحة التي اكتشفها؟ وهل سيتمكن من حمايتها من وحوش الألمان الضارية؟ الكثير الكثير من الأسئلة التي لا تزال معلقة حتى نهاية الكتاب؛ مما يجعل القارئ في حالة تشويق مستمر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجزء الأول

الفصل الأول
جَريمةُ قَتْلٍ

تطلعت «إليزابيث»، العروس الشابة بنظراتٍ ملؤها الدهشة والانبهار، فائضة بالود والحب تجاه من تعلقت نفسها به «بول ديلروز»، والذي توجه إليها بالحديث للتو قائلًا:

- وإذا أخبرتك بأنني قابلته وجهًا لوجهٍ منذ فترة طويلة على أرض فرنسا!

- هل رأيت «فيلهلم الثاني» في فرنسا؟

- رأيته بعيني كلتيهما، ولم يكن بإمكاني أن أنسى أو أتغافل عن الظروف التي مهدت لهذا اللقاء، ومع ذلك، التقيته وجهًا لوجهٍ منذ عهدٍ بعيدٍ.

راح بول يتحدث بنبرةٍ حادةٍ مباغتةٍ، وكأن استدعاءه لتلك الذكرى أيقظ في وجدانه أفكارًا ملؤها الفزع والرعب، أرقت تفكيره، وغمّت نَفسه، فقالت له إليزابيث:

- أود أن تحكي لي عن هذا اللقاء يا «بول»، ألا تريد ذلك؟

- سوف أحكي لك. على الرغم من أنني كنت لا أزال طفلًا يانعًا في ذلك الوقت، امتزجت آثار الحادث الذي وقع بخيوط حياتي بطريقةٍ مفجعةٍ، حتى أنني لم أتمكن من البوح لك بأدق تفاصيله.

نزلا من القطار، بعد أن توقف على محطة «كور□يني»، آخر محطات خط القطارات المحلية، التي تنطلق من العاصمة، وصولًا إلى وادي «ليزرون»، ثم تتوقف على بعد ستة فراسخ قبل الحدود، عن سفح جبال بلدة «لورين» الصغيرة، والتي أقام قلاعها المهندس العسكري «□وبان» ([1])، وقال عنها في مذكراته: «تعد واحدةً من أعظم الحصون النصف دائرية التي لا يخال للمرء بأنه سيجد مثلها»

بدت محطة القطار مكتظةً بالمسافرين، حيث احتشد عددٌ كبيرٌ من الضباط والجنود. وكان ينتظر على الرصيف جمهور عظيم من المسافرين والعائلات البرچوازية والفلاحين والعمال ومراقبي السباحة في المدن الساحلية المجاورة لكور□يني، وسط أكوام مكدسة من الطرود التي ستُرسل إلى العاصمة في القطار القادم.

اليوم هو آخر خميس في شهر يوليو، الخميس الذي يسبق التعبئة العسكرية. عانقت إليزابيث زوجها بلهفةٍ وبقلقٍ بالغٍ، وقالت له مرتجفة: «ليت الحرب لا تندلع».

- الحرب! يا لها من فكرة غريبة لا تخطر في الأذهان!

- ولكن، انظر إلى هؤلاء الأشخاص الذين يرتحلون، تم إجلاء الكثير من العائلات التي تقطن بالقرب من الحدود.

- هذا لا يعني اندلاع الحرب.

- لا، ألا تتذكر ما قرأته في الجريدة منذ بضعة أيام؟ تنذر الأخبار بأحداثٍ مشؤومةٍ. تعد ألمانيا العدة وتتأهب للحرب. لقد خططت لكل شيءٍ. آه! بول، ماذا لو انفصل أحدنا عن الآخر! ثم، لم تعد تصلني أخبارك. ثم، تصاب في ميدان المعركة. ثم.. قبضت على يد حبيبها بيديها كلتيهما.

- لا تخشي شيئًا يا إليزابيث. لن يحدث شيءٌ من هذا القبيل، ولن أصاب بأي مكروه. إذا اندلعت حرب، يجب أن يصرح بذلك طرف من كلا الطرفين. ومع ذلك، من هو المجرم المتهور القبيح الذي يجرؤ على اتخاذ هذا القرار البغيض مرتكبًا مثل هذه الجريمة الشنعاء؟

- لا يتملكني أي خوف، وأثق بأنني سوف أتجلد بالصبر والشجاعة الكافية إذا استدعى الأمر لرحيلك. فقط.. فقط، ستبدو الحياة أكثرَ قسوة علينا من الآخرين. ألا تدرك، يا حبيبي، أننا تزوجنا هذا الصباح.

لمع وجه إليزابيث الأشقر باهر الجمال المكلل بهالة من الضفائر الذهبية عندما ذكرت عبارة «تزوجنا هذا الصباح»، والتي تحمل بين طياتها وعودًا ببهجة عميقة وسعادة لا متناهية، ارتسمت على ثغرها ابتسامة ملؤها الثقة، ثم تمتمت قائلة:

- بول، تزوجنا هذا الصباح.. لذا؛ يجب عليك إدراك أن إدخال البهجة إلى قلبك لم يكن أمرًا ثقيلًا للغاية.

سادت بعض التحركات المريبة وسط الحشود المتجمهرة. تكدس الجميع حول مخرج محطة القطار. كان هناك جنرال وضابطان كبيران يتوجهون نحو فناء المحطة حيث تنتظرهم إحدى السيارات. يتعالى في الأرجاء صوت الموسيقى العسكرية: مرت كتيبة من القناصة، سيرًا على الأقدام، في الشارع المتسع المقابل لمحطة القطار. ثم بقيادة رجال المدفعية، يجر رعيلٌ من الخيل إحدى المدفعيات الضخمة حيث تبدو للأعين -بالرغم من ثقل مسندها- خفيفة للغاية بسبب طول أنبوبها الشديد. مر أخيرًا قطيعٌ آخر من الثيران.

ظل بول، الذي لم يعثر على أي موظف، واقفًا على الرصيف، وحاملًا بكلتا يديه حقيبتي سفر. حينئذٍ، اقترب منه شخصٌ ينتعل حذاءً جلديًا يصل إلى الركبتين، ويرتدي سروالًا من القطيفة السميكة الخضراء، وسترة صيدٍ بأزرار قرون البقر، خلع هذا الشخص قبعته، ثم قال له:

- السيد «بول ديلروز» أليس كذلك؟ أنا حارس القصر.

شخصٌ مشرقُ الوجه، وباسمُ الثغر، طلقُ المحيا ونابضٌ بالحيوية، ذو بشرةٍ جافةٍ يابسةٍ سفعتها تقلبات الحرارة والبرودة، وشعرٍ رماديٍّ داكنٍ، تبدو هيئته جامدةً قليلًا مثل بعض الخدام القدامى الذين تتسم طبيعة عملهم بالاستقلالية التامة. يقطن هنا منذ سبعة عشر عامًا ويدير شؤون ممتلكات الكونت «داند□يل»، والد «إليزابيث»، الشاسعة في «كور□يني». صاح بول قائلًا:

- آه! إنه أنت «چيروم»، ذلك رائع جدًا. أعتقد أنك تلقيت خطابًا من الكونت داند□يل. هل وصل خدامنا؟

- وصل الثلاثة جميعهم هذا الصباح يا سيدي، ولم يألوا جهدًا عن مساعدتي أنا وزوجتي في ترتيب القصر وإزالة الفوضى ليكون مهيّأ بقدر الإمكان لاستقبال سيدي وسيدتي.

وجه الحارس التحية مرة أخرى إلى «إليزابيث» التي راحت تتحدث إليه:

- إذن، أنت تعرفني يا «چيروم»، أليس كذلك؟ لم تطأ قدماي عتبة القصر منذ زمن بعيد!

- كانت الآنسة إليزابيث في الرابعة من عمرها، أصابني وزوجتي الهم والغم عندما تنامى إلى علمنا خبر رحيلها عن القصر بصحبة الكونت الذي بدا متأثرًا للغاية جراء وفاة زوجته المسكينة. إذن، هل سيقوم الكونت بجولة صغيرة في «كور□يني» هذا العام؟

- لا يا «چيروم»، لا أظن ذلك. فبالرغم من توالي السنين وتعاقب الفصول والأيام، تتملك والدي حالة دائمةٌ من الحزن والأسى الشديدين.

أخذ چيروم الحقيبتين من يدي «بول» وهم بوضعهما في عربة تجرها الخيول، ثم أمر السائق بالتوجه إلى «كور□يني»، وأخبر الضيفين بأنه سوف يسبقهما إلى هناك. أما بالنسبة إلى الأمتعة الأخرى الثقيلة، كان لزامًا عليه أن يضعها على عربة المزرعة. الطقس بديع للغاية. رُفع غطاء العربة، وجلس بول وزوجته. توجه إليهما الحارس قائلًا: «الطريق ليس طويلًا جدًا. فقط مسافة أربعة فراسخ. بيد أنه يتصاعد للأعلى رويدًا رويدًا». تساءل بول: «هل القصر مهيأ للسكن فيه؟

- سيدتي! لم يعد القصر ملائمًا بالدرجة الكافية للإقامة بداخله، وسوف يرى سيدي ذلك. بذلنا قصارى جهدنا كي يغدو معدًا ومهيأ. غُمرت زوجتي ببهجةٍ عارمةٍ عندما علمت بخبر وصولكما! سوف تلتقيا بها أمام درج مدخل القصر. أخبرتها بأن سيدي وسيدتي سيصلان على الفور في تمام الساعة السادسة والنصف أو السابعة. قال بول لزوجته، بعد أن انطلقت بهما العربة:

- يبدو رجلًا طيبًا، ولكن يجب ألا تتاح له الفرصة للثرثرة كثيرًا. عليه أن يضبط نفسه ويتدارك الأمر.

تصاعد الطريق الواقع في قلب المدينة إلى الأعلى وازداد وعورةً فوق مرتفعات كور□يني، اصطفت على جانبيه المتاجر وبعض الآثار والفنادق، حيث يشكل شريانًا حيويًا، مكتظًا في هذا اليوم بتجمهراتٍ صاخبةٍ غير مألوفةٍ، ثم انحدر ثانية بالتواء ناحية حصون «□وبان» الأثرية. اخترق الطريق، عقب ذلك، واديًا متسعًا تشوبه بعض التموجات الطفيفة ويمتدُّ على أراضيه يمينًا ويسارًا حصنا «چونا». عاد بول بذاكرته إلى مشهد طفولته الذي وعد إليزابيث بأن يقصه على مسامعها، متتبعًا بناظريه الطريق المتعرج الذي يتلوى بين حقول الشوفان والقمح، أسفل قبة ظليلة شكلتها فوقهما صفوفٌ من أشجار الحور.

- كما قلت لكِ قبلًا يا «إليزابيث»، يرتبط هذه المشهد بمأساةٍ مفجعةٍ وصادمةٍ تكمن في ثنايا ذاكرتي وتقبع في زوايا تفكيري. تناقلتِ الألسنِ هذه الفاجعة لفترةٍ طويلةٍ

من الوقت، وقد أضحى والدك -الذي كان صديقًا صدوقًا لوالدي كما تعلمين- على درايةٍ بأدق تفاصيلها عبر ما قرأه في الصحف. التمست منه مرارًا وتكرارًا ألا يخبرك بذلك حتى أكون أنا أول من يسرد لك أحداثها وتفاصيلها الصغيرة. لقد اعتصرت قلبي هذه الذكرى الأليمة.

تعانقت أيادي الزوجين. يدرك بول جيدًا أن زوجته سوف تصغي بانتباهٍ وبحماسةٍ مفرطةٍ لكل جملةٍ يتفوه بها، فأردف قائلًا:

- يعدّ أبي أحد هؤلاء الرجال القلائل الذين يجبرون كل من يتعامل معهم على إظهار الود واللطف والاحترام. كان رجلًا يتحلى بالكرم ويتسم بالحماسة والوسامة، يتمتع بروح الدعابة، يندفع وراء الأشياء الجميلة والعروض الباهرة، عاشقًا للحياة، راح يتلذذ بلهفةٍ وفي عجلةٍ من أمره بتفاصيلها شتى.

في عام 1870، جُنِّدَ كمتطوع في الجيش، حصل على رتبة ملازم عندما كان في ساحة القتال. تجمعت في شخصيته كل سمات البطولة التي تتآلف وتتوافق تمامًا مع طبيعة شخصيته، حتى أنه تطوع مرة ثانية للقتال في «تونكان»، ثم مرةً ثالثة مشاركًا في غزو مدغشقر. عندما عاد من حربه الأخيرة، وقد أصبح حينئذ قائدًا عسكريًا وضابطًا يحمل وسام جوقة الشرف، اتخذ قرارًا بأن يتزوج. وبمرور ستة أعوام فقط أصبح أرملًا.

عندما وافت والدتي المنية، كنت بالكاد أبلغ أربع سنوات. غمرني والدي بحب وحنان جارفين يكادا يفوقا هول الصدمة التي أصابته جراء وفاة زوجته بطريقةٍ وحشيةٍ وفظةٍ. أصر أن يتولى بنفسه شؤون تربيتي وتعليمي. على الصعيد الجسماني، سعى إلى تطوير تدريباتي الخاصة وجعل مني شخصًا صلبًا وقويًا وشجاعًا. عندما يحل الصيف، كنا نذهب إلى شاطئ البحر؛ وفي الشتاء، نتوجه إلى جبال «سا□وا»، ونستمتع بالجليد والثلج. أحببته من كل قلبي، وما زلت أحبه بكل جوارحي، ليس بمقدوري أن أفكر فيه دون أن يضطرب قلبي وتهتز مشاعري.

عندما بلغت من العمر أحد عشر عامًا، رافقته في رحلة داخل فرنسا، كان قد أرجأها لبضع سنوات كي يتمكن من إنجازها برفقتي، ولكي أبلغ من العمر ما يتيح لي فرصة إدراك فحواها. كانت رحلته عبارة عن جولة في الأماكن والطرق ذاتها التي قاتل فيها ذات يوم في أثناء سنة الحرب المفجعة. كم من دموع ذرفتها عندما رأيت عينيه مغرورقتين بالدموع على ضفاف نهر «اللوار»، وفي سهول «شامبانيا»، ووديان «□وسج»، ولا سيما بين قرى «ألزاس»! يا له من أملٍ ساذجٍ ذاك الذي خفق له قلبي عندما كنت أنصت إلى سماع كلماته المفعمة بالرجاء!

أخبرني ذات مرة: «بول، لا يراودني الشك بأنك ستقاوم يومًا ما وجهًا لوجه نفس العدو الذي حاربته. عليك الآن -بالرغم من كل عبارات الطمأنينة الجميلة التي ستتناهى إلى مسامعك- أن تتأهب لقتاله، وأن تضمر له في أعماق قلبك كل ضغينة وكره. مهما يقولون لك، سيظل عدوًا همجيًا يختال فخورًا بوحشيته، عاشقًا للدماء ومتعطشًا لفرائسه. سحقنا في المرة الأولى، ولن يتوانى عن بذل الغالي والنفيس ليدحرنا مرةً أخرى وللأبد. في ذلك اليوم، تذكر جيدًا يا بول كل خطوة خطوناها

معًا، وأنا واثق تمام الثقة، بأن الخطوات التي ستخطوها بمفردك مستقبلًا ستكلل بالنصر والنجاح. لا تنسَ لوهلةٍ أسماء هذه البلدان التي سوف أتلوها على مسامعك، ولا تجعل لذة النصر تمحو من ذاكرتك الأسماء التي لطالما يرتبط ذكرها بالذل، والألم والمهانة: «فروشو□يلير»، «مار-لا-تور»، «سان بريـ□ا»، وبلدان أخرى كثيرة! إياك أن تتساهم يا بول.. ثم ابتسم مستأنفًا حديثه:

- ولماذا ينتابني القلق؟ فهذا العدو يعكف دائمًا على إشعال نيران الكراهية في وجدان أولئك الذين ينسون والذين يتغافلون عنه. هل بإمكانه أن يتغير أو تتبدل أحواله؟ سوف ترى يا بول، سوف ترى. كل ما استطعت أن أبوح لك به ليس سوى قطرة في محيط الحقيقة المرعبة. إنهم وحوش ضارية.

غرق بول في صمت قاتلٍ، سألته زوجته بنبرة خجولة قليلًا: «هل تظن أن والدك كان محقًا فيما أخبرك به؟

- ربما كان والدي متأثرًا بذكرياته القريبة في ذلك الوقت. سافرت كثيرًا إلى ألمانيا، ومكثت هناك بعض الوقت، أعتقد أن طريقة تفكيرهم قد تبدلت. ويجب أيضًا أن أعترف بأنني أجد، في بعض الأحيان، صعوبةً بالغةً في فهم مغزى كلمات والدي. ومع ذلك.. ومع ذلك، لطالما ظلت هذه الكلمات تؤرق فكري وتقض مضجعي. ثم إنّ ما حدث بعد ذلك أثار دهشتي، واتسم بالغرابة البالغة!

تباطأت سرعة العربة. ثم أخذ الطريق يتصاعد شيئًا فشيئًا ناحية التلال التي تعلو وادي «ليزرون». انحدرت الشمس نحو «كور□ييني». التقت العربة في طريقها بعربةٍ أخرى محملة بأمتعةٍ كثيرةٍ تقل بعض المسافرين، ثم سيارتين تتكدس داخلهما الطرود والمسافرون. قال بول لزوجته: «هل تودين أن نتمشى قليلًا؟»، ترجلا عن العربة وتبعاها سيرًا على الأقدام، فأردف بول قائلًا:

- ما تبقى لدي يا إليزابيث لأخبرك به يكمن في أعماق ذاكرتي في هيئة تفاصيل صغيرة ودقيقة للغاية، بيد أنها تنبعث بطريقة مبهمة في هيئة ضباب كثيف يحول بيني وبين إدراك أي شيءٍ. بالكاد أستطيع أن أجزم لكِ، أنه في مرحلة ما من رحلتنا، كان يتوجب علينا أن نتوجه إلى الغابة السوداء في «ستراسبورج»، لماذا تغير خط سير والدي؟ لا أدري حقًا. أرى نفسي، واقفًا في محطة «ستراسبورج» ذات صباح، ومستقلًا القطار المتجه إلى «ليـ□وجاس». نعم، في ليـ□وجاس، أخذ والدي يقرأ ثم يعيد قراءة خطاب كان قد تلقاه للتو، ويبدو أنه أثار لديه بهجةً لا تُضاهى. هل غيرت هذه الرسالة ما كان يخطط له؟ لا أدري حقًا. توقفنا في الطريق لتناول طعام الغداء. كاد الجو يشتعل جراء هبوب عاصفةٍ حارةٍ، وغطيت في سباتٍ عميقٍ؛ لذا أتذكر فقط الساحة الرئيسة لبلدة ألمانية صغيرة، حيث استأجرنا دراجتين، وتركنا أمتعتنا في خزانة إيداع الحقائب في محطة القطار. كم تبدو الأمور مبهمة والصورة مشوشة! سافرنا عبر أحد البلدان التي لم تترك في داخلي أي انطباع يُذكر. قال لي والدي، في لحظة ما: «حسنًا يا بول، نحن نعبر الحدود. خطت أقدامنا الأراضي الفرنسية».

ثم بعد ذلك، كم من الوقت بعد ذلك؟ توقف والدي ليسأل أحد الفلاحين عن اتجاه طريقه، حيث أرشده إلى أن يسلك طريقًا مختصرًا وسط الغابة. ولكن أي طريقٍ مختصرٍ؟ بهتت ملامح هذا الطريق في ذهني، حيث تسود ظلمةٌ دامسةٌ يستحيل اختراقها وكأن أفكاري جميعها دفنت في أعماقها.

تلاشت الظلمة بغتةً وأبصرت عيناي بوضوحٍ بالغٍ فرجة إحدى الغابات وبعض الأشجار الشاهقة، وطحالبَ أشبه بالقطيفة، وكنيسةً صغيرة. في أثناء ذلك، تسارعت زخات المطر فوق رأسينا، فقال لي والدي: «دعنا نحتمي في مكان آمن يا بول»

يخال لي أن صدى صوته يتردد الآن في أعماقي! وتنبعث من ذاكرتي بدقةٍ متناهيةٍ تفاصيل الكنيسة الصغيرة بجدرانها الخضراء الرطبة! تناهى إلى مسامعنا صوت حوارٍ يدور في داخلها، وللتو سمعنا أيضًا صوت صرير بابها الذي فُتح على مصراعيه. خرج شخص ما من هناك، وقال بالألمانية: «لا يوجد أحد. لنسرع». كنا نتجول، في تلك الأثناء، في فناء الكنيسة الخارجي، بقصد ولوج هذا الباب. وجد أبي -الذي كان يسبقني ببضع خطواتٍ- نفسه فجأةً في مواجهة الشخص الذي تفوه منذ بضع لحظات بكلمات ألمانية. بدا الشخص الغريب مستاءً للغاية، وأصيب والدي بدهشة بالغة من هول هذا اللقاء غير المألوف. وقف الاثنان، ربما لمدة ثانية أو اثنتين، في مواجهة بعضهما البعض جامدين كصخر بلا حراك. سمعت والدي يهمس قائلًا: «هل هذا معقول؟ الإمبراطور»

تطلعت إلى الشخص الألماني وأنا مصابٌ بالدهشة لسماع هذه الكلمات، وكنت قد رأيت مراتٍ عديدة من قبل صورة القيصر؛ لذا لم يتمكن الشك من أن يراودني في تلك اللحظة: الشخص الذي يقف هنا أمامنا، هو حقًا إمبراطور ألمانيا.

إمبراطور ألمانيا هنا في فرنسا! خفض رأسه في لمح البصر، ورفع ياقة ردائه الفضفاض حتى كادت تصل إلى الحواف المطوية لقبعته، ثم استدار ناحية الكنيسة. خرجت سيدة من هناك يتبعها شخص بالكاد لمحت ملامح وجهه، يبدو كأحد الخدام. كانت السيدة طويلة القوام، لا تزال محتفظةً بنضارتها وشبابها، وداكنة البشرة.

أمسك الإمبراطور ذراعيها بشراسةٍ وعنفٍ وسحبها بعيدًا متحدثًا إليها بنبرةٍ ساخطةٍ، وموجهًا إليها بعض العبارات التي لم نستطع إدراك فحواها. ثم أخذا نفس الطريق الذي قطعناه، والذي ينتهي بهما إلى الحدود. كان الخادم قد اندفع مهرولًا نحو الغابة ليسبقهما. قال والدي ضاحكًا: «يا لها من مغامرةٍ عجيبةٍ يكاد لا يصدقها العقل. لماذا يجازف هذا الشيطان بالمجيء إلى هنا؟ وفي وضح النهار! هل تمثل هذه الكنيسة بالنسبة إليه قيمةً فنيةً؟ دعنا نذهب، أليس كذلك يا بول؟

ولجنا باب الكنيسة، ينفذ بصيصٌ خافتٌ من الضوء عبر نافذةٍ زجاجيةٍ سوداء يغطيها الغبار وخيوط العنكبوت، بيد أن هذا البصيص الخافت كان كافيًا لأن نبصر أعمدتها الضخمة القصيرة، وجدرانها العارية. لا يبدو أن هناك شيئًا يُضاهي شرف هذه الزيارة الإمبراطورية، على حد قول والدي الذي أردف قائلًا: «يبدو جليًا أن الإمبراطور أتى إلى هنا كأحد السياح الذين يتوقون إلى المغامرة، ويبدو أيضًا أنه

انزعج للغاية جراء دهشتنا لرؤية مجازفته. ربما أوضحت له السيدة التي كانت برفقته أنه ليس عرضة للخطر؛ لذا صب عليها جام غضبه موجهًا إليها النقد والتوبيخ».

ومن اللافت للنظر يا إليزابيث، أن كل هذه الحقائق والتفاصيل الصغيرة، التي لم تكن في الواقع تبلغ قدرًا كبيرًا من الأهمية بالنسبة إلى طفل في مثل عمري، دُونت بدقةٍ متناهيةٍ في سجلات ذاكرتي، في حين أن العديد من التفاصيل الأخرى الجوهرية لم تعد محفورةً في ثنايا وجداني. ومع ذلك، فأنا أسرد لكِ تفاصيل ما حدث لي، وكأن الأحداث تمر الآن أمام عيني، وترن أصداء الكلمات في أُذني. وما زلت أرى بوضوحٍ، في اللحظة التي أتحدث فيها إليكِ، ما رأته عيناي فور خروجنا من باب الكنيسة، حينما أقبلت نحونا رفيقة الإمبراطور، بعد أن عادت مجتازة فرجة الغابة وهي تهرول بخطىً متسارعةٍ، وسمعتها تقول لوالدي:

- هل يمكنك أن تسدي لي معروفًا يا سيدي؟

كادت تختنق أنفاسها، لا بد أنها ركضت كثيرًا، وعلى الفور دون أن تنتظر إجابة أبي، أردفت قائلة: «الشخص الذي قابلته للتو يود أن يراك مرةً أخرى».

تتحدث هذه السيدةُ المجهولةُ الفرنسيةُ بيسرٍ وطلاقةٍ.

تملكت أبي حيرة شديدة، بيد أن حيرته أثارت غضبها، وبدا تردده، في وجهة نظرها، بمثابة إهانة لا تغتفر في حق من أرسلها؛ لذا قالت بنبرة فظة:

- لا أعتقد أنك تنوي الرفض. فأجابها أبي بصبر نافذ:

- ولمَ لا؟ أنا لا أتلقى أية أوامر. حينئذٍ قالت وهي تحاول أن تتمالك أعصابها:

- هذا ليس أمرًا، بل مجرد رغبةٍ.

فلنفرض أنني وافقت على مقابلته. إذن فأنا تحت تصرف هذا الشخص.

بدت ساخطةً ومغتاظةً إلى أقصى حد ممكن قائلةً: «لا، لا، يجب أن...»

حينئذٍ صاح والدي بشدة: «يجب أن أجلب الإزعاج والأذى لنفسه، وبلا أدنى شكٍ، يجب أن أعبر الحدود لأقابل من يتفضل بانتظاري! أقدم لكِ خالص اعتذاري وأسفي العميق يا سيدتي، لن أقدم على تلك الخطوة. فلتخبري هذا الشخص بأنه إنْ كان مرتابًا بشأن أن أفشي سره، فليطمئن تمامًا، لن أفعل ذلك البتة. هيا يا بول، هل أنت قادم؟

خلع قبعته وانحنى أمام السيدة المجهولة، لكنها اعترضت طريقه قائلةً: «لا، سوف تنصت إلي بإمعانٍ. وهل تعتقد أنه يكفي أن تعطيني وعدًا بكتمان السر؟ لا، يجب أن تنهي هذا الأمر بطريقة أو بأخرى، ويجب أن تقبل بأن...

منذ تلك اللحظة، انسدت أبواب مسامعي. وقفت هذه الشريرة في مواجهة أبي وهبت رياحها الهوجاء في وجهه. ارتسمت على ملامح وجهها تعبيراتٌ عنيفةٌ للغاية أثارت فزعي وصدمتي. آه! كيف لم نتأهب لذلك؟ لكنني كنت طفلًا صغيرًا للغاية!

ثم إن كل شيءٍ حدث بسرعة البرق! بينما كانت تتقدم في اتجاه والدي، حاصرته، إن جاز قول ذلك، عند سفح شجرةٍ ضخمةٍ تقع على يمين الكنيسة. تعالت أصواتهما، أصدرت إيماءةَ تهديدٍ له. تعالت ضحكات أبي، وجهت له طعنةً مباغتةً ومن دون سابق إنذارٍ بسكينٍ تمسكه بيدها.

آه! أتذكر هذا السكين اللعين الذي رأيت بريق نصله يلمع في الظل! طعنته في صدره طعنتين متتاليتين.. طعنتين، هنا، في صدره. سقط أبي طريحًا على الأرض.

توقف بول بغتةً، وغزا الشحوب وجهه عندما قفزت إلى ذاكرته تلك الجريمة النكراء، فتلعثمت إليزابيث:

- آهٍ! عزيزي بول.. لقد لقي والدك المسكين حتفه يا حبيبي.

ثم استأنفت حديثها لاهثةً من هول الحزن والغم:

- ماذا ألمَّ بك وقتئذٍ؟ هل تعالت صرخاتك؟

- صرخت بأعلى صوتي، وهرعت مهرولًا نحو أبي، بيد أنني شعرت بيدٍ قاسيةٍ تتشبث بكتفي بشراسةٍ، إنها يد الخادم الذي انطلق فجأة من قلب الغابة وأمسكني بإحكام. أبصرت سكينه مرفوعةً فوق رأسي، شعرت بشيءٍ ثقيلٍ للغاية يصدم كتفي، فسقطت بدوري طريحًا على الأرض بلا حراك فاقدًا للوعي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني

الغرفة المغلقة

انتظرت العربة بول وإليزابيث على مسافةٍ قريبةٍ. عندما وصلا إلى التلةِ، جلس الاثنان على قارعة الطريق، وانكشف أمامها الوادي منبسطًا في هيئة تموجاتٍ خضراءَ ناعمةٍ، حيث ينساب فيه نهرٌ صغيرٌ مائجٌ مخترقًا إياه برفقة طريقين أبيضي اللون مستسلمين لكل تقلباته. تلوح كور□ يني في الخلف، متكتلة أسفل أضواء الشمس، وتشرف على الوادي على مسافةٍ لا تتجاوز المئة متر. تمتد في مواجهتها، على بعد مسافة تقدر بفرسخٍ واحدٍ، أبراج «أورنكان»، وأنقاض المتحف القديم.

بات الصمت الخانق يخيم على إليزابيث طوال الوقت، انقبضت أساريرها وامتقع وجهها مما رواه لها زوجها، وفي نهاية المطاف سألته:

- آه! بول، كم يبدو هذا مرعبًا. هل عانيت كثيرًا جراء ما ألمَّ بك؟

- عقب تلك اللحظة، لم أعد أتذكر شيئًا، لم يراودني أي شعورٍ حتى اليوم الذي وجدت فيه نفسي بين جدران غرفةٍ مجهولةٍ، في كنف رعاية ابنة عم والدي الطاعنة في العمر، والتي تُعد إحدى الراهبات. كانت هذه الغرفة هي الأكثر جمالًا وسحرًا في أحد الفنادق الواقعة بين «بلفور» والحدود. اكتشف صاحب الفندق ذات صباحٍ، في ساعةٍ مبكرةٍ من اليوم، قبل اثني عشر يومًا، جثتين هامدتين في المكان المشؤوم، كانتا قد تُركتا هناك طوال الليل، وجثتين أخريين ملطختين بالدماء. أثبت التشريح الأولي للجثث أن إحداهما قد تجمدت، وهي جثة أبي المسكين. شعرت بخنقةٍ طفيفةٍ، ورحت أتنفس بصعوبةٍ بالغةٍ!

استغرق التعافي من صدمتي النفسية وقتًا طويلًا، تخللته بعض الانتكاسات والإصابة بنوبات من الحمى تدفعني إلى الهذيان بأنني أسعى إلى النجاة بنفسي، وأحاول أن ألوذ بالفرار. كانت ابنة عم والدي هي آخر من تبقى لي من أقربائي، وضربت مثالًا رائعًا في التفاني من أجلي وحسن رعايتي. بعد مرور شهرين، نقلتني إلى منزلها حينما كاد جرحي أن يلتئم، لكنها تأثرت تأثرًا بالغًا بوفاة والدي وبالظروف المروعة التي صاحبت حادث مقتله، حتى أنني استغرقت بضع سنواتٍ كي أتمكن من استعادة حالتي الصحية. أما بالنسبة إلى الحادث المفجع ذاته.

سألته إليزابيث التي لفت ذراعيها حول عنقه وكأنها تعبر له عن رعايتها المشبوبة بالعاطفة: «وماذا حدث بعد ذلك؟»

- لم أكن قادرًا على فك طلاسم هذا اللغز العجيب. ومع ذلك، بذل القضاء قصارى جهده ليحقق بدقةٍ متناهية في ملابسات القضية انطلاقًا من المعلومات القليلة التي أدليت بها. ذهبت جميع جهود رجال القضاء سدًى. فضلًا عن ذلك، أشاب معلوماتي الكثير من الغموض! ماذا أعرف أكثر من أن الأحداث المرعبة دارت في فرجة

إحدى الغابات وأمام إحدى الكنائس؟ أية فرجة، وفي أية غابة؟ أين تقع هذه الكنيسة؟ في أي بلد حدثت الواقعة؟

- لكنك في الحقيقة كنت عائدًا بصحبة والدك إلى الديار، ويبدو لي أنكما انطلقتما عائدين من «ستراسبورج».

- مهلًا! أتعلمين أنه تم اقتفاء أثر هذا الدليل، وأن القضاء الفرنسي لم يكتفِ باستنادات القضاء الألماني، وكلف رجال الشرطة الأكثر حنكة بالتحقيق في الأمر. ولكن اتضح لي جليًا فيما بعد، بعد أن بلغت سن الرشد، أنه لم يُعثر على أي دليل يفيد بمرورنا عبر «ستراسبورج»، لكم بدا الأمر غاية في الغرابة! أتنصتين لي، لا يوجد دليل واحد؟ في حين أن الشيء الوحيد الذي ما زلت متيقنًا منه هو أننا تناولنا الطعام في «ستراسبورج» ومكثنا هناك مدة يومينِ على الأقل. في النهاية، خَلُصَ قاضي التحقيق الذي يتابع القضية إلى أن ذكرياتي الطفولية -باعتباري طفلاً أُلحِقَ به الأذى، وأصيب بكدماتٍ بالغةٍ، وعُرّض لصدمة مروعة- يجب أن تكون بالطبع مضللةً وخادعةً. أما أنا فلم أصدق ذلك، أعلم كل شيءٍ، وما زالت هذه الأحداث محفورةً في وجداني.

- وماذا حدث بعد ذلك يا بول؟

- حينئذٍ، لم يكن بمقدوري أن أكف عن عقد مقارنة بين طمس معالم أحداثٍ حقيقيةٍ لا تقبل الجدال، وبين الحدث الجوهري الذي تورط فيه الإمبراطور بشكلٍ مباشر. أحداثٌ يسهل عليَّ التحقق منها واستعادة ذكراها، مثل رحلة عبر القطار، وترك الأمتعة في خزانة إيداع الحقائب بالمحطة، واستئجار دراجتين في إحدى ضواحي الألزاس. كل هذه الأحداث تؤكد أن الإمبراطور شريكٌ مباشرٌ في هذه القضية المعقدة.

- لكن يا بول، لا بد أن عقد هذه المقارنة قد تسرب إلى ذهن القاضي مثلما بدت الأمور بالنسبة إليك.

- بكل تأكيد، ولكن لم يُرد القاضي المختص بالقضية، ولا أي شخص آخر من القضاة والشخصيات الرسمية التي تلقت الاستجوابات أن يقبلوا بفكرة وجود الإمبراطور في الألزاس في ذلك اليوم.

- لماذا؟

- ذاك لأن الصحف الألمانية أشارت إلى وجود القيصر في فرانكفورت في نفس الساعة التي وقعت فيها الحادثة.

- في فرانكفورت!

- بكل تأكيد، أشير إلى وجوده في فرانكفورت بناءً على أوامره، ولم يكن هذا الخبر الكاذب بالنسبة إليه مجردَ شائعةٍ تداولتها الصحف يسعى إلى تكذيبها. على كل حال، انطلاقًا من هذه النقطة، وللمرة الثانية، تم اتهامي بتضليل القضاء، واصطدمت التحقيقات بكتلةٍ ضخمةٍ من العقبات، والأكاذيب، واستحالات عدم الوقوع،

والادعاءات الكاذبة، التي أوحت أن هناك يدًا خفية تتحكم في مسار التحقيقات، وأن هناك أشخاصًا ذوي سطوةٍ ونفوذٍ يتلاعبون بالقضية. هذا هو التفسير الوحيد المقبول لتلك الظاهرة غير المألوفة. حسنًا، هل يمكن لشخصين فرنسيين أن يقيما في فندق بستراسبورج دون أن تُدون أسماؤهما في سجل الفندق؟ ومع ذلك، سواء تمت مصادرة هذا السجل، أو تمزيق الورقة التي سُجلت فيها الأسماء، لم يُعثر على اسميْنَا في أي مكان. إذن لا يوجد دليل، لا أثر لأي شيء. تلقى أصحاب وخدام الفنادق والمطاعم، وعمال وموظفو محطة القطار، ومؤجرو الدراجات تعليمات بالتزام الصمت التام وعدم الخوض في أي أحاديث، ولم يجرؤ أحد على مخالفة الأوامر.

- ولكن يا بول كان يجب عليك أن تبحث بنفسك متفحصًا هذه الأمور؟

- وماذا لو تجولت في شتى الأرجاء ساعيًا وباحثًا؟! لقد عبرت الحدود أربع مرات منذ أن بلغت سن المراهقة، من سويسرا إلى لكسمبورج، ومن بلفور إلى لونجواي، مستجوبًا الأشخاص، ومتفحصًا الغابات! لم أكف لساعات طويلة عن التنقيب في أعماق ذاكرتي مستحضرًا منها دقائق وتفاصيل مشهدٍ من المفترض أنه ينير سبيلي. لم أعثر على بصيص من النور في غياهب ظلمتي. انبثقت فقط أمام عيني ثلاث صور استحضرتها من ضباب الماضي الكثيف. صور الأماكن والأشياء التي شهدت على وقوع الجريمة: أشجار فرجة الغابة، الكنيسة العتيقة، الممر الضيق الذي يشق الغابة. صورة الإمبراطور. وصورة السيدة التي أردت أبي قتيلًا.

انخفض صوت بول كمن يحدث نفسه، وتغضن وجهه وكأن الألم يعتصره.

- أوه! حتى لو عشت مئة عام، ستظل صورة هذه المرأة محفورةً في ذاكرتي، لن تفارق عيني، مثل شخصٍ يرى كل يوم تفاصيل مشهد في وضح النهار. ما زالت تتعلق بذاكرتي هيئة ثغرها، وتعبيرات نظراتها، ولون شعرها، والسمة المميزة لطريقة سيرها، وإيقاع إيماءتها، وتقاطيع قوامها، كل هذه التفاصيل تقبع في ثنايا الذاكرة، ليست كصور أستحضرها متى أشاء، بل كأشياء باتت جزءًا لا يتجزأ من كياني. أعتقد أنه عندما انتابتني حالات الهذيان، سعت القوى الخفية لعقلي الباطن جاهدةً إلى استيعاب جميع هذه الذكريات البشعة. وإذا كان هوس الماضي المرضي قد فارقني اليوم، إلا أن الألم ما زال يسحقني، ولم تزل تستبد بي المعاناة في بعض الأوقات عندما يحل المساء وأجد نفسي وحيدًا. قُتل والدي بدم بارد، وما زالت القاتلة على قيد الحياة بلا عقاب، ثرية مكرمة تواصل أعمال الكراهية والعنف والدمار.

- هل تعرفها يا بول؟

- يمكنني التعرف عليها من بين آلاف النساء. حتى وإن تقدم بها العمر وتبدلت ملامحها، سأتمكن من التعرف على وجهها الشاب الذي توارى خلف تجاعيد وجهها المتغضن. كيف لا أعرفها! لقد أدركت كل تفاصيلها، حتى لون ثوبها! أليس هذا أمر لا يصدق؟ كانت ترتدي ثوبًا رماديَّ اللون ويلتف حول كتفيها وشاح من الدانتيل الأسود، وتضع في صدارها، كدبوسٍ زينيٍّ، جزعًا منقوشًا ثقيلًا مؤطرًا بثعبانٍ مُذهبٍ، عيناه من الياقوت. أترين يا إليزابيث كيف أنني لم أنسَ ما يجب ألا أنساه.

استسلم بول للصمت، واغرورقت عينا إليزابيث بالدموع. أضحى الماضي يغلفها تمامًا، مثل زوجها، بغلافٍ من المرارة والهلع. جذبته إليها مقبلةً جبهته، ثم قالت له:

- لا تنسَ شيئًا يا بول. ستقتص عدالة السماء من الجاني إن آجلًا أو عاجلًا، ولكن لا تجعل حياتك مستعبدة لتلك الذكرى المميتة. أضحينا الآن اثنين، كلانا يبادل الآخر الحب. تطلع بنظرة أمل نحو مستقبلنا.

يُعد قصر أورنكان أحد الأبنية الفخمة، حيث شُيد في القرن السادس عشر الميلادي بصحبة أربعة أبراج تعلوها قباب صغيرة، وتتوسطه نوافذ عالية معقودة بعقدٍ مدببة، ويوجد }درابزين{ أنيق تعلوه نتوءات في الطابق العلوي. تحيط المروج المتناسقة بالفناء الرئيسي المستطيل الشكل، وتشكل ساحة ممتدة تنتهي من اليمين ومن اليسار بحدائق وغابات وبساتين. يتاخم أحد جوانب هذه المروج شرفة طويلة تشرف على وادي ليزرون. كل شيء هنا يبدو بديعًا.

عُرض هذا القصر للبيع قبل سبعة عشر عامًا عقب وفاة آخر بارونات «أورنكان»، حينئذٍ اشتراه الكونت «داند□يل»، والد إليزابيث بناءً على رغبة زوجته التي ارتبط بها بعد أن استقال من وظيفته كضابط في سلاح الفرسان مكرسًا نفسه من أجل الإنسانة التي تعلق بها قلبه، اصطحبها في جميع رحلاته، قادتهما الصدفة العجيبة إلى زيارة أورنكان في الوقت الذي عرض فيه القصر للبيع، وصلا إلى هناك في اللحظة التي أوشك فيها بيع القصر بعد أن أعلن عن ذلك في بعض الصحف الإقليمية. تحمست «هيرمين داند□يل» لفكرة شرائه، وامتلك الكونت -الذي كان يسعى إلى شراء بعض الأملاك مستغلًا فيها أوقات فراغه- القصر عن طريق وساطة أحد رجال القانون.

أشرف الكونت من باريس طوال فصل الشتاء الذي أعقب شراء القصر على أعمال الترميم؛ مما دفع مالكه القديم إلى تركه على الفور. أراد الكونت أن يجعل منه مسكنًا مريحًا يتسم بالفخامة والأبهة. نقل إليه جميع التحف، وأبسطة الجدران، واللوحات والأعمال الفنية التي كان يزين بها قصره في باريس.

لم يتمكنا من الإقامة فيه إلا بحلول شهر أغسطس. قضيا هناك بضعة أسابيع ممتعة بصحبة ابنتهم إليزابيث التي كانت وقتها تبلغ من العمر أربعة أعوام، وابنهما برنارد الذي كانت الكونتيسة قد وضعته منذ وقت قصير. بقيت الكونتيسة مخلصةً لطفليها، حتى أنها لم تخطُ خارج حدود الأملاك الجديدة. أشرف الكونت على مزارعه، وكان يتوجه إلى رحلات الصيد بصحبة حارسه المخلص «چيروم».

بيد أن الكونتيسة أُصيبت بنزلة بردٍ في نهاية شهر أكتوبر، وكان للمضاعفات التي صاحبت المرض عواقب وخيمة، حينئذٍ قرر الكونت أن يصطحبها ظهيرة كل يوم في نزهة مع الطفلين. حدثت لها انتكاسة كبيرة بعد أسبوعين، ثم بعد ذلك بثلاثة أيام فاضت الروح إلى بارئها.

استولى على الكونت الشعور باليأس والقنوط الشديدين، ذاك الشعور الذي يجعل المرء يدرك جليًا بأن الحياة توقفت، وأنه مهما حدث بعد ذلك، لن يتذوق طعم

الفرحة أو الراحة. صارع الحياة بمفرده، ليس من أجل طفليه بقدر ما كان يرغب في تخليد ذكرى ظلت هي الدافع الوحيد لبقائه على قيد الحياة. لم يكن بمقدوره أن يعود مرةً أخرى إلى قصر أورنكان الذي شهد أجمل وأسعد لحظات عمره. ومن ناحية أخرى، لم يقبل بأن يتسلل المتطفلون للإقامة فيه، فأعطى أوامره إلى «چيروم» ليوصد أبوابه ومصاريعه، ويضع إلى الأبد قفلين ضخمين على بابي غرفة معيشة الكونتيسة وغرفة نومها حتى لا يتمكن أحد من ولوجهما. أوكل إلى «چيروم» أيضًا مسؤولية تأجير المزارع لبعض المزارعين واستلام الإيجارات منهم.

لم يكتفِ الكونت بقطع علاقته مع الماضي بهذه الطريقة. أمر غريب للغاية بالنسبة إلى رجل يربط بقاءه على قيد الحياة بذكرى زوجته، وتتقد نيران حزنه كلما رأى شيئًا يربطه بذكراها، وينتابه شعور بالغم والأسى لا يقوى على احتماله بمجرد رؤية فلذتي كبده. عهد بابنته إليزابيث وابنه برنارد إلى شقيقته العجوز التي تكبره سنًا، والتي تقيم في «شومون»، ثم ذهب في رحلة بعيدة. حظيت إليزابيث بعناية واهتمام عمتها «آلين»، تلك المخلوقة التي تتسم بحس المسؤولية ونكران الذات. عاشت إليزابيث طفولةً مرفهةً وجادةً وملتزمةً، حيث تشكلت عاطفتها في وقت نمت فيه شخصيتها وتطور فكرها. تلقت تعليمًا راقيًا ووافيًا يتميز بالالتزام الأخلاقي الصارم. عندما بلغت العشرين عامًا من عمرها، أضحت فتاةً ممشوقةَ القوام، تتحلى بالشجاعة والجرأة، حيث كان وجهها الغارق قليلًا في الكآبة يتألق في بعض الأحيان بابتسامة صافية حنونة، فهو أحد الوجوه الذي ارتسم عليه مُسبقًا مزيج من المحن ولحظات السعادة التي يخبئها لها القدر. بدت عيناها دائمًا مغرورقتين بالدموع عندما تتأثران برؤية أي شيءٍ. تنثر خصلات شعرها الصفراء الشاحبة ملامح البشاشة على وجهها.

تجرع الكونت «داند□يل» قليلًا مرارة الألم، في كل مرة بين كل رحلتين، كان لزامًا عليه أن يمكث برفقة ابنته؛ لذا فقد اصطحبها خلال شتاءين متواليين إلى رحلتيه في إسبانيا وإيطاليا. وهناك في روما قابلت «بول ديلروز» الذي التقاها مجددًا في نابولي، ثم في سيراكيوز، وبعد ذلك في أثناء رحلة طويلة إلى صقلية. نشأت بينهما علاقة ودٍ عميقة لم يدركا قوة أواصرها إلا عندما حانت لحظة انفصال كليهما عن الآخر.

وهكذا نشأ بول، مثلما نشأت إليزابيث، في أحد الأقاليم برفقة إحدى قريباته المخلصات التي سعت بشتى الطرق أن تنسيه، بفضل رعايتها له وغزارة حنانها تجاهه، مأساة طفولته الأليمة. وبالرغم من أنها لم تتمكن من أن تنسيه كارثته المفجعة فإنها نجحت على الأقل في مواصلة ما قد بدأه الأب وجعلت منه فتىً مستقيمًا ووفيًا، محبًا للعمل، واسع المعرفة والثقافة، دؤوبًا، ومتطلعًا إلى الحياة. درس في المدرسة المركزية بباريس، ثم أدى خدمته العسكرية، وظل يدرس في ألمانيا مدة عامين متفحصًا بعض القضايا الصناعية والميكانيكية التي لطالما استهوت لبه وأسرت قلبه قبل أي شيءٍ آخر.

يملك بول شعرًا أسود طويلًا مفروقًا في الوسط، ذو وجهٍ نحيفٍ قليلًا وذقنٍ بارزٍ يعطي لمن يراه انطباعًا بالقوة والصلابة. كشف له لقاؤه مع إليزابيث عالمًا آخرَ تتدفق فيه المشاعر والعواطف التي كان يزدري بها حتى تلك اللحظة. سرت النشوة العارمة الممتزجة بالدهشة البالغة في وجدانيهما، وبعث الحب فيهما روحين جديدتين نقيتين متحررتين ينعشهما الأمل. تتناقص حماستاهما مع العادات التي فرضتها عليهما طبيعة حياتهما القاسية البائسة. عندما عاد بول إلى فرنسا، تقدم ليطلب يد الفتاة الشابة التي أبدت موافقتها على الفور. أعلنِ الكونت داند□يل أنه أضاف قصر «أورنكان» إلى مهر إليزابيث في العقد الذي أبرم قبل الزواج بثلاثة أيام. قرر الزوجان أن يقيما هناك، وأخذ بول يبحث حينئذٍ في أودية الإقليم الصناعية عن إحدى المؤسسات التي يمكنه أن يتملكها ويديرها.

تزوجا في «شومون» يوم الخميس 30 يوليو، في إطار حفلٍ خاصٍ للغاية، لأنه تواردت الكثير من الأخبار حول اندلاع الحرب. في أثناء الغداء العائلي الذي جمع الشهود أيضًا، تعرف بول على «برنارد» شقيق إليزابيث، تلميذ بالكاد يبلغ من العمر سبعة عشر عامًا، بدأ إجازته للتو، وقد أسر بروحه الطيبة وبشاشته وصراحته وجدان صهره. اتُّفق على أن «برنارد» سوف يلحق بهما في غضون بضعة أيام ليقيم معهما في القصر.

أخيرًا، في تمام الساعة الواحدة، غادر بول وإليزابيث شومون، واستقلا القطار. توجها إلى القصر متعانقي الأيدي حيث سيقضيان هناك سنوات ارتباطهما الأولى، على أمل أن يتكشف أمام أعينهما مستقبل غامر بالسعادة والطمأنينة. كانت الساعة قد بلغت السادسة والنصف عندما أبصرا «روزالي» زوجة «چيروم» أمام درج مدخل القصر، حيث بدت سيدةً سمينةً قليلًا، ذات وجنتين ورديتين ومظهر لائق يبعث على البهجة. قام الزوجان، قبل تناول العشاء، بجولة سريعة في الحديقة، ثم تجولا داخل جنبات القصر.

لم تتمالك إليزابيث الدموع التي انجرفت من عينيها. وعلى الرغم من أنها لم تثرها أية ذكرى فقد بدا لها وكأنها عثرت على ما تبقى لها من رائحة والدتها التي لم تعرف عنها سوى القليل، ولم تعد تذكر ملامح وجهها. شعرت وكأن روح أمها المتوفاة تطوف في زوايا الممرات. انبعثت من المروج الخضراء الكثيفة رائحة عطرة مميزة. ارتجفت أوراق الأشجار إثر مداعبة النسيم المصحوبة بتمتمةٍ ظنت أنها تناهت من قبل في هذا المكان، وفي نفس التوقيت إلى مسامعها ومسامع والدتها. سألها بول:

- لماذا تبدين حزينة يا إليزابيث؟

- لا، لست حزينةً، بل منزعجة ومضطربة قليلًا. أشعر بأن والدتي استقبلتنا هنا فور وصولنا إلى هذا الملاذ الآمن، حيث حلمت بأن تقضي بقية عمرها، وحيث يراودنا الآن نفس الحلم؛ لذا شعرت بالقلق يقبض على قلبي. أبدو وكأني غريبة عن هذا المكان، متطفلة أتت لتفسد سلامه وتزعج راحته. فكر إذن في هذا الأمر! تعيش والدتي هنا في هذا القصر منذ أمد بعيد! تقطن هنا بمفردها. لم يجرؤ أبي على القدوم

إلى القصر، وأقول لنفسي إنه ربما ليس لدينا الحق في المجيء إلى هذا المكان، لقد تصرفنا بمبالاة لم نعتدها من قبل. ابتسم بول قائلًا لها:

- حبيبتي الغالية، أعتقد أنه ينتابك -ببساطة شديدة- شعور بعدم الارتياح والانزعاج الذي يتملك أي شخص فور وصوله في نهاية اليوم إلى بلدٍ جديدٍ.

- لا أعلم. لا شك أنك على حق.. ومع ذلك، أشعر بأنني عاجزة عن مقاومة توتري وانزعاجي الشديدين، وهذا يتعارض مع طبيعتي! هل تؤمن باستشعار الأحداث قبل وقوعها يا بول؟

- لا، وأنتِ؟

قالت ضاحكة وهي تمد شفتيها: «حسنًا، ولا أنا أيضًا».

تفاجأ الزوجان بالعثور على غرف معيشة وغرف نوم في القصر لم تطأها قدم إنسان. بناءً على أوامر الكونت، لم تخضع الغرف لأي تبديل أو ترتيب منذ أن فارقت «هيرمين داند□يل» الحياة. ظلت جميع التحف، وأبسطة الجدران، واللوحات والأعمال الفنية، ومقاعد القرن السابع عشر الأثرية الطراز، والمفروشات الفلمنكية في مكانها، وبقي جميع الأثاث الذي جمعه الكونت ليضفي رونقًا جماليًا ويزين به قصره كما هو لم يشبه أي تغيير. عاد الزوجان، بعد تناول العشاء، إلى حدائق القصر، وتنزها في أنحائها متشابكا الأيدي وغارقين في الصمت. أبصرا من شرفة القصر بعض الأضواء المتلألئة المتناثرة في الوادي الذي يخيم عليه الظلام الدامس. قالت إليزابيث بصوت خفيض لحبيبها:

- بول، هل لاحظت، في أثناء تجولنا في أرجاء القصر، أننا مررنا بباب مغلق بقفل قديم ضخم؟

- في منتصف الرواق الطويل، باب قريب جدًا من غرفتك، أليس كذلك؟

نعم. إنها غرفة نوم والدتي المسكينة. أمر والدي بإغلاقها وإغلاق الغرفة التابعة لها. وضع «چيروم» على بابيهما قفلين ضخمين وأرسل مفتاحيهما إلى أبي. لذلك، لم يستطع أحد أن يدخل إليهما منذ تلك اللحظة. تحوي الغرفتان كل شيء كانت تستخدمه والدتي، الثياب غير المكتملة التي كانت تحيكها، وكتبها المعتادة. عُلقت على الجدار المقابل للباب بين نافذتين لا تزالا موصدتين صورة والدتي التي رسمها أحد الرسامين العظام، وهو صديق مقرب لأبي، بناء على طلبه قبل أن توافيها المنية بعام، إنها صورة كاملة الطول وتُعدّ الصورة الأقرب إلى قلبها كما أخبرتني. يوجد بجانب الصورة مقعد الصلاة الخاص بها. أعطاني والدي هذا الصباح مفتاح قفل غرفتها، ووعدته بأن أجثو على ركبتي راكعةً على هذا المقعد، وأن أتضرع إلى الله أمام صورتها.

- إذن هيا بنا يا إليزابيث.

ارتجفت يد المرأة الشابة في يد زوجها في أثناء صعودهما الدرج المؤدي إلى الطابق العلوي. أضاءا المصابيح التي تصطف بطول الردهة. توقف الزوجان في

مواجهة باب عريض يتوسط جدارًا سميكًا. قالت إليزابيث لزوجها بصوت مرتعش: «هيا، افتح الباب». أعطته المفتاح. أدار المفتاح في القفل، ثم أدار مقبض الباب. بيد أن إليزابيث قبضت بغتةً على ذراع زوجها قائلة:

- بول، بول، لحظة واحدة.. يكتنف مشاعري اضطراب عظيم! ها أنا سوف أقف للمرة الأولى أمام والدتي، في مواجهة صورتها.. وها أنت ذا تقف بجانبي يا عزيزي.. يبدو أن حياتي كلها كفتاة صغيرة ستتشكل من جديد. قال لها بول، ضامًا إياها بشدة إلى صدره:

- نعم، كفتاة صغيرة، وأيضًا كامرأة جميلة.. تملصت من بين ذراعيه، استعادت أنفاسها وهمست إليه: «دعنا ندخل الغرفة يا عزيزي».

دفع بول الباب. عاد إلى الردهة آخذًا أحد المصابيح المُعلقة على الجدار، ثم وضعه فوق إحدى الطاولات في الغرفة. كانت إليزابيث قد ولجت باب الغرفة وتسمرت قدماها أمام صورة والدتها. ظل وجه صورة والدتها مكسوًا بالظلام، فأعادت وضع المصباح بطريقة تسمح لها برؤية كل تفاصيلها بوضوح تام.

- كم هي جميلة يا بول!

اقترب بول من الصورة رافعًا رأسه. جثت إليزابيث على ركبتيها خائرة القوى على مقعد الصلاة. ولكن بعد برهة قصيرة من الوقت، نظرت إلى بول بدهشة بالغة، بعد أن غرق في صمت مريب. وقف بول جامدًا كصنم بلا حراك، امتقع وجهه غضبًا، واتسعت عيناه بنظرة مليئة بالهلع الشديد، حينئذ صاحت إليزابيث:

- بول! ماذا حدث لك؟

تراجع بضع خطوات إلى الوراء، دون أن يحول نظره عن صورة الكونتيسة «هيرمين». أخذ يترنح مثل شخص أسرف في احتساء الخمر، وصارت ذراعاه تخفقان على جانبيه في الهواء، ثم تلعثم بصوت أجش ومرتعش: هذه المرأة.. هذه المرأة..

سألته إليزابيث بإلحاح، ماذا تريد أن تقول؟

- هذه المرأة هي التي طعنت والدي وأردته قتيلًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث

أمر بالتعبئة العامة

سادت حالة من الصمت المفزع بعد أن أشار بول بأصابع الاتهام المجحف إلى الكونتيسة. وقفت إليزابيث في مواجهة زوجها، وهي تسعى إلى إدراك فحوى كلمات مرعبة وقاتلة ترددت على مسامعها، وأصابت روحها بجروح غائرة. تقدمت خطوتين نحو زوجها، ثبتت عينيها في عينيه، ثم تحدثت بصوت منخفض للغاية، بالكاد سمعه بول:

- ماذا قلت للتو يا بول؟ إنه لأمر مريع!

أجابها بنفس نبرة صوتها المنخفضة قائلًا:

- نعم، إنه حقًا لأمر مريع، حتى أنني أكاد لا أصدقه حتى الآن.. ولا أود تصديقه.

- إذن.. فقد جانبك الصواب، أليس كذلك؟ اعترف بأنه قد اختلط عليك الأمر.

توسلت إليه بجميع جوارحها، وكأنها تأمل في أن تثنيه عن اعترافه. تشبثت عيناه من جديد بتفاصيل الصورة الملعونة المعلقة وراء زوجته، وراح يرتعش من رأسه حتى أخمص قدميه، مؤكدًا لها وهو يضم قبضتيه غاضبًا:

- آه! إنها هي، إنها هي.. أنا أعرفها جيدًا.. هي من قتلت..

اندلعت في قلبها ثورة شديدة من الغضب، وهي تضرب بانفعال بكلتا يديها على صدرها: «والدتي! كيف لوالدتي أن تقتل.. والدتي أنا! تلك المرأة عشقها أبي حد الجنون ولم يكف عن ذلك حتى الآن! والدتي التي كانت تداعبني، وتهدهدني، وتعانقني! لقد نسيت كل شيء بشأنها، ولكنني لم أنْسَ مطلقًا مداعبتها وقبلاتها الحنونة! تلك المرأة تقدم على ارتكاب جريمة قتل!»

- إنها هي دون أدنى شك.

- آه! بول، لا تتفوه بمثل هذه السخافات الشائنة! كيف بمقدورك أن تؤكد ذلك بعد مرور فترة طويلة من ارتكاب الجريمة؟ كنت مجرد طفل، ولم تتمكن من رؤية المرأة سوى وقت قليل للغاية! بالكاد بضع دقائق. صاح بول بأعلى صوته قائلًا:

- لقد دققت فيها النظر أكثر من أي شيء آخر. لم تفارق صورتها مخيلتي منذ وقوع الجريمة. حاولت في بعض الأحيان أن أتخلص من ملاحقتها لي، مثلما يسعى المرء إلى الهروب من كابوس، بيد أنني فشلت فشلًا ذريعًا. وكما أنني متيقن أشد اليقين من أمر وجودي هنا، واثق بالطبع أنه يمكنني التعرف على صورتها وإن مر عليها عشرون عامًا! إنها هي بكل تأكيد.. انظري، انظري إلى هذا الدبوس الزيني المؤطر بثعبان مذهب والمعلق في صدارها.. جزع منقوش! ألم أخبرك بذلك! وعينا هذا الثعبان من الياقوت! والوشاح المصنوع من الدانتيل الأسود الذي يلتف حول كتفيها! إنها هي دون شك! إنها المرأة التي رأيتها!

استشاط بول غضبًا وجن جنونه، وراح يهدد بقبضته صورة هيرمين داند□يل، حينئذٍ صاحت إليزابيث التي تمزق قلبها لسماع تهديده ووعيده: «اصمت، اصمت، إياك وفعل ذلك». أرادت أن تضع يدها على فمه لكتم صوته إلى الأبد، لكن بول أصدر إليها إيماءةً لتتراجع إلى الخلف وكأنه يرفض أن تلامسه. صدرت عنه هذه الإيماءة بطريقة مفاجئة وبتلقائية شديدة حتى أن زوجته انهارت وانتحبت بحرقة أليمة، في الوقت الذي احتدم فيه غيظه، وانهالت على جسده المنهك جلدات الألم والكراهية. غدا فريسة لحالة مفزعة من الهذيان دفعته إلى الرجوع إلى الوراء نحو الباب متلفظًا بتلك العبارات:

- ها هي ذا! نفس هيئة ثغرها وتعبيرات نظراتها الشرسة! تخطط لجريمتها. أتمكن الآن من رؤيتها.. أراها بكل وضوح... تتقدم باتجاه والدي! تحاصره! ترفع ذراعها! تطعنه بسكينها الحاد!

فر بول هاربًا.

قضى بول ليلته في الحديقة يهرول بعشوائية بين الممرات المظلمة مرتاعًا مثل مجنون أو يلقي بجسده المنهك على الأعشاب منخرطًا في نوبة بكاءٍ مريرٍ.

لم يكن بول يعاني طوال حياته سوى من ذكرى الجريمة الشنعاء. قلَّت معاناته في بعض الأحيان، بيد أنها وصلت إلى ذروتها في بعض المواقف، حتى بدت له مثل جرح لا يندمل. كان الألم هذه المرة غير متوقع، وعلى الرغم من توازن تفكيره ورباطة جأشه المعتادة فَقَدَ عقله وطار لبه. برهنت أفكاره، وأفعاله، ومواقفه، والكلمات التي صاح بها طوال الليل، على أنه شخص فقد القدرة على التحكم في نفسه.

ظلت فكرة واحدة تراود ذهنه المضطرب، حيث تبعثرت جميع الأفكار والانطباعات مثل أوراق في مهب الريح، فكرة وحيدة مثيرة للفزع: «أعرف السيدة التي قتلت والدي، والمرأة التي أحبها هي ابنة هذه السيدة!»

هل ما زلت أحبها؟ بكى بول بحرقة شديدة حزنًا على السعادة التي أدرك أنها تحطمت، لكن هل لا يزال يحب إليزابيث؟ هل يمكنه أن يحب ابنة هيرمين داند□يل؟

عندما عاد في الساعات الأولى من اليوم إلى القصر، ومر أمام غرفة إليزابيث، لم ينبض قلبه بسرعته المعتادة. أزال بغضه للقاتلة كل المشاعر التي يخفق بها قلبه كالحب، والرغبة، والحنان، وحتى الشفقة أيضًا.

قللت حالة الاسترخاء والفتور التي استسلم لها بول لبضع ساعات من حدته وهدأت قليلًا من روعه، بيد أنها لم تغير شيئًا من ترتيباته. ربما أبى بشدة، دون التريث في التفكير، أن يقابل إليزابيث، إلا أنه أراد أن يزود نفسه بكل المعلومات اللازمة، وأن يتخذ وهو واعي العقل قرارًا سوف يحل بطريقة أو بأخرى، نكبة تنهي مسيرة حياته البائسة.

كان لزامًا عليه، قبل أي شيء، أن يستجوب «چيروم» وزوجته، فشهادتهما ستغدو ذات قيمة كبيرة لأنهما كانا يعرفان الكونتيسة عن قرب. ستتضح على الفور بعض الملابسات التي تتعلق بالتواريخ على سبيل المثال. ذهب للقائهما في بيتهما الصغير، فاضطرب كلاهما وأصيبا بانزعاج شديد. أومأ إليه الاثنان بخوف، ثم صاح «چيروم» الذي كان يمسك صحيفة بيده:

- حسنًا، ربما يكشف لي سيدي حقيقة ما يجري: سيُعلن عن ذلك خلال بضع ساعات.

- الإعلان عن ماذا؟

- الإعلان عن التعبئة العامة. سيرى سيدي ذلك بنفسه. لقد التقيت بعدد من الجنود والأصدقاء الذين نما إلى علمهم هذا الأمر. أعدت الملصقات. تطلع إليه بول بشرود قائلًا:

- الملصقات جاهزة دائمًا.

- نعم، لكن ستُلصق قريبًا، سوف ترى ذلك يا سيدي. هؤلاء الخنازير -آسف ياسيدي، لا توجد كلمة أخرى لأنعتهم بها- هؤلاء الخنازير يبتغون الحرب. استأنفت النمسا جولة جديدة من المفاوضات، وفي تلك الأثناء اتخذت إجراءات التعبئة العامة، حدث ذلك منذ بضعة أيام، والذي يثبت صحة كلامي هو أن النمسا منعت دخول أي شخص إلى أراضيها. والأكثر من ذلك هو أن بعض النمساويين هدموا البارحة محطة قطار فرنسية وفجروا قضبانها. فلتقرأ يا سيدي!

جال بول بنظراته بين الأخبار العاجلة في الصحيفة، ولكن بالرغم من استشعاره الخطر فإن فكرة الحرب بدت بالنسبة إليه أمرًا مستبعدًا حدوثه فلم تنل منه سوى اهتمامٍ عابرٍ، ثم أبدى رأيه بقوله:

- سيتم تسوية كل شيء، هذا هو أسلوبهم في الحوار لإزعاج عدوهم وإرهاقه، بيد أنني لا أصدق هذه السخافات.

غمغمت «روزالي» قائلة: «لم يجانب سيدي الصواب فيما قاله».

لم يعد بول ينصت إلى أحد، تمحور تفكيره فقط حول مأساة قدره المحتوم، ومحاولة الحصول على إجابات مقنعة من «چيروم». ولأنه لم يكن قادرًا على تمالك نفسه، تطرق إلى موضوعه بتلقائية شديدة دون أدنى تردد.

- ربما تعلم يا «چيروم» أنني والسيدة إليزابيث فتحنا غرفة الكونتيسة داند□يل.

أصاب هذا التصريح الحارس وزوجته بالصدمة والذهول، كما لو كان اختراق هذه الغرفة المغلقة منذ أمد طويل، غرفة السيدة كما كانوا يطلقون عليها، يُعد بمثابة انتهاك للقدسيات. تلعثمت «روزالي» قائلة: «ما هذا بحق السماء؟»، أضاف «چيروم»: «ولكن لا، فقد أرسلت المفتاح الوحيد لقفل الباب إلى السيد الكونت».

- لقد أعطاه لنا صباح أمس.

سأله بول على الفور، دون أن يعير أي اهتمام إلى ذهولهما:

- توجد صورة للكونتيسة معلقة بين النافذتين. في أي وقت أُحضرت هذه الصورة ووضعت هناك؟

لم يجبه چيروم على الفور، بل راح يفكر. نظر إلى زوجته، ثم نطق قائلًا:

- الأمر بسيط للغاية، في الوقت الذي أحضر فيه الكونت كل أثاث القصر، قبل أن يقيم فيه.

- في أي وقت بالضبط؟

تملكت بول حالة لا تحتمل من القلق في أثناء الثواني الثلاث أو الأربع التي انتظرها لسماع إجابة چيروم. استأنف چيروم التفكير قائلًا: «حسنًا حسنًا، في ربيع عام 1898».

- 1898

كرر بول هذا التاريخ بصوت خفيض. اغتيل والده في نفس هذا العام!

سأله بول دون أن يمهله وقتًا للتفكير، وبنفس رباطة جأش قاضي التحقيقات الذي لم يحدْ عن الخطة المرسومة له:

- إذن متى وصل الكونت والكونتيسة إلى هنا؟

وصل الكونت وزوجته إلى القصر يوم 28 أغسطس 1898، ثم رحلا عن القصر إلى «ميدي» يوم 24 أكتوبر.

تعرت الحقيقة الآن أمام بول، ما دام حادث قتل والده وقع في يوم 19 سبتمبر، وبرزت أمام عينيه بغتة الأحداث والظروف المتشابكة معها، والتي تقدم تفسيرًا واضحًا لتفاصيلها الجوهرية. تذكر أن والده ربطته علاقة صداقة وثيقة مع الكونت داند□يل. قال لنفسه إن والده كان قد تنامى إلى علمه، في أثناء رحلته إلى الألزاس، خبر إقامة صديقه الكونت داند□يل في «لورين»، وخطط لمفاجأته بزيارة. أخذ يقدر المسافة بين أورنكان وستراسبورج ولاحظ أنها تتوافق مع عدد الساعات التي قضاها في القطار بصحبة والده. سأل چيروم مرةً أخرى:

- كم كيلومترًا من هنا إلى الحدود؟

- سبعة كيلومترات بالضبط يا سيدي.

- يمكننا الذهاب، على الجانب الآخر من الحدود، إلى مدينة صغيرة قريبة من هنا، أليس كذلك؟

- نعم سيدي، مدينة إبريكورت.

- هل يوجد طريق مختصر يؤدي إلى الحدود؟

- نعم سيدي، يوجد طريق ينتهي بمنتصف الحدود، ممر ضيق في طرف البستان.

- هل هذا الطريق يمر عبر الغابة؟

- عبر غابات السيد الكونت

- وفي تلك الغابات..

لم تعد هناك وسيلة أخرى تمكن بول من الوصول إلى اليقين المطلق، ليس عبر تفسير الأحداث فقط، بل عبر تجليها ووضوحها كوضوح الشمس في كبد السماء، حيث غدت -إذا جاز لنا قول ذلك- مرئيةً وملموسةً. يتبقى فقط طرح السؤال الجوهري بالغ الأهمية: ألا توجد كنيسة صغيرة تتوسط فرجة الغابة؟ لماذا لم يوجه بول إلى «چيروم» هذا السؤال؟ هل ظن بول أن الحقيقة تعرت، وأن سؤاله ربما يقود حارس القصر إلى التطرّق إلى بعض الملاحظات والمقارنات التي من شأنها أن تبرز الغرض الأساسي من هذا اللقاء؟ اكتفى بول بتوجيه هذا السؤال:

- ألم تسافر كونتيسة داند□يل إلى أي مكان خلال شهرَي إقامتها هنا في القصر؟ غابت بضعة أيام..

- لا صدقني. لم تخطُ سيدتي خطوة واحدة خارج حدود أملاك سيدي الكونت.

- آه! ألمْ تخطُ خارج حدود البستان؟

- لا سيدي، اعتاد سيدي الكونت بعد ظهيرة كل يوم أن يذهب بالسيارة إلى كور□ينيي، أو في اتجاه الوادي، بيد أن سيدتي الكونتيسة لم تخطُ خارج حدود البستان وغابات الكونت.

عرف بول كل ما أراد أن يعرفه. لم يبالِ بما قد يتطرق إلى ذهني چيروم وزوجته، لم يكلف نفسه عناء التذرع بأية ذريعة لهذه السلسلة غير المألوفة من الأسئلة غير المترابطة مع بعضها البعض. غادر بول منزلهما الصغير.

وعلى الرغم من تعجله في الوصول إلى غاية تحقيقه وبحثه الدؤوب، أرجأ تقصيه الحقائق خارج حدود أملاك الكونت إلى وقت لاحق. يبدو وكأنه يخشى الاصطدام بهذا الدليل الأخير القاطع، والذي بدا عديم الجدوى في ظل وجود الدلائل الأخرى التي أهدتها له تلك المصادفة العجيبة. عاد أدراجه إلى القصر، وعندما حان وقت الغداء، قرر الخضوع للقاء المحتوم الذي سيجمعه بزوجته. بيد أن الخادمة توجهت إليه في غرفة المعيشة وأخبرته أن السيدة إليزابيث تقدم خالص اعتذارها له، وأنها تشعر ببعض الإعياء؛ لذا تستأذنه في تناول الطعام بغرفتها. أدرك بول أنها تود أن تدعه يتصرف بكامل حريته، وأنها ترفض استعطاف قلبه متوسلة إليه بشأن والدتها التي تكن لها كل احترام، وأنها في نهاية المطاف تأبى الخضوع مسبقًا لقرارات زوجها.

تأهب بول عندئذٍ لتناول طعام الغداء، تحت مراقبة أعين الأشخاص الذين يخدمونه، يغمره شعور عميق بأن حياته قد تحطمت، وأنه وزوجته أصبحا منذ يوم ارتباطهما، -نتيجة لظروف خارجة عن إرادتيهما- عدوين لدودين، ولن يستطيع أي شيء في العالم أن يقارب بينهما. من المؤكد أنه لم يكن يبغضها أو يلقي باللوم عليها

جراء جريمة والدتها، لكنه استاء منها كرهًا، وكأنها ارتكبت خطأ فادحًا لكونها خرجت من أحشاء هذه الأم.

ظل بول مدة ساعتين عقب تناول الطعام حبيسًا بين جدران غرفة الكونتيسة. أراد أن يجمعه بالقاتلة لقاء مأساوي كيما يملأ عينيه من الصورة الملعونة، ويمنح ذاكرته قوة متجددة. راح يتفرس في أدق تفاصيلها. تفحص صورة الجزع المنقوش، نقوش الثعبان المذهب التي تمثل الإطار، رسومات الدانتيل على الوشاح الذي يلتف حول كتفيها، هيئة فمها، درجة لون شعرها، وملامح وجهها.

إنها نفس المرأة التي أبصرتها عيناه ذات مساء في سبتمبر. لاحظ في أحد أركان اللوحة توقيعًا للرسام، حيث كُتب في الأسفل: لوحة للكونتيسة «هـ». لا شك أنه عُرضت اللوحة، واكتُفي بهذا الاختصار السري الذي يعني: الكونتيسة هيرمين.

قال بول لنفسه: «ما زال أمامي بضع دقائق حتى ينبعث الماضي من جديد. وضعت يدي على الجاني، لم يتبقَّ سوى العثور على مسرح الجريمة. إذا كانت الكنيسة موجودة بالفعل في الغابة فسوف تكتمل الحقيقة». سار بخطى واثقةٍ نحو الحقيقة المتوارية قليلًا، كان يخشاها حقًا ما دام لم يعد بإمكانه أن يفلت من قبضتها. ومع ذلك، كم تجرع قلبه غصص الألم، وكم أحاط به الفزع، وهو يسلك الطريق المؤدي إلى طريق آخر سار فيه بصحبة والده منذ ستة عشر عامًا!

عبر البستان في اتجاه الحدود، ثم انعطف يسارًا. تراءى أمامه، عند مدخل الغابة، ممر طويل محاطٌ بأشجار التنوب، فاجتازه، ثم لاحظ أنه على بُعد مسافة خمسمئة خطوة، يتفرع منه ثلاثة ممرات أخرى ضيقة. استكشف ممرين من الثلاثة، ووجد أنهما ينتهيان إلى أجمتين يتعذر اختراقهما. يؤدي الممر الثالث إلى قمة أكمة. نزل من تلك القمة عابرًا أحد الممرات الأخرى محاطًا على يساره بأشجار التنوب. أدرك بول أن الباعث الرئيس وراء اختيار هذا الممر المحاط بأشجار التنوب هو أنه أيقظ في داخله ذكريات نائمة وجهت خطواته دون أن يدري.

انتهى الممر في بدء الأمر بانحناء حاد مشكلًا غابة من أشجار الزان الطويلة التي تشابكت قممها للغاية؛ ثم استقام الممر مرة أخرى. لاحظ بول في نهاية القبة المظلمة التي يسير أسفلها، انفراجة ضوء تُعد بداية لممر دائري. لم تعد ساقاه تحملانه لكثرة قلقه وغمه، كان عليه أن يبذل مجهودًا مضنيًا للتقدم بضع خطوات أخرى. أليست هذه هي فرجة الغابة التي تلقى فيها والده طعنات أردته قتيلًا؟ تملكته حالة من اليقين التام بأنه وجد ضالته المنشودة، بمجرد أن لمحت عيناه الفتحة المضيئة. بُعث الماضي من جديد في أعماقه، مثلما حدث في غرفة لوحة الكونتيسة، وتجلت أمامه الحقيقة كضياء بدر مكتمل في عتمة سماء حالكة!

إنها نفس فرجة الغابة التي تحيط بها دائرة من الأشجار الشاهقة، والتي يغطيها بساط من الحشائش الخضراء والطحالب، تقسمه الأزقة الضيقة إلى مساحات وأشكال متماثلة. وهناك على اليسار، تنتصب الكنيسة الضخمة تحرسها شجرتا طقسوس يذكرهما بول جيدًا. الكنيسة! الكنيسة الصغيرة العتيقة التي حُفرت واجهتها في ذاكرة الرجل الشاب مثلما تُحفر الأخاديد! نمت الأشجار الأخرى وتغيرت

هيئتها. تبدل شكل فرجة الغابة، وتشابكت معها الممرات بطريقة مغايرة. من الممكن أن يكون قد أخطأ. ولكن هذا المبنى الضخم من الجرانيت والإسمنت ما زال ثابتًا وراسخًا في مكانه لم يشبه أي تغيير، استغرق الأمر قرونًا ليكتسب اللون الرمادي الأخضر الذي يعد بصمة تركها الزمان على حجارته، ولن يتبدل هذا الزنجار إلى الأبد. تلك الكنيسة التي تنتصب هناك بنقوشها المنحوتة بشكل نجمي على نوافذها الزجاجية المغبرة، هي التي خرج من بابها يومًا الإمبراطور الألماني، تتبعه المرأة التي، بعد عشر دقائق، اغتالت...

توجه بول نحو الباب، أراد أن يرى المكان الذي تحدث فيه والده إليه لآخر مرة في حياته. يا له من شعور يتعذر وصفه! يبرز من الكنيسة في الخلف نفس السقف الصغير الذي كان يقي دراجتيهما من الأمطار الغزيرة، وهذا هو نفس الباب الخشبي ذي الزخارف الحديدية الصدئة. صعد الدرجة الوحيدة أمام الباب، رفع المزلاج، ثم دفع المصراع بصورة بطيئة، ولكن بمجرد ولوج الباب، وثب عليه رجلان كانا يختبئان يمينًا ويسارًا في الظلام الحالك. صوب أحدهما مسدسًا في وجهه. أي معجزة تلك التي جعلت بول يبصر فوهة المسدس وينحني في الوقت المناسب كيلا تصل إليه الرصاصة؟ دوى صوت طلق ناري آخر، لكن بول دفع الرجل منتزعًا السلاح من يده، بينما راح مهاجمه الثاني يهدده بخنجر. تراجع بول إلى الخلف بظهره خارجًا من باب الكنيسة، مد ذراعه إلى الأمام ممسكًا بالمسدس ومحتجزًا إياهما، ثم صاح قائلًا:

- ارفعا أياديكما

لم ينتظر حتى يمتثلا لأمره، وضغط دون وعي على الزناد مرتين متتاليتين. في كلتا المرتين لم يتناهَ إلى مسامعه سوى صوت طقطقة الزناد.. لم يكن هناك دوي انفجار لطلق ناري. لكن ذلك كان كافيًا للغاية كي يستدير هذان الوغدان المرتعبان بأقصى سرعة ويفران هاربين.

ظل بول حائرًا لوهلة، وأصابه الذهول جراء هذا الكمين المباغت. راح يطلق النار من جديد على هذين الرجلين الفارين. ولكن ما الفائدة! فالسلاح الملقم دون أدنى شك برصاصتين يصدر عنه فقط صوت طقطقة وليس طلق ناري. حينئذ، شرع يركض في الاتجاه الذي فر منه مهاجماه، وتذكر بغتة أن الإمبراطور ورفيقته عندما ابتعدا قديمًا عن الكنيسة، أخذا نفس هذا الاتجاه الذي يتضح جليًا بأنه يؤدي إلى الحدود.

أدرك الرجلان على الفور أن بول يلاحقهما، فشقا طريقهما عبر الغابة وتوغلا بين الأشجار، لكن بول الذي بدا أكثر مرونة ورشاقة منهما، تجاوزهما، وسرعان ما التف حول منخفض أرضي مليء بنباتات السرخس والعُليق كانا قد جازفا بالعبور فيه. فجأة، أطلق أحدهما صافرةً حادةً. هل كانت إشارة موجهة لشخص متواطئ معهما؟ توارا بعد فترة وجيزة خلف صف من الشجيرات الكثيفة. عندما اجتاز بول هذا الخط الكثيف من الأشجار، رأى في مواجهته على بعد مئة خطوة، جدارًا مرتفعًا يبدو أنه يحيط بالغابة من جوانبها كافة. كان الرجلان في منتصف المسافة

هناك، وتبين لبول أنهما يتجهان مباشرةَ نحو جزء من هذا الجدار توجد فيه بوابة صغيرة منخفضة.

ضاعف بول جهده وزاد من سرعته ليدركهما قبل أن يكون لديهما وقت كافٍ ليفتحا مصراعه. سمحت له الأرض الممتدة المكشوفة بتوسيع خطواته والركض خلفهما بأقصى سرعة ممكنة، تباطأت خطوات الرجلين بعد أن بدت عليهما علامات الإنهاك الشديد. صاح بول بصوت مرتفع:

- سوف أمسك بكما، أيها اللصين الحقيرين. أخيرًا سوف أعرف...

انطلق مرة أخرى صوت صافرة يعقبه صوت صيحة خشنة. كان بول على بعد ثلاثين خطوة فقط منهما، وسمعهما يتحدثان. فراح يكرر بفرحة جنونية:

- سوف أمسك بهما، سوف أمسك بهما.

نوى أن يصفع أحدهما في وجهه بمسدسه، وأن يقبض على الآخر. ولكن قبل أن يصلا إلى الجدار، فتح شخص ما الباب من الناحية الأخرى. ظهر شخص ثالث يريد تمريرهما عبر البوابة. ألقى بول مسدسه، واندفع بكل حماسة باذلًا أقصى طاقته، حتى أنه نجح في الإمساك بالباب وسحبه باتجاهه.

انفتح الباب مرة أخرى، وما رآه بول عندئذ أصابه بالصدمة والهلع، حتى أنه لم يفكر في التراجع بضع خطوات أو الدفاع عن نفسه لصد هذا الهجوم الجديد. أشهر الشخص الثالث -يا له من كابوس مرعب! وهل من الممكن أن يكون كل ما يجري أمام عينيه سوى كابوس مزعج؟ - سكينًا في وجهه، وبدا وجهه مألوفًا ومعروفًا بالنسبة إلى بول.. يشبه أحد الوجوه التي رآها من قبل، وجه رجل وليس وجه سيدة، نفس ملامح الوجه، نفس ملامح الوجه دون أدنى شك.. وجه تغضن جراء مرور ستة عشر عامًا، وجه ذو تعبيرات أكثر قسوة ووحشية وفظاظة، لكنها نفس ملامح الوجه، نفس الملامح!

وجّه الرجل طعنة قوية لبول، يشبه إلى حد كبير المرأة التي رآها من قبل والتي قتلت والده. إذا كان بول قد ترنح وتهاوى، فذاك لأنه أُصيب بارتجاج عصبيٍّ جراء ظهور هذا الشبح أمامه، ولأن شفرة الخنجر اصطدمت بالزر الذي يغلق كتفية سترته، فتحطم الخنجر. أصابه الدوار، وحجب الضباب رؤيته. تناهى إلى مسامعه صوت صرير الباب، ثم صوت خشخشة المفتاح في القفل، وأخيرًا هدير محرك سيارة تستعد للانطلاق على الجانب الآخر من الجدار. عندما استفاق من غيبوبته، لم يكن هناك شيء يفعله. أضحى هذا الشخص اللعين وتابعوه بعيدي المنال.

انصب كل تفكير بول، في تلك اللحظة، على لغز التشابه المحير بين وجه قاتلة أبيه والشخص الذي رآه اليوم. لم يفكر سوى في هذا الأمر قائلًا: «لقد وافت كونتيسة داند□يل المنية، وها هي الآن تُبعث من جديد في هيئة رجل لا تختلف ملامح وجهه عن ملامح وجهها. هل هذا وجه أحد أقاربها؟ وجه شقيق لها مجهول الهوية، وجه شقيق توءم؟ هل خُدعت بعد كل هذا؟ هل كنت ضحية لهلاوس تبدو طبيعية للغاية

في الأزمة التي أجتازها؟ هل هناك شخص يمنحني يقينَ أن هناك علاقة بين الماضي والحاضر؟ أحتاج إلى برهان قاطع.

وُجد هذا الدليل الآن تحت تصرف بول وبين يديه، برهان واضح للغاية حتى أنه من المستحيل أن تراود بول أية شكوك بشأنه بعد الآن. بعد أن لمح بعينيه بقايا الخنجر المتحطم، راح يجمع حطام مقبضه. وجد على رأس المقبض أربعة حروف بدت وكأنها نُقشت باستخدام الحديد الساخن، «هــ»، «يــ»، «ر»، «مــ». أول أربعة حروف من اسم هيرمين!

في تلك اللحظة، عندما أخذ بول يتأمل الحروف التي اكتسبت أهمية بالغة، وأضحت دليلًا دامغًا على ما يجول في خاطره. في تلك اللحظة - والتي لن تنمحي ذكراها إلى الأبد- شرع جرس إحدى الكنائس المجاورة في الرنين بطريقة تبعث على الغرابة. دوى في الأرجاء صوت رنين منتظم، رتيب، دون انقطاع، رنين يبعث على المرح والحزن في آن واحد! تمتم بول: «قُرعت أجراس الإنذار»، دون أن يوضح المعنى الذي تتضمنه تلك العبارة، ثم أردف:

- إنذار بالحرب على الأرجح.

تمكن بول بعد عشر دقائق من عبور الجدار مستغلًا تسلق بعض الفروع البارزة لإحدى الأشجار. تمتد أمام عينيه غابة فسيحة الأرجاء يشقها طريق. تتبع آثار السيارات التي مرت من هذا الطريق، وفي غضون ساعة، كان قد بلغ الحدود.

يعسكر هناك فريق من الجنود الألمان ولاحظ بول طريقًا أبيض اللون يستتر فيه عدد من الجنود المرتزقة المنتمين إلى الجيش الملكي البروسي. تمتد بعد ذلك، كتلة كبيرة من الحدائق والمنازل ذات الأسقف الحمراء. هل هذه البلدة الصغيرة التي استأجر فيها قديمًا هو ووالده دراجتين، مدينة إبريكورت الصغيرة؟

لم يتوقف دوي رنين الجرس الحزائني. أدرك بول أن الصوت ينبعث من فرنسا، ثم دوى رنين جرس آخر في مكان ما، في فرنسا أيضًا، ثم جرس آخر بجانب ليزرون. تُقرع الأجراس الثلاثة بنفس السرعة، كما لو كانوا يطلقون حولهم نداء استغاثة فزعة. كرر بول هذه الكلمات بقلق: «أجراس الإنذار.. أجراس الإنذار.. ينتقل الإنذار من كنيسة إلى أخرى.. ما عسى أن يكون ذلك؟ لكنه هم بطرد الأفكار المزعجة التي وثبت على ذهنه. لا، لا، لم ينصت جيدًا، ربما انبعث الصوت من جرس واحد وظل يتردد صدى صوته في أجواف الأودية، ثم سرى بين السهول. وعلى الرغم من ذلك، ظل بول يراقب الطريق الأبيض الممتد خارج المدينة الألمانية الصغيرة، ملاحظًا تدفقًا مستمرًا من سلاح الفرسان الذين وصلوا إلى هناك وراحوا ينتشرون في الريف. بالإضافة إلى ذلك، برزت كتيبة من جنود سلاح الخيالة الفرنسي على قمة إحدى الهضاب. يتفحص أحد الضباط الأفق بمنظاره، ثم يغادر بصحبة رجاله.

حينئذٍ، لم يستطع بول أن يتقدم ولو خطوة واحدة، فعاد إلى الجدار الذي عبره مكتشفًا أنه يطوق كل أملاك أورنكان والغابة والبستان. علِمَ من أحد الفلاحين العجائز أن

تشييده يعود إلى اثني عشر عامًا، وهذا يفسر لماذا لم يعثر على الكنيسة في أثناء استكشافاته على طول الحدود. تذكر بول أن أحد الأشخاص تحدث إليه ذات مرة بشأن كنيسة تقع داخل أملاك يحدها سياج. كيف لم يدرك هذا الأمر؟ سار بمحاذاة السياج، وأخذ يقترب رويدًا رويدًا من بلدة أورنكان التي لاحت أمام عينيه بغتة عبر فتحة شُقت في قلب الغابة. دوى مرة أخرى رنين جرس الكنيسة المتوقف منذ لحظات، وغدا صوته أكثر وضوحًا. ينبعث الصوت من جرس كنيسة أورنكان. بدا الصوت واهنًا ودقيقًا وممزقًا وكأنه نوح وعويل، وبالرغم من سرعته ورقته فإنه كان ذا طابع أكثر رسمية من أصوات قرع أجراس الموت. توجه بول نحو البلدة...

بدت أورنكان أمام ناظريه قرية جميلة، مزينة بزهور نباتات الغرنوقي والأقحوان التي تحتشد حول كنيستها. رأى بول مجموعة صامتة من الناس تقف أمام ملصق معلق أمام مبنى البلدية، تقدم بول وهم بقراءته:

قرار بالتعبئة العامة.

كانت هذه الكلمات ستجد صداها في قلبه وتتجلى معانيها الرائعة أمام عينيه لو قرأها في أي فترة أخرى من فترات حياته، بيد أن الأزمة التي يمر بها فاقت طاقته، حتى أن مشاعره تبلدت وتحجرت. عندما يحل منتصف الليل، سوف يبدأ اليوم الأول للتعبئة. يجب على الجميع أن يغادروا. إذن سوف يرحل. لا يوجد أي مجال للتردد. الواجب يكمن خلف هذه الكلمة: الرحيل.

هل سيرحل؟ في هذه الحالة.. لماذا لا يغادر على الفور؟ ما الطائل من العودة إلى القصر ورؤية إليزابيث مرة أخرى، واختلاق تبريرات باطلة ومؤلمة لمنح أو رفض العفو والغفران اللذين لم تلتمسهما حتى الآن، واللذين لا تستحقهما البتة ابنة هيرمين داند□يل؟

توقفت، أمام الفندق الرئيسي، كُتبت على بوابة إحدى الحافلات هذه الكلمات:

كور□ينى - أورنكان – خدمة محطة القطار.

استقل الحافلة عدد من الأشخاص، ودون المزيد من التفكير في موقف حاكته الظروف كما يحلو لهما، علم في محطة قطار كور□ينى أن القطار لن ينطلق إلا بعد مرور نصف ساعة من الآن، ولن تنطلق بعده أية قطارات أخرى، كما علم أيضًا أن القطار المسائي الذي سوف يستقله متممًا رحلته عقب وصوله إلى الخط الرئيس قد أُلغي. وبعد أن استعلم عن بعض الأشياء، عاد إلى المدينة متوجهًا إلى مكتب مؤجر سيارات يمتلك سيارتين فقط. تحدث مع صاحب المكتب، وقرر أن السيارة الكبرى سوف تتوجه دون تأخير إلى قصر أورنكان وتكون تحت تصرف السيدة «بول ديلروز»، ثم كتب إلى زوجته هذه الكلمات:

«إليزابيث،

الأوضاع تنذر بخطر بالغ؛ لذا ألتمس منكِ أن تغادري أورنكان بأقصى سرعة ممكنة. لم يعد السفر عبر السكك الحديدية أمرًا مطمئنًا، فأرسلت لك سيارة سوف تقلك في هذا المساء إلى منزل عمتك التي تقيم في شومون. أظن أن الخدام سوف

يرغبون في مرافقتك، وأنه في حالة اندلاع حرب -بالرغم من أن الأمور لا تزال غير محتملة- يجب على چيروم وزوجته أن يغلقا القصر ويعودا إلى كور□ يني. أما أنا فسوف ألتحق بكتيبتي. لن أنسى يا إليزابيث، مهما يخبئ لنا القدر، الإنسانة التي كانت خطيبتي والتي تحمل اسمي الآن.

بول ديلروز»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع

خطاب من إليزابيث

في تمام الساعة التاسعة، لم يعد الوضع محتملًا، وتملكت جوارح الكولونيل ثورة غضب عارمة. بحلول منتصف الليل -حدث ذلك في الشهر الأول من الحرب- اصطحب الكولونيل كتيبته إلى مفترق ثلاثة طرق، ينتهي أحدهم بمقاطعة لكسمبورج البلجيكية. كان العدو قد احتل البارحة الخطوط الحدودية وتوغل مسافة اثني عشر كيلومترًا تقريبًا. لذا؛ كان من الضروري، بناءً على أمر رسمي صادر عن القيادة العامة للفرقة للعسكرية، إيقاف تقدم العدو حتى حلول الظهيرة، أي حتى تتمكن الفرقة بأسرها من اللحاق بالكتيبة. دُعمت الكتيبة بسرية المدفعية 75.

ألزم الكولونيل رجاله بالتقهقر والانسحاب. توارت سرية المدفعية هي الأخرى عن الأنظار، بيد أنه مع إشراقة باكورة أضواء الصباح، رصد العدو مكان الكتيبة والسرية وأمطرهما بوابل من القذائف. تمركزت الكتيبة والسرية على بعد كيلومترين يمينًا، وبعد خمسة دقائق، سقطت عليهما القذائف، وأودت بحياة نصف دزينة من الجنود وضابطين. انتقلا إلى مكان جديد، وشُن أيضًا عليهما هجوم مباغت. تشبث الكولونيل برأيه، وفي غضون ساعة واحدة، فُقدَ ثلاثون رجلاً في المعركة، ودُمّر أحد المدافع. صاح الكولونيل بأعلى صوته: «تبًا لهم! كيف يرصدون أماكننا بتلك الطريقة؟ إنه أمر يفوق تصورات العقل!

اختبأ بول مع قادته وقائد المدفعية وعدد قليل من ضباط الارتباط خلف أحد المنحدرات، وتمكنوا هناك من رؤية أفق شاسع تمتد فيه هضاب متموجة، وعلى الجانب الأيسر منهم، بمسافة ليست بعيدة، تبرز قرية مهجورة. لم يكن هناك أي أثر للعدو أمام المزارع المتناثرة، وأيضًا على امتداد هذه المنطقة المهجورة. لا شيء يوحي بمنبع هذا السيل الجارف من القذائف. أرادت السرية 75 أن تجس نبض الأمور، وأطلقت بعض القذائف دون جدوى.

تأفف الكولونيل متضجرًا: «ما زالت أمامنا ثلاث ساعات، سوف نصمد». سقطت، في تلك اللحظة، قذيفة بين الضباط ورجال الارتباط منغرزة في الأرض. تقهقر الجميع إلى الخلف تحسبًا للانفجار، بيد أن أحد الرجال برتبة عريف، هرع إلى الأمام ممسكًا بالقذيفة وراح يتفحصها. صاح الكولونيل قائلًا: «هل أنت أحمق أيها العريف! اترك هذه القذيفة وبأقصى سرعة».

أعاد العريف القذيفة برفق في حفرتها، ثم اقترب مهرولًا نحو الكولونيل، جامعًا كعبي حذائه، ورافعًا يده إلى قبعته العسكرية:

- عذرًا سيدي الكولونيل، أردت أن أعرف فقط كم تبعد مسافة ارتكاز مدافع العدو من خلال تفحص القذيفة. إنهم على مسافة 5 كيلومترات، و250 مترًا. يبدو أن للاستعلام فائدة عظيمة. أربك هدوءه الكولونيل الذي صاح قائلًا:

- سحقًا! وماذا لو انفجرت القذيفة؟

- لا شيء سيدي الكولونيل! لن أخسر شيئًا...

- حقًا.. ولكن، بالرغم من ذلك، هذا أمر لا يصدق، ما اسمك؟

- ديلروز بول، عريف في السرية الثالثة.

- حسنًا أيها العريف ديلروز، أهنئك على شجاعتك، وأعتقد أن شارة رتبة الرقيب لم تعد بعيدة المنال، وفي أثناء انتظار الحصول عليها، أنصحك بألا تفعل ذلك ثانية.

لم تكتمل جملته إثر انفجار لا يبعد كثيرًا عن القذيفة. سقط أحد رجال الارتباط طريحًا على الأرض، مصابًا في صدره، بينما تهاوى أحد الضباط أسفل كتلة من الأرض.

قال الكولونيل

- هيا بنا، حتى تعود الأمور إلى نصابها الصحيح، لم يعد أمامنا شيء نفعله سوى أن نحني رؤوسنا أمام العاصفة الهوجاء. يجب على كل شخص أن يختبئ بقدر الإمكان في مكان آمن، ولنتحلى بالصبر. تقدم بول ديلروز مرة أخرى نحو الكولونيل:

- عذرًا سيدي الكولونيل لتطفلي وتدخلي فيما لا يعنيني، ولكن أعتقد أنه بإمكاننا أن نتحاشى...

- نتحاشى شظايا القذائف؟ اللعنة! لن أُغيّر موقعي مرةً أخرى. سوف تُرصَد تمركزاتنا مرة أخرى... اذهب يا بني، عدُ إلى موقعك. أصر بول قائلًا:

- ربما لا يتعلق الأمر، سيدي الكولونيل، بتغيير موقعنا، ولكن بطريقة إطلاق القذائف على عدونا.

سأله الكولونيل بسخرية مدهوشا من رباطة جأشه: «آوه! آوه! وهل لديك طريقة غائبة عن أذهاننا؟

- نعم، سيدي الكولونيل.

- فلتوضح ذلك.

- أمهلني عشرين دقيقة فقط سيدي الكولونيل، وفي غضون هذه الدقائق ستغير القذائف اتجاهها.

لم يستطع الكولونيل أن يكتم ضحكته وقال له:

- رائع حقًا! ولا شك أن القذائف ستسقط أينما تريد؟

- نعم سيدي الكولونيل.

- في حقل البنجر هناك الذي يقع على بعد خمسمئة متر إلى اليمين؟

- نعم سيدي.

مازح قائد المدفعية، الذي كان ينصت إلى هذا الحوار، بول قائلًا:

- وفي أثناء وجودك في هذا الحقل، أيها العريف، ألا يمكنك أن تحدد اتجاه قذائف العدو نحونا كي أتمكن بدقة من تحديد اتجاه إطلاق قذائفي وأدك المدفعية الألمانية؟

أجابه بول: «سيبدو هذا أمرًا صعبًا سيدي القائد، وسيستغرق وقتًا أطول، ولكنني سأبذل قصارى جهدي. في تمام الساعة الحادية عشرة، سيتطلب الأمر منك إلقاء نظرة على الأفق، في اتجاه الحدود. سوف أُطلق إشارة.

- أي إشارة؟

- ثلاثة أسهم نارية دون شك.

- لكن إشارتك لن يكون لها أية قيمة إن لم ترتفع في سماء موقع العدو.

- بالضبط سيدي.

أدى بول التحية العسكرية مستديرًا على كعبي حذائه، وقبل أن يتيح للضباط الوقت للتفكير في الموافقة على خطته أو إبداء الاعتراض عليها، انسل راكضًا بالقرب من المنحدر، ثم اتجه ناحية اليسار في طريق أشبه بخندق محفوف بنباتات العليق، متواريًا عن الأنظار.

تمتم الكولونيل: «شخص غريب، ماذا ينوي أن يفعل؟»

كيف للكولونيل أن يتخذ مثل هذا القرار وأن يمنح مثل هذه الجرأة لأحد جنوده! وبالرغم من ثقته المحدودة في نجاح هذه الخطة كان من المستحيل ألا ينظر إلى ساعته عدة مرات خلال الدقائق التي قضاها برفقة ضباطه خلف جدار ضعيف من أكوام القش. دقائق يشوبها الرعب، لم يفكر القائد لوهلة في الخطر الذي يحدق به، بل في الخطر الذي يهدد جميع من هم في ظل رعايته، والذين يعدّهم أولاده. يراهم من حوله ممددين في القش يرتدون أغطية الرأس، وآخرون مكومون في الأيكات أو مختبئون في الخنادق. يحتدم الإعصار العاتي بالقرب منهم، ويندفع مثل عاصفة بردٍ لينهي بأقصى سرعة ممكنة مهمته التدميرية. يقفز بغتة الرجال الذين يستديرون على كعب حذائهم ليسقطوا جثثًا هامدة بلا حراك، تتعالى صرخات الجرحى، وصيحات الجنود.. تتوالى عقب ذلك عاصفة هوجاء من الانفجارات.

ثم يخيم الصمت بغتة، صمت مطبق وكلي، ويمتد سكون لا نهائي في الفضاء الشاسع وعلى الأرض.

عبر الكولونيل عن سعادته، مطلقًا قهقهة وقائلًا: «عجبًا! العريف ديلروز رجل صلب وعنيد للغاية»

لم يكد الكولونيل ينهي كلامه حتى انفجرت إحدى القذائف على مسافة ألف وخمسمئة مترٍ إلى اليمين، ليس في حقل البنجر، ولكن أمامه. انفجرت قذيفة أخرى في مكان بعيدٍ للغاية. عندما انفجرت الثالثة، رُصد مكان الحقل، وأُمطر بوابل من القذائف. ظل الكولونيل والضباط يتفحصون دون هوادة الأفق بمناظيرهم، في الوقت الذي كثف فيه العدو جهوده لإطلاق سيل من القذائف على حقل البنجر.

في تمام الساعة الحادية عشرة، انطلق سهم ناري أحمر، ثم تبعه سهمان آخران. تسلح قائد المدفعية بمنظاره بعيد المدى، وسرعان ما لاحظ برج كنيسة يبرز بالكاد في أحد الأودية، ويبدو غير مرئي نظرًا لانخفاضه وموقعه المتميز بين تموجات الهضبة التي تتجاوز قليلًا قمة البرج، والتي يُخال للمرء أنها شجرة منعزلة. كان من السهل، وفقًا للخرائط، اكتشاف أن هذه الكنيسة تقع في قرية «بريموا». تواصل قائد السرية مع مساعده ليخبره بالمسافة الفعلية التي تفصل بينه وبين المدفعية الألمانية، والتي اتضحت له كوضوح الشمس في كبد السماء بفضل القذيفة التي تفحصها العريف.

بعد نصف ساعة، توقف إطلاق نيران المدفعية الألمانية، ومع إطلاق السهم الناري الرابع، واصلت سرية المدفعية 75 قصف الكنيسة والقرية وضواحيها المباشرة.

انضمت إلى الكتيبة، قبل الظهيرة بقليل، فرقة عسكرية من راكبي الدراجات، وصدرت لهم الأوامر بالتقدم مهما كلفهم ذلك من ثمن. تقدمت الكتيبة، وانتاب الجنود بعض القلق بمجرد اقترابهم من القرية جراء إطلاق بعض الطلقات النارية نحوهم. كانت مؤخرة جيش العدو قد تراجعت منسحبة.

بمجرد دخول القرية المهدمة التي لا تزال بعض منازلها مشتعلة بالنيران، عُثر على عدد لامتناهٍ من الجثث والجرحى والخيول المقتولة والمدافع المحطمة وعربات الذخيرة والشاحنات المتلفة. أطلق أحد الأشخاص نداء استغاثة من أعلى الكنيسة التي أضحى صحنها وواجهتها عبارة عن فوضى يتعذر وصفها. لم يتهدم برج جرس الكنيسة، وظل متماسكًا وقائمًا وحده، مخترقًا بإحدى القذائف، ومسودًا جراء دخان النيران المشتعلة في بعض العارضات الخشبية، وكان لا يزال يحمل، بفضل معجزة التوازن، السهم الحجري الرقيق الذي يتوج رأسه. لوّح أحد الفلاحين من الأعلى بذراعه وصاح بصوتٍ عالٍ كيما يجذب الانتباه.

تحقق الضباط من أن هذا الشخص الفلاح هو بول ديلروز.

تحرك أحد الضباط بين الأنقاض، وصعد بحذر الدرج المؤدي إلى أرضية برج الكنيسة. تكومت أمام الباب الصغير ثماني جثث للألمان، كان الباب قد تهدم، وسقط بالعرض عائقًا المرور، لذا استلزم الأمر تحطيمه بتسديد عدة ضربات بفأس من أجل الوصول إلى بول.

في نهاية فترة ما بعد الظهيرة، وبعد التحقق من أن ملاحقة العدو تشوبها عقبات خطيرة، حشد الكولونيل رجال الكتيبة معانقًا العريف ديلروز وقائلًا له:

- بادئ ذي بدء، يجب مكافأتك. سوف أطالب بمنحك وسام الاستحقاق العسكري، وسوف تحصل عليه. ولكن، اشرح لنا يا بني ما حدث.

أجابه بول، وهو يقف وسط دائرة من الضباط ذوي الرتب الرفيعة من كل سرية الملتفين حوله:

- يا إلهي، الأمر بسيط للغاية سيدي الكولونيل. تجسس العدو علينا.

- يبدو ذلك جليًا، ولكن من هو الجاسوس وأين وجدته؟

- قادتني الصدفة العجيبة إلى معرفة كل شيء. بجوار الموقع الذي تمركزنا فيه صباحًا، وُجدت إلى يسارنا، قرية تتوسطها كنيسة، أليس كذلك؟

- نعم، لكنني أخليت القرية من سكانها فور وصولي، ولم يكن هناك أحد في الكنيسة.

- إذا لم يكن هناك أحد في الكنيسة، فلماذا تبين لنا من خلال الديك الذي يعلو برج جرس الكنيسة أن الرياح قادمة من الشرق، بيد أنها كانت بالفعل قادمة من الغرب؟ ولماذا، عندما غيّرنا موضع تمركزنا، مال اتجاه هذا الديك نحونا؟

- هل أنت واثق من ذلك؟

- نعم سيدي الكولونيل. ولهذا السبب، بعد أن حصلت على الإذن منك، لم أتردد في التسلل إلى الكنيسة والاندساس خلسة بكل هدوء وحذر داخل برج جرسها. لم أكن مخطئًا فيما ظننت. وجدت هناك رجلاً، ونجحت بصعوبةٍ بالغةٍ في التغلب عليه واحتلال مكانه.

- يا له من شخص حقير! هل كان فرنسي الجنسية؟

- لا، سيدي الكولونيل، ألماني متنكر في زي فلاح.

- سوف نعدمه رميًا بالرصاص.

- لا، سيدي الكولونيل، وعدته أن أطلق سراحه.

- هذا مستحيل.

- لا سيدي الكولونيل، كان يجب أن أعرف كيف يتمكن من إبلاغ العدو.

- وماذا عرفت إذن؟

- آوه! الأمر ليس معقدًا. يوجد في الواجهة الشمالية للكنيسة ساعة كبيرة لم نتمكن من رؤية مفصل تحريك عقاربها. يحرك الرجل من الداخل عقارب الساعة، فيضع العقرب الأكبر بالتناوب على ثلاثة أو أربعة أرقام، فيشير الرقم النهائي إلى المسافة الدقيقة الفاصلة بيننا وبين الكنيسة، مستخدمًا الديك أيضًا في تحديد الاتجاه. وهذا بالضبط ما لجأت إلى فعله، فقام العدو على الفور بتغيير اتجاه إطلاق نيرانه وفقًا لتعليماتي، ممطرًا بدقة حقل البنجر بوابل من القذائف. قال الكولونيل ضاحكًا:

- هذا حقًا ما حدث.

- لم يتبَقَّ أمامي سوى أن أتوجه إلى موقع المراقبة الثاني الذي تُستقبل فيه معلومات الجاسوس. ومن هناك سوف أتمكن من معرفة -لأن الجاسوس كان يجهل هذه التفصيلة الأساسية- أين تختبئ مدفعية العدو. ركضت مهرولًا إلى هناك، ولاحظت فور وصولي، أسفل الكنيسة التي استغلها العدو كمرصد له، وجود كل هذه المدفعية وهذا الكم الهائل من الجنود.

- لقد ارتكبت حماقة طائشة! لماذا إذن لم يطلقوا النار عليك؟

- سيدي الكولونيل، لقد ارتديت ملابس الجاسوس، ملابس جاسوسهم، بالإضافة إلى أنني أتحدث الألمانية بطلاقة. عرفت من الجاسوس كلمة المرور، وأخبرني بأن هناك شخصًا واحدًا فقط من بين هؤلاء الأوغاد هو الذي يعرفه، إنه ضابط المراقبة. أرسلني قائد اللواء، دون أدنى ريبة تُذكر، إلى ضابط المراقبة فور أن أخبرته بأن الفرنسيين افتضحوا أمري، وأنني أفلت للتو من قبضتهم.

- وهل كانت لديك الجرأة؟!

- كان يجب أن أفعل هذا يا سيدي الكولونيل، ثم إنني أملك جميع الأوراق الرابحة. لم ينتب ضابط المراقبة أدنى شك، وعندما وصلت إلى برج جرس الكنيسة الذي كان ينقل منه تعليماته، لم أجد أية صعوبة تذكر في الانقضاض عليه وإسكاته. انتهت مهمتي وكللت بالنجاح، ولم يتبق شيء سوى إعطاء الإشارة المتفق عليها:

- بمنتهى البساطة! وسط حشد من ستة أو سبعة آلاف رجل!

- لقد وعدتك بذلك سيدي الكولونيل، وكانت الساعة قد قاربت الحادية عشرة. وجدت في برج الكنيسة كل العتاد اللازم لإرسال إشارات طوال النهار والليل. كيف لا أستفيد من كل هذا؟ أطلقت سهمًا ناريًا، ثم سهمًا ثانيًا، ثم ثالثًا ورابعًا، حينئذٍ اشتعلت جذوة المعركة.

- ولكن هذه الأسهم النارية كانت بمثابة إخطار لنا بضرورة تكثيف النيران في اتجاه برج الكنيسة الذي كنت تقف فيه! لقد صوبنا نيراننا عليك!

- آه! أقسم لك سيدي الكولونيل أنه لا تراودني مثل هذه الأفكار في تلك اللحظات الحاسمة. أضحت القذيفة الأولى التي أصابت الكنيسة موضع ترحيب بالنسبة إليّ، كما أن العدو لم يمنحني وقتًا للتفكير!

تسلقت على الفور، نصف دزينة من الجنود المدججين بالسلاح، سلم البرج. قتلت البعض منهم بمسدسي، ثم أطلقت قذيفة على البرج مرة ثانية، وقذيفة أخرى في وقت لاحق. اضطررت إلى الاحتماء خلف باب بئر الدرج المؤدي إلى سهم البرج. عندما حطّموا الباب استخدمته كحاجز للدفاع عن نفسي، كما كان بحوزتي أسلحة وذخائر حصلت عليها من الجنود الذين هاجموني في البداية، صرت بالنسبة إليهم هدفًا بعيد المنال وبقيت متواريًا قليلًا عن الأنظار، كان من السهل أن أقاوم هجومهم واحدًا تلو الآخر.

- في الوقت الذي تقصفك فيه سرية مدفعيتنا 75 بالمدافع.

- في الوقت الذي تسعى فيه سرية مدفعيتنا إلى تحريري سيدي الكولونيل، لك أن تتخيل يا سيدي أنه بمجرد تدمير الكنيسة واشتعال النيران في هيكل البناء، لم يجرؤ أحد على المجازفة بدخول البرج؛ لذا كان يجب أن أتحلى بالصبر منتظرًا قدومكم. روى بول ديلروز أحداث مغامرته بطريقة مبسطة، وكأنه يسرد أحداثًا تبدو طبيعية ومألوفة للآذان. أكد له الكولونيل، بعد أن قدم له التهنئة مرةً أخرى، ترقيته إلى رتبة رقيب، قائلًا له:

- هل تود أن تطلب مني شيئًا ما؟

- نعم، سيدي الكولونيل، أود استجواب الجاسوس الألماني الذي تركته هناك، وفي نفس الوقت أستعيد زيي العسكري الذي أخفيته.

- حسنًا، سوف تتناول طعام العشاء برفقتنا، ثم سنعطيك دراجة لإنجاز مهمتك.

عاد بول، في تمام الساعة السابعة مساءً، إلى الكنيسة الأولى، حيث كانت تنتظره خيبة أمل كبيرة. حطم الجاسوس الأصفاد وفر هاربًا. باءت كل مساعي بول، في البحث عن الجاسوس داخل الكنيسة والقرية، بالفشل الذريع، لكنه بالرغم من ذلك، التقط من فوق إحدى درجات السلم، ليس بعيدًا عن المكان الذي أنقض فيه على الجاسوس، الخنجر الذي حاول خصمه أن يطعنه به.

هذا الخنجر يشبه تمامًا ذاك الذي جمّع حطامه منذ ثلاثة أسابيع من وسط الحشائش أمام بوابة الصغيرة المنخفضة في غابة أورنكان، إنه نفس الخنجر ذات الشفرة ثلاثية الأبعاد، ونفس المقبض بني اللون الذي نُقشت عليه الحروف الأربعة: «هـ»، «يـ»، «ر»، «مـ». يحمل الجاسوس نفس السلاح الذي كان يحمله الرجل الذي يشبه بشكل عجيب هيرمين داند□يل قاتلة أبيه.

واصلت الكتيبة التي ينتمي إليها الرقيب بول ديلروز، في صباح اليوم التالي، هجومها العنيف ودخلت الأراضي البلجيكية بعد أن ألحقت بقوات العدو خسائر فادحة، بيد أن القائد تلقى في مساء نفس اليوم أمرًا بالانسحاب الفوري.

بدأ تنفيذ أوامر الانسحاب. كم بدا أمرًا مؤلمًا ومحزنًا للجميع، ولا سيما بالنسبة إلى جنودنا الذين خطوا أولى خطوات النصر العظيم. اشتعل غضب بول ورفاقه المنتمين إلى السرية الثالثة. لقد رأوا في أثناء فترة نصف النهار التي قضوها في بلجيكا أنقاض بلدة صغيرة دمرها الألمان، جثث ثمانين امراة أعدمن رميًا بالرصاص، أشخاصًا مسنين معلقين من أقدامهم، أكوامًا من الأطفال الذين ذُبحوا. هل كان يجب عليهم أن يتراجعوا منسحبين من أمام هؤلاء الوحوش!

انضم الجنود البلجيكيون إلى الكتيبة، ارتسمت على وجوههم ملامح الرعب والهلع جراء أفعال الألمان الشيطانية، أخذوا يسردون أحداثًا لا يمكن للخيال أن يدركها. وهل كان يجب أن يتراجعوا! هل كان عليهم أن ينسحبوا وهم يضمرون الضغينة في قلوبهم وتتملكهم رغبة محمومة في الأخذ بثأرهم وهم يقبضون بكل قوة على بنادقهم.

ذات مساء، علم بول من إحدى الصحف الأسبوعية أحد أسباب هذا الانسحاب وكان الخبر صادمًا ومرعبًا له. في يوم 20 أغسطس، وعقب بضع ساعات من قصف مدفعي عنيف شُنَّ في ظروف غامضة، تم الاستيلاء على كور□ينى، في حين أنه كان من المتوقع أن يصمد دفاع هذا الحصن المنيع لبضعة أيام على الأقل، مما كان سيمنح المزيد من القدرة والعزم لتنفيذ عمليات عسكرية في الجناح الأيسر للجيش الألماني. وهكذا، خسرت كور□ينى المعركة، وتم الاستيلاء بالطبع على قصر

أورنكان. ربما دُمّر وسُلب ونَهب بمثل هذه الطريقة الوحشية التي لجأ إليها هؤلاء الهمجيون عندما أقدموا على أفعالهم التخريبية في بلجيكا.

حلت أيام قاتمة السواد في نهاية شهر أغسطس، ربما تكون اللحظات الأكثر مأساوية التي عاشتها فرنسا على مدى تاريخها. صارت باريس محل تهديد من القوات الألمانية، واحتُلت اثنتا عشرة مقاطعة. هبت رياح الردى والموت على الأمة البطولية. في صباح أحد هذه الأيام، سمع بول صوتًا مبتهجًا يناديه من الخلف، منبعثًا من وسط مجموعة من الجنود الشباب:

- بول! بول! أخيرًا، نلت ما أردته! يا لسعادتي الغامرة!

دُفع بهؤلاء الجنود الشباب المتطوعين إلى الكتيبة، وكان من بينهم برنارد داند□يل شقيق إليزابيث الذي عرفه بول على الفور. لم يكن لدى بول قدر كافٍ من الوقت ليفكر في الموقف الذي يجب أن يتخذه. عبرت حركته الأولى عن الرغبة في الابتعاد، بيد أن برنارد صافحه بكلتا يديه بلطف ومودة أوحى إليه بأن هذا الشاب لم يعرف بعد شيئًا بشأن انفصال بول عن شقيقته. قال له بول مازحًا:

- نعم بالطبع، أنا بول. نعم، إنه أنا، وأنت مذهول بلا شك، أليس كذلك؟ هل يمكنك تخيل لقاء قدري مثل هذا، وصدفة لا يتوقعها أحد؟ الزوج وشقيق زوجته يجتمعان في كتيبة واحدة!

أجابه برنارد: «حسنًا، لا، جئت إلى هنا بناءً على طلبي العاجل، قلت لنفسي يجب أن أتطوع، فهذا واجبي ومن دواعي سروري البالغ، ولكن بصفتي شخصًا رياضيًّا وحاصلاً على العديد من الجوائز من اتحاد جمعيات الجمباز ومؤسسات التأهيل العسكري، أبديت الرغبة في إرسالي على الفور إلى الجبهة منضمًا إلى كتيبة صهري، العريف بول ديلروز، وبما أنهم لا يستطيعون الاستغناء عن خدماتي، أُرسلت إلى هنا»

لم يصغ بول إليه جيدًا، وكان يقول لنفسه:

- ها هو ابن هيرمين داند□يل. الشخص الذي تلامس يده يدي هو ابن المرأة الملعونة التي اغتالت بيدها الآثمة...

بيد أن علامات الحبور الساذج، والعفوية المطلقة ارتسمت على وجه برنارد، حتى أن بول أخبره قائلًا:

- لكنك تبدو فتىً صغيرًا!

- أنا؟ لقد كبرت. أتممت عامي السابع عشر، يوم تطوعي للتجنيد.

- وماذا عن والدك؟ هل وافق على تطوعك؟

- حصلت بالطبع على موافقة أبي، والتي من دونها لم أمنحه موافقتي على ما أقدم عليه.

- كيف؟

- نعم، لقد تطوع والدي.

- تطوع والدك.. في مثل هذا العمر؟

- لكنه ما زال شابًا. بلغ عامه الخمسين يوم تطوعه! أُلحق كمترجم بهيئة أركان الجيش البريطاني. أضحى كل أفراد العائلة مجندين كما ترى.. آه! لقد نسيت، لدي خطاب لك من إليزابيث.

انتفض بول، لأنه لم يكن يرغب حتى هذه اللحظة في أن يسأل شقيق زوجته عن إليزابيث. غمغم بهدوء وهو يأخذ الرسالة من يده قائلًا:

- آه! هي من أعطتها لك..

- لا، أرسلتها إلينا من أورنكان.

- من أورنكان؟ ولكن هذا مستحيل! غادرت إليزابيث أورنكان مساء يوم قرار التعبئة العامة. ذهبت إلى منزل عمتها في شومون.

- لا على الإطلاق. ذهبت كي أودع عمتنا: لم يكن لديها أي أخبار بشأن إليزابيث منذ اندلاع الحرب. فضلًا عن ذلك، انظر إلى هذه الكلمات المكتوبة على ظرف الخطاب: «بول ديلروز، الراسل: إليزابيث داند□يل، باريس».. وها هو الخطاب مختوم بختمي أورنكان وكور□يني.

تلعثم بول، بعد أن نظر إلى الظرف:

- نعم، معك حق، إنني أرى التاريخ بوضوح على الختم البريدي: «18 أغسطس». يوم الثامن عشر من أغسطس.. وكور□يني سقطت تحت سيطرة الألمان يوم 20 أغسطس، أي بعد يومين. إذن، إليزابيث لا تزال هناك.

صاح برنارد:

-لا، لا، إليزابيث ليست طفلة. بالطبع لم تظل ماكثة في القصر منتظرة هجوم الألمان الذين يقفون على بعد عشرة أقدام من الحدود! بالطبع عندما تناهى إلى مسامعها أول صوت لإطلاق نيران قادم من ناحية الحدود، غادرت القصر على الفور، وهذا ما سوف تخبرك به بين سطور رسالتها. لذا؛ اقرأ رسالتها يا بول.

لم يَنْتبْ بول أدنى شك فيما سوف يتنامى إلى علمه عبر قراءة هذه الرسالة؛ لذا مزق طرف الظرف، وأخرج الخطاب مرتجفًا. كتبت له إليزابيث:

بول

لم أتمكن من اتخاذ قرار مغادرة أورنكان. هناك واجب يحتم عليَّ البقاء هناك، ولن أخلف وعدي بإحياء ذكرى أمي ما دمت على قيد الحياة. يجب أن تفهمني جيدًا يا بول: ستظل أمي بالنسبة إليّ أنقى وأطهر شخص أبصرته عيناي. تلك الإنسانة هي من هدهدتني بين ذراعيها، وهي من عشقها والدي حد الجنون، وما زال يكرس لها

كل الحب، لا يجب أن يراودني الشك فيها ولو لبرهة. بيد أنك وجهت إليها اتهامًا مجحفًا، وأود الدفاع عنها بكل ما أوتيت من قوة.

سوف أجد يومًا الدلائل القاطعة -والتي لست بحاجة إلى تصديقها- كي أثبت لك صحة أقوالي. عندئذ، ستكون مجبرًا على الاقتناع بها. تراءى لي يقينًا أنني لن أجد هذه الدلائل سوى في هذا القصر.. لذا سأبقى هنا.

سيظل برفقتي أيضًا چيروم وروزالي، فبالرغم من تنامي خبر اقتراب العدو إلى علمهما تشبثا بفكرة البقاء لأنهما يتحلان بالجرأة والشجاعة؛ لذلك عليك ألا تخشى شيئًا، ما دمت لن أكون بمفردي.

إليزابيث ديلروز

طوى بول الرسالة، وغمر الشحوب وجهه، سأله برنارد:

- لقد غادرت إليزابيث أورنكان، أليس كذلك؟

- لا، ما زالت هناك.

- هذا جنون! مع مثل هؤلاء الوحوش الضارية! في قصر منعزل.. كيف يمكن لها ألا تتجاهل المخاطر الرهيبة التي تحيق بها يا بول! ما الذي دفعها إلى البقاء هناك؟ آه! يا له من أمر مرعب!

امتقع وجه بول، وضم قبضتيه بقوة، ثم غرق في لجة من الصمت الكئيب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

فلاحة كور□ينـي

عندما تنامى إلى علم بول، منذ ثلاثة أسابيع، خبر اندلاع الحرب، تفجرت في أعماقه رغبة مباغتة وشرسة في الانتحار. أزعجته الفوضى العارمة التي تهدد حياته، وأقض مضجعه الفزع من فكرة زواجه من امرأة لم يتوقف عن غمرها بمشاعر الحب، والتيقن التام من حقيقة الأحداث التي عاشها في أورنكان، حتى أن الموت بدا لك وكأنه فرصة لا تعوض يتوجب عليه اغتنامها.

تعني الحرب بالنسبة إليه الموت اللحظي المحقق دون شك أو جدال. لم ينجذب انتباهه إلى أي من هذه المشاهد العظيمة، والرائعة، والجادة، والمؤثرة، التي أثارت إعجاب الجميع في أثناء الأسابيع الأولى من استدعائه، مثل نظام التعبئة المثالي، وحماس الجنود، ووحدة فرنسا، وتماسكها، وإيقاظ الروح الوطنية. قرر في أعماق أعماقه أنه لن يتوانى عن الإقدام على مهمات تبدو فرص النجاة منها مستبعدة ومتعذرة.

وهكذا ظن بول منذ أول يوم أنه وجد الفرصة سانحةً أمامه لتحقيق هدفه المنشود؛ احتجاز الجاسوس الذي اشتبه في وجوده داخل برج الكنيسة، اختراق قلب موقع قوات العدو لتحديد مركز ارتكازهم، هذان الموقفان يبرزان بشدة مضيه قدمًا نحو موت محقق. توجه بخطى واثقة دون أن يهاب الموت. ولأنه كان على دراية تامة بأبعاد مهمته المعقدة، نفذها بقدر كبير من الحيطة والبسالة. لم يخشَ الموت مطلقًا، ولكن هنيئًا له بالموت الذي يترصده. اختبر، في أثناء تنفيذ مهمته، شعورًا غير متوقع ببهجة متفردة من نوعها، شعورًا لا يختلف كثيرًا عن ذاك الذي باغته عندما كُللت مهمته بالنجاح.

اهتزت مشاعره عندما اكتشف الخنجر الذي كان بحوزة الجاسوس. ما الصلة التي تربط بين هذا الجاسوس والشخص الذي حاول اغتياله من قبل؟ ما العلاقة بين هذين الشخصين وكونتيسة داند□يل التي وافتها المنية منذ ستة عشر عامًا؟ وما الروابط الخفية التي جمعت بين هؤلاء الأشخاص وجعلتهم يقدمون على عمل واحد يتسم بالخيانة والجاسوسية أثارت دلائله دهشة وصدمة بول؟

أصابته رسالة إليزابيث على وجه التحديد بصدمة قاسية مؤلمة. كيف لفتاة شابة أن تظل في غمار شظايا القذائف والرصاص والصراعات الدموية حول القصر وهذيان وغضب المنتصرين، والحرائق وإطلاق النيران والتعذيب والأعمال الوحشية! ما زالت هناك، فتاة شابة بارعة الجمال، تقف وحيدة تقريبًا عاجزة ومجردة من السلاح! ظلت هناك لأنه لم يكن لديه رغبة في رؤيتها مرةً ثانية!

أثارت هذه الأفكار في وجدان بول نوبات من الشعور بالكآبة والقنوط والإعياء، ومن هذا المنطلق تشبث بفكرة الإلقاء بنفسه إلى التهلكة، عازمًا على إتمام تنفيذ مغامراته الطائشة حتى النهاية، مهما كلفه ذلك من ثمن، بشجاعة هادئة متريثة

وعناد شرس يثيران دهشة وإعجاب رفقائه. حل أخيرًا يوم السادس من سبتمبر؛ يوم حدوث المعجزة الخارقة، حينما أصدر القائد الأعلى أوامره لجيوشه بالانقضاض على عدوهم، موجهًا إليهم كلمات خالدة حُفرت في أعماقهم.

استدار الجنود لمواجهة عدوهم اللدود، دبت فيهم قوة الحياة من جديد، تأهب كل جندي بكامل إرادته للحرب كما لو أن إنقاذ فرنسا وتحريرها دين عالق في رقبته بمفرده. انبثق بصيص من الأمل في وجدان الجنود المحتشدة، هؤلاء الأبطال العظماء الذين خُيِّروا بين هزيمة أعدائهم أو أن يلقوا حتفهم. حققوا نصرًا عظيمًا. ظهر بول في الصفوف الأمامية بين هؤلاء الرجال المغاوير. أدرك جيدًا أن ما فعله، وما تحمله، وما سعى إلى فعله، وما نجح في تحقيقه يتجاوز حدود الواقع، ويعد ضربًا من ضروب الخيال. في يوم السادس من سبتمبر، والسابع، والثامن، ثم من الحادي عشر إلى الثالث عشر، بالرغم من الشعور بالتعب المفرط، وبالرغم من الحرمان من الطعام والنوم، لم ينشغل عقله إلا بالمضي قدمًا، والتقدم بخطى جسورة، مخترقًا صفوف العدو. سواء كان ذلك في الظل أو تحت لهيب الشمس المحرقة، على ضفاف المارن أو في أزقة أرجون، في الشمال أو في الشرق حينما أرسلت كتيبته لدعم القوات الرابضة على الحدود، سواء كان منبطحًا على وجهه أو زاحفًا في الأرض المجعدة، أو واقفًا ممسكًا بحربة بندقيته، لم يألُ جهدًا في التقدم إلى الأمام، أضحت كل خطوة يخطوها بمثابة تحرير ونجاة لوطنه الغريق، وغزو لأراضي أعدائه.

أشعلت كل خطوة يخطوها لهيب بغضه للعدو. آهٍ! كم كان والده محقًا في كراهية هؤلاء الأوغاد! اليوم يقفون على مرأى عيني بول ومسمع أذنيه. ينشرون الدمار الأحمق والإبادة الهوجاء في كل مكان. تفوح رائحة النيران والنهب والموت في شتى الأرجاء. يجدون بهجة غامرة في إعدام الرهائن رميًا بالرصاص، واغتيال النساء بضراوة ووحشية مفرطة. تحولت الكنائس والقصور ومنازل الأثرياء وأكواخ الفقراء إلى أطلال، حتى أن الأنقاض دُمرت والجثث بدت عليها آثار التعذيب.

يا لها من فرحة لا تضاهى لدحر هذا العدو! بالرغم من انخفاض عدد كتيبة بول إلى النصف فإنها أضحت كسرب من كلاب الصيد التي أفلتت، وراحت تقضم وحشًا بريًا من دون هوادة. كلما اقتربت من الحدود تفاقمت شراستها. واصل العدو هجومه العنيف يتملكه أمل أهوج بتوجيه ضربة قاضية لها. ذات يوم، قرأ بول على إحدى اللافتات الحدودية التي تشير إلى تفرع طريقين، هذه الكلمات:

كور□ يني، 14 كيلومترًا.

أورنكان، 31,400 كيلومتر.

الحدود، 38,300 كيلومتر.

كور□ يني، أورنكان! أي مشاعر فاضت في أعماق أعماقه عندما قرأ مقاطع هذه الكلمات التي ليست في الحسبان! في العادة، ينشغل بول كلية بحماسة نضاله

وبالعديد من الاهتمامات الأخرى، ولا يعير إلا الاهتمام القليل لأسماء الأماكن التي يمر بها، والتي لم يقرأ لافتاتها إلا بمحض الصدفة. وها هو يقف فجأةً على بعد مسافة صغيرة من قصر أورنكان! كور□ يني، 14 كيلومترًا.. هل ستتجه القوات الفرنسية في طريقها إلى كور□ يني، إلى المدينة الصغيرة المحصنة التي اقتحمها الألمان من دون أية مقدمات واحتلوها في ظروف غامضة؟

في ذلك اليوم، قاتل الجنود منذ بزوغ الفجر ضد عدو شعروا بأنه يقاومهم برخاوة. أرسل بول من قبل قائده على رأس فرقة عسكرية إلى قرية «بلي□يل» لتنفيذ أمر باقتحامها والسيطرة عليها فقط في حالة إذا ما انسحب العدو منها، وبعد أن اجتاز بول آخر منازل القرية لاحظ نفس اللافتة. حينئذٍ، تملكته حالة من القلق الشديد. حلقت للتو طائرة عسكرية نمساوية فوق البلاد. ربما نُصب لهم فخٌ، فصاح قائلًا:

- دعونا نعود إلى القرية. سنحصن أنفسنا هناك ونتريث قليلًا.

انبعث بغتة صوت طقطقة وضجيج متواصل خلف تلة مشجرة تكاد تسد الطريق المؤدي إلى كور□ يني، ازداد صوت الضجيج رويدًا رويدًا، أدرك بول بعد لحظة أنه صوت هدير محرك سيارة مصفحة دون أدنى شك. صاح بول في رجاله قائلًا:

- ادخلوا في الخندق، اثبتوا في أماكنكم وتأهبوا للهجوم.

أدرك بول الخطر الذي يحوم حوله، سوف تعبر السيارة القرية مندفعة وسط جنوده المختبئين، ثم تثير الذعر في قلوبهم مندفعة إلى طريق آخر. تسلق بول بسرعة بالغة جذع شجرة بلوط متصدع، مستقرًا بين فروع الأشجار، على ارتفاع بضعة أمتار يطل على الطريق. لاحت السيارة أمام ناظريه على الفور، إنها بالفعل سيارة مصفحة ضخمة، وقديمة الطراز قليلًا؛ مما سمح له برؤية خُوَذ ورؤوس الجنود التي تبرز فوق ألواحها الفولاذية. شقت السيارة المصفحة طريقها بأقصى سرعة متأهبة للقفز في حالة وجود إنذار بالخطر. أحنى الجنود الفرنسيين ظهورهم. أحصى بول عدد أعدائه فوجدهم نصف دزينة من الجنود، يبرز أيضًا من السيارة مدفعا رشاش ثقيلان.

اكتتف بول بندقيته مستهدفًا السائق. شخص ألماني بدين ذو وجه قرمزي كأنه ملطخٌ بالدماء، ثم أطلق بهدوء عليه رصاصة في اللحظة المواتية، صائحًا بأعلى صوته وهو يقفز من أعلى الشجرة:

- هاجموا بعنف أيها الرجال!

لم يكن بول بحاجة إلى إصدار هذا الأمر، فقد أصيب السائق بطلقة نارية في صدره، وفي ردة فعل سريعة كبح فرامل سيارته التي توقفت على الفور. رأى الجنود الألمان أنفسهم مطوقين بأعدائهم، فهمُّوا برفع أذرعهم قائلين بالألمانية:

- نعلن استسلامنا! نعلن استسلامنا!

قفز أحدهم من السيارة، بعد أن ألقى سلاحه، وهرع نحو بول قائلًا:

- أنا من إقليم ألزاس سيدي الرقيب! من ستراسبورج! آه سيدي الرقيب! كم كنت أترقب هذه اللحظة منذ بضعة أيام!

بينما كان جنود الكتيبة يقودون الأسرى إلى داخل القرية، سأل بول الشخص الألزاسي متعجلًا:

- من أين أتت السيارة؟

- من كور□ يني.

- هل هناك الكثير من الجنود في كور□ يني؟

- عدد قليل جدًا، فقط مؤخرة الجيش التي تتألف من مئتين وخمسين شخصًا على أقصى تقدير ينتمون إلى بلدة «بادن» الألمانية.

- وفي الحصون؟

- نفس العدد تقريبًا. لم يعتقدوا أنه من الضروري ترميم الأبراج والحصون، تمت مباغتتهم في مواقعهم دون سابق إنذار. هل سيحاولون البقاء صامدين أم سيتراجعون نحو الحدود؟ تتملكهم الحيرة بشأن هذا القرار؛ لذا أرسلنا لاستكشاف المنطقة.

- إذن، هل بمقدورنا أن نصل إليهم سيرًا على الأقدام؟

- نعم، ولكن افعلوا ذلك على الفور، قبل أن يتم الدفع بتعزيزات قوقية تتمثل في فرقتين عسكريتين.

- متى ستصل الفرقتين إلى هناك؟

- غدًا. سيعبرون الحدود غدًا، في أثناء فترة الظهيرة تقريبًا.

- تبًا! ليس لدينا وقت لنضيعه.

في أثناء فحص السيارة المصفحة ونزع سلاح الأسرى وتفتيشهم، أخذ بول يفكر في الإجراءات الواجب اتباعها في الخطوة المقبلة. عندئذٍ، جاء أحد رجاله الذين بقوا في القرية ليزف له خبر وصول مفرزة عسكرية تحت قيادة ملازم أول.

هرول بول مسرعًا ليُطلع الضابط على مستجدات الأحداث التي تتطلب تحركًا فوريًا، واقترح على الضابط أن يذهب في دورية استطلاع مستخدمًا السيارة المصفحة التي اقتنصها من العدو. أجابه الضابط:

- حسنًا، وأنا بدوري سأسعى إلى احتلال القرية، وسأقوم بالترتيبات اللازمة لإخطار باقي الفرقة العسكرية في أقرب وقت ممكن.

انطلقت السيارة المصفحة مسرعة في اتجاه كور□ يني يستقلها ثمانية رجال، من بينهم اثنان مُكلفان بالتعامل مع السيارات المصفحة خصوصًا، ولديهم دراية كافية بصيانتها واستخدامها. يبرز الشخص الألزاسي واقفًا ليراقب الأفق، بحيث يمكن للجنود الألمان رؤية خوذته وزيه العسكري بوضوح من مختلف الاتجاهات. اتّخذ

هذا القرار ونَفذ في غضون بضع دقائق، دون جدالٍ ودون الخوض في تفاصيل العملية التي سيقدمون عليها. صاح بول وهو جالس خلف عجلة القيادة:

- بفضل الله! هل أنتم متأهبون لخوض المغامرة حتى النهاية يا أصدقائي؟

انطلق صوت مألوف إلى أذنيه من جواره: «وأكثرٍ من ذلك سيدي الرقيب». لقد كان صوت برنارد داند□يل شقيق إليزابيث الذي ألحق بالفرقة رقم 9. لقد نجح بول، منذ أن تقابلا، في تجنبه، أو على الأقل عدم التحدث معه، لكنه كان على علمٍ بأن الشاب يقاتل بشراسة وضراوة. قال له بول: «آه! هذا أنت».

صاح برنارد: «بشحمه ولحمه. أتيت برفقة ملازمي، وعندما رأيتك تستقل السيارة مصطحبًا الرجال المتحمسين لتنفيذ هذه العملية الخطيرة، أردت أن أنتهز الفرصة!»

ثم أردف بنبرة مرتبكة: «فرصة توجيه ضربة قاضية للعدوِ بناء على أوامرك، وفرصة تجاذب أطراف الحديث معك يا بول.. لأنني لم أحظَ بتلك الفرصة حتى الآن.. حتى أنه بدا لي أنك لم تؤازرني وتساندني أو حتى تظل برفقتي كما تمنيت»

- لا، لا، ذاك بسبب كثرة انشغالي وقلقي.

- بشأن إليزابيث، أليس كذلك؟

- نعم بالطبع.

- أتفهم ذلك، ولكن هذا لا يعطي مبررًا لوجود حاجز بيننا يتمثل في ضيق أو انزعاج.

في تلك اللحظة، أصدر الألزاسي تعليماته قائلًا: «يجب ألا يظهر أحد.. سلاح الفرسان الألماني قادم نحونا!

انطلقت دورية استكشافية من إحدى الطرق الجانبية، عند منعطف إحدى الغابات. صرخ الألزاسي في وجههم عندما مروا بالقرب منه قائلًا: «ارحلوا من هنا أيها الرفاق! اركضوا بسرعة! الفرنسيون قادمون!

استفاد بول من هذا الحادث المباغت ولم ينبس ببنت شفة. زاد من سرعة السيارة التي انطلقت كالصاروخ يصحبها ضجيج صاخب متسلقة المنحدرات ومنزلقة بسرعة مثل إعصار مائي.

انتشرت الكثيرٍ من مفرزات العدو العسكرية. أخذ الألزاسي ينادي عليهم ويشير إليهم بيده، حاثًا إياهم على التراجع، والانسحاب الفوري، ثم راح يقول مقهقهًا: «كم هو مضحك أن نراهم هكذا! العدو خلفنا يسير بسرعة حصان جامح»، ثم أردف: «أريد أن أنبهك سيدي الرقيب أنه لو أكملنا طريقنا بنفس معدل سرعتنا سوف نصل قريبًا إلى قلب مدينة كور□يني، أليس هذا ما تريده؟

أجابه بول: «لا، سوف نتوقف على مقربة من المدينة».

- وإذا تمت محاصرتنا؟

- بواسطة من؟ على كل حال، هذه العصابات الفارة لا يمكنها أن تعترض طريق عودتنا. تفوه برنارد داند□يل قائلًا: «بول، أظن أنك لا تفكر مطلقًا في العودة «

- لا، على الإطلاق. هل أنت خائف؟

- أوه! يا لها من كلمة بذيئة!

استأنف بول حديثه، بعد برهة من الصمت، بصوت تغلب عليه الفظاظة قليلًا:

- يؤسفني أنك جئت إلى هنا يا برنارد.

- هل الخطر الذي يحدق بنا أكبر مني أو منك أو من أي شخص آخر؟

- لا.

- إذن، سيكون لي عظيم الشرف ألا أندم على شيء.

انحنى الألزاسي، الذي كان لا يزال واقفًا، بجسده نحو الرقيب قائلًا له:

- تبرز أمامنا، خلف سياج من الأشجار، قبة جرس كنيسة كور□يني. أعتقد أنه إذا انعطفنا نحو المرتفعات التي على يسارنا، سنتمكن من رؤية كل ما يجري في المدينة. أخبره بول:

- ستتضح لنا الأمور بشكل أكبر عندما ندخل المدينة. سوف نُعرّض فقط لخسارة كبيرة.. ولا سيما فقدانك أنت أيها الألزاسي، سوف تُعدم رميًا بالرصاص لأنك كنت أسيرهم.. أتود الترجل عن السيارة قبل كور□يني؟

- لم تعد الحياة تعني لي شيئًا يا سيدي الرقيب.

يتصل الطريق بأحد خطوط السكة الحديدية. برزت في البداية بعض منازل ضواحي المدينة، ثم بعض الجنود. أمر بول جنوده:

- لا تتحدثوا إلى أحد منهم، يجب عليكم ألا تثيروا فزعهم.. وإلا سينقضون علينا من الخلف في لحظة حاسمة.

استطلع بول محطة القطار ووجد أنها محتلة تمامًا من الألمان، وعلى طوال الطريق المؤدي إلى المدينة، أبصر القبعات الألمانية العسكرية (بيكلهاوبه) تتحرك ذهابًا وإيابًا.

صاح بول: «إلى الأمام! إذا كانت هناك تجمعات للجنود الألمان، فلن نجدها إلا في ساحة المدينة. هل المدافع الرشاشة والبنادق جاهزة؟ جهز بندقيتك يا برنارد. وعندما تتلقون أول إشارة، أطلقوا النيران في الحال!

انطلقت السيارة بقوة في مكان متسع، وكما توقع بول، تجمع قرابة مئة جندي أمام مدخل الكنيسة بجوار كم هائلٍ من حراب البنادق. أضحت الكنيسة مجرد كومة من الأنقاض، ودمر القصف تقريبًا جميع منازل ساحة المدينة.

أطلق الضباط الذين يقفون جانبًا صيحاتِ تعجبٍ مرحة، وأومؤوا بإشارات عديدة نحو سيارة الاستطلاع التي كانوا قد هموا بإرسالها، ومن الواضح أنهم كانوا ينتظرون عودتها حتى يتخذوا قرارًا فاصلًا بشأن الدفاع عن المدينة. انضم إليهم، دون أدنى شك، عدد هائل من ضباط الارتباط الذين يترأسهم جنرال عسكري فارع الطول. تصطف هناك أيضًا على بعد مسافة منهم بعض السيارات.

كان الشارع مرصوفًا بالحصى، ولم يكن هناك أي رصيف يفصل بينه وبين ساحة المدينة. واصل بول طريقه، ثم على بعد مسافة عشرين مترًا، أدار مقود سيارته بوحشية متجهًا نحو الضباط، حتى أن الآلة المرعبة التي يقودها اندفعت بكل قوة وشراسة نحو الجنود، وأسقطت وسحقت الكثيرين منهم، ثم انحرفت برشاقة لتأخذ في طريقها الكم الهائل من البنادق وحرابها، شاقة طريقها وسط المفرزة العسكرية مثل كتلة عظيمة متدحرجة لا تصد ولا ترد. تسيد الموت والتدافع هذا المشهد المرعب، وعمت حالة من الهروب المضطرب والصياح والألم والفزع أجواء المكان. صاح بول، بعد أن أوقف السيارة:

- أطلقوا النيران! اندفعت الطلقات النارية من المخبأ الحصين الذي برز بغتة وسط ساحة المدينة، وتعالي صوت الطقطقة المفزعة المنبعثة من المدفعين الرشاشين، وفي غضون خمس دقائق، تناثرت أجساد الموتى والجرحى في كل الساحة. تمدد الجنرال، وبعض الضباط الآخرين على الأرض جامدين كالصخر دون حراك. أمر بول الجنود قائلًا:

- أوقفوا إطلاق النيران!

قاد بول السيارة إلى نهاية الشارع المؤدي إلى محطة القطار. هرولت القوات العسكرية المتمركزة في محطة القطار راكضة نحو السيارة عقب سماع دوي إطلاق النيران، ثم فرقتهم طلقات مدفعي الرشاش.

جال بول ثلاث مرات، وبسرعة قصوى، في جنبات ساحة المدينة شتى ليراقب الطرق الجانبية المؤدية إليه. فر العدو هاربًا من جميع الأنحاء عبر الطرق والأزقة المؤدية إلى الحدود، كما خرج أيضًا سكان كور□يني من منازلهم ليعبروا عن سعادتهم البالغة منتشين ببوادر النصر.

أصدر بول أمرًا بإغاثة الجنود الجرحى ومداواتهم، واستدعاء قارع أجراس الكنيسة، أو أي شخص آخر لديه دراية بقرع الأجراس، الأمر طارئ جدًا!

سرعان ما مثل خادم الكنيسة العجوز بين يدي بول الذي أمره قائلًا:

- أقرع جرس الإنذار بكل ما أُوتيت من قوة أيها الرجل الطيب! وعندما تخور قواك، سيأخذ أحد رفقائي مكانك! اذهب مسرعًا.. اقرع الجرس دون توقف ولو لثانية واحدة.

تلك هي الإشارة التي كان بول قد اتفق عليها مع الملازم الفرنسي، والتي أعطت ضمانًا للفرقة العسكرية بنجاح المهمة ملزمة إياها بضرورة التقدم إلى الأمام واحتلال القرية.

في تمام الساعة الخامسة، استولت إحدى الوحدات العسكرية بقيادة رئيس الأركان على بلدة كور□ يني، بعد أن قامت سرية المدفعية 75 بإطلاق بعض القذائف على المدينة. وفي العاشرة مساء، انضمت بقية جنود الفرقة إليها وطُرد الألمان من حصني «چونا»، حتى أنهم تمركزوا أمام الحدود. من المقرر دحرهم إلى خارج البلاد عند الفجر.

قال برنارد لصهره الذي التقى به عقب نهار طويل منهك:

- بول، سأخبرك بشيء ما.. شيء يثير اهتمامي ويشغل بالي.. شيء مريب يشوبه الغموض الشديد.. وستحكم بنفسك فور سماعي. كنت أتمشى، منذ وقت قليل، في أحد الشوارع الصغيرة المجاورة للكنيسة، فاقتربت مني بغتة إحدى السيدات.. سيدة لم أستطع تبين ملامحها أو ملابسها، كان الليل قد أسدل سدوله، ومع ذلك، بدا لي أنها فلاحة عندما تنامى إلى مسامعي صوت ضجيج احتكاك قبقابها بالأرض. أصابتني الدهشة قليلًا عندما لاحظت أسلوب حديثها غير المألوف بالنسبة إلى امرأة فلاحة مثلها، حيث قالت لي: «صديقي، ربما بإمكانك أن تسديني معروفًا وتزودني بعض المعلومات»

وعندما وضعت نفسي تحت إمرتها، شرعت في التحدث بحرية معي قائلة:

- حسنًا! أعيش في قرية صغيرة قريبة من هنا. عرفت منذ قليل أن وحدتكم العسكرية تمكنت من السيطرة على كور□ يني، لذا، جئت مهرولة إلى هنا لأنني أود رؤية أحد الجنود المنتمين إلى هذه الوحدة. بيد أنني لا أعرف رقم كتيبته.. نعم، أعلم أنه قد طرأت بعض التغييرات.. لم تعد تصلني خطاباته.. وبلا أدنى شك لم يعد يتلقى رسائلي.. أوه! ربما ستجمعك به الصدفة وتتعرف عليه! إنه شاب جيد ومغوار!

- سيدتي، في الواقع، ربما تمنحني المصادفة شرف لقائه. ما اسم هذا الجندي؟

- ديلروز، العريف بول ديلروز.

صاح بول مدهوشا: «كيف؟ هل تقصدني أنا؟

- بالطبع تقصدك أنت يا بول، وبدت لي هذه الصدفة عجيبة بشكل لا يصدق حتى أنني استسلمت لهول الدهشة وأعطيتها ببساطة متناهية رقم كتيبتك ورقم سريتك، دون أن أذكر لها شيئًا عن صلة قرابتنا.

قالت لي: «آه! حسنًا، تستقر كتيبته الآن في كور□ يني؟

- نعم، منذ وقت قليل.

- وهل تعرف بول ديلروز جيدًا؟

أجبتها: «أعرف اسمه فقط»، ولا أدري حقًا لماذا أجبتها بمثل هذه الطريقة، ولماذا استأنفت حديثي معها بعد ذلك باذلًا قصارى جهدي ألا تلحظ دهشتي.

ثم أردفت: «تمت ترقيته لرتبة رقيب والتنويه باسمه أمام كل الجنود، وهكذا تناهى ذكر اسمه إلى أذني للمرة الأولى في حياتي، أتودين أن أستخبر لك عنه وأن

أصطحبك للقائه؟

- ليس بعد، ليس بعد، لن أتمكن من تمالك مشاعري، وسأجهش بالبكاء.

تشابكت الأمور وازدادت تعقيدًا بعد أن سمعتُ عبارة «سأجهش بالبكاء». بدت هذه السيدة وكأنها تبحث عنك بلهفة شديدة وتماطل في مقابلتك!

هممت بسؤالها: «أراك تهتمّين كثيرًا لأمره، أليس كذلك؟

- نعم، إلى أقصى حد.

- هل تربطك به صلة قرابة، أظن ذلك؟

- إنه ابني.

- ابنك!

حتى هذه اللحظة، لم يراودها أدنى شك في أنني أستجوبها.. تملكتني الدهشة وألمَّ بي ذهول شديد عندما أبصرتها تتراجع في الظلام كما لو أنها تتأهب للدفاع عن نفسها. أدخلت يدي في جيبي، وهممت بإمساك المصباح الصغير الذي أحمله معي دائمًا، ثم سلطت الضوء على وجهها، وأنا أتجه بضع خطوات نحوها. باغتتها حالة من الارتباك جراء ما فعلته وظلت لبضع ثوانٍ جامدة كتمثال من الشمع دون حراك. سحبت بعنف للأمام وشاحًا يغطي رأسها، ثم صفعت ذراعي بقوة غير متوقعة كي أترك مصباحي. خيم علينا صمت مباغت ومطلق. أين هي؟ هل ما زالت أمامي؟ أم عن يميني؟ أم عن يساري؟ كيف لا ينبعث أي صوت ليعطيني دلالة واضحة على بقائها أو مغادرتها. اتضحت كل الأمور جليةً أمام عيني، بعد أن عثرت على مصباحي وأضأته مرة أخرى، رأيت قبقابها الذي تركته ملقىً على الأرض لكي تلوذ بالفرار. ظللت أبحث عنها هنا، وهناك، ولكن دون جدوى. لقد اختفت تمامًا.

أنصت بول إلى ما قاله شقيق زوجته باهتمامٍ بالغٍ، ووجه إليه سؤالًا مباغتًا: «إذن، هل رأيت وجهها؟»

- أوه! بشكل واضح للغاية. لديها وجه ذو ملامح حادة.. ولون حاجبيها وشعرها أسود قاتم.. بدت فظة وقاسية المشاعر.. أما بالنسبة إلى ملابسها، ترتدي زيًا فلاحيًا، لكنه يبدو أنيقًا ومنسقًا للغاية، حتى أنه يمنحك انطباعًا بأنها متنكرة.

- كم تبلغ من العمر؟

- أربعين عامًا.

- هل بإمكانك التعرف عليها، إذا رأيتها مرة ثانية؟

- بالطبع، دون أدنى تردد.

- قلت لي إنها تضع وشاحًا على رأسها، أليس كذلك؟ ما لونه؟

- أسود اللون.

- وهل وشاحها الملتف على كتفيها مربوط بعقدة؟

- لا، بدبوس زيني.

- جزع منقوش؟

- نعم، جزع منقوش مؤطر بالذهب، كيف عرفت ذلك؟

التزم بول الصمت لفترة طويلة، ثم همس:

- سوف أريك غدًا في إحدى غرف قصر أورنكان صورة لسيدة تشبه تلك المرأة المجهولة التي حادثتك في الطريق، تشابه واضح للغاية ربما يجمع بين ملامح شقيقتين.. أو ربما..

أمسك بول ذراع صهره، وجذبه نحوه قائلًا له:

- اسمعني جيدًا يا برنارد، تحوم حولنا أشياء في الماضي والحاضر مثيرة للفزع والانزعاج.. هذه الأشياء تكدر صفو حياتي وحياة إليزابيث.. وحياتك دون أدنى شك. لقد انجرفت إلى غياهب الظلام المريعة، حيث شرعت أتخبط وأقاوم بمفردي أعداءً مجهولين يواصلون منذ عشرين عامًا تنفيذ خطةٍ لا أفهم فحواها. مات والدي ضحية لاغتيال غاشم في بداية هذا الصراع، واليوم أُعرّض لهجوم ضارٍ وعنيفٍ. انفكت أواصر علاقتي بشقيقتك، ولم يعد بإمكان أي شيء أن يقرب أحدنا من الآخر، تمامًا مثلما لم يعد بإمكان أي شيء أن يرمم جدار الثقة والصداقة المنهار بيننا. لا تسألني عن شيء يا برنارد، ولا تسعَ إلى معرفة المزيد. ربما ستعرف يومًا ما، وأتمنى ألا يحدث ذلك، لماذا طلبت منك أن تلتزم الصمت التام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس

ما رآه بول في قصر أورنكان

استيقظ بول باكرًا، منذ بزوغ الفجر، إثر سماع صوت بوق، وعلى الفور أدرك، عبر التراشق بالمدفعية الذي شرع منذ لحظات، الصوت القصير المدى المنبعث من المدفعية 75، وصوت الصياح الأجش المنبعث من سرية المدفعية الألمانية 77. ناداه برنارد سائلًا: «هل ستأتي يا بول؟ ستُقدّم القهوة في الطابق السفلي».

كان بول وشقيق زوجته قد وجدا غرفتين فوق متجر نبيذ. في أثناء تناول طعام الغداء، قال بول الذي عمل على جمع المعلومات في الليلة السابقة حول احتلال كور□ يني وأورنكان:

- في يوم الأربعاء 19 أغسطس، كنا نحارب في إقليم الألزاس وأمام مدينة نانسي. كنا نقاتل بشراسة أيضًا في بلجيكا، وتملكنا شعور بأن المقاومة الألمانية تتغاضى شيئًا فشيئًا عن فكرة الغزو. في كور□ يني، تقدمت إحدى الوحدات العسكرية بسرعة بالغة لتنفيذ بعض المهام الدفاعية. تأهب الجنود المتمركزون في حصني «چونا» أسفل قببهما الخرسانية، ورحنا ننتظر إصدار الأوامر. تساءل برنارد: «وماذا عن أورنكان؟»

- تمركزت في أورنكان سرية عسكرية من قوات المشاة، يقطن ضباطها قصر أورنكان. دُعمت هذه الفرقة نهارًا وليلًا بمفرزة من جنود الخيالة الذين يقومون بدوريات مراقبة مستمرة على طول الحدود. وفي حال تحسس الخطر، تُرسل إشارات تحذيرية إلى القلاع، ومن ثم تتراجع القوات لمقاومة أي هجوم باستماتة ووحشية.

كان مساء ذلك اليوم هادئًا للغاية. يركض العشرات من جنود الخيالة الفرنسية بطول الحدود أمام مدينة إبريكورت الألمانية الصغيرة. لم تلُح في الأفق أي بوادر لزحف قوات العدو على هذا الجانب أو على خط السكة الحديد الذي يؤدي إلى بلدة إبريكورت. لم ينبعث صوت طلق ناري، وقبل حلول الساعة الثانية صباحًا، لم تخطُ قدم أي جندي ألماني حدودنا. بيد أنه في تمام الساعة الثانية، سُمع دوي انفجار ضخم هز أرجاء البلدة، ثم تبعه على فترات متقاربة أربعة انفجارات أخرى، نجمت جميعها عن إطلاق خمس قذائف 420، وأسفرت عن تدمير قباب «چونا» الخمس.

- كيف حدث ذلك! تقع كور□ ينى على بعد مسافة أربعة وعشرين كيلومترًا من الحدود، ولا يمكن لقذائف 420 أن تبلغ هذه المسافة!

- ومع ذلك، سقطت ست قذائف أخرى شديدة الانفجار على كور□ يني، سقطت جميعها على الكنيسة وفي ساحة المدينة. أطلقت هذه القذائف الست بعد مرور عشرين دقيقة، وهذا يعني أنها سقطت في لحظة كان من المفترض فيها أن قواتنا في حالة تأهب، محتشدة في ساحة البلدة عقب تلقيها الإشارات التحذيرية. هذا في الواقع ما حدث، ويمكنك أن تتخيل المذبحة التي نجمت عن ذلك.

- نعم، ولكن مرة أخرى أقول لك إن الحدود تبعد عن كور□يني أربعة وعشرين كيلومترًا، وبالتالي، أتاحت هذه المسافة لقواتنا وقتًا كافيًا لإعادة تنظيم صفوفها والتأهب للهجمات المرتقبة التي ستشنّها القوات الألمانية عقب قصفها الضاري. كان لدينا من الوقت ثلاث أو أربع ساعات.

- لم يكن لدينا حتى ربع ساعة. لم يكن القصف قد انتهى بعد حتى شُنّ الهجوم. طوق العدو قواتنا المندحرة والمنهارة المتمركزة في كور□يني، وقواتنا التي توافدت مهرولة من الحصنين، ذُبح الكثير من جنودنا وأجبروا على الاستسلام قبل أن يتمكنوا من تنظيم خطوط مقاومتهم. حدث ذلك بغتة، تحت الأضواء الساطعة للكشافات الضوئية التي نصبها العدو، ولا ندري أين ولا نعلم كيف فعل ذلك. دقائق قليلة كتبت نهاية عاجلة ومأساوية. يمكن القول إن العدو، في غضون عشر دقائق، حاصر، وهاجم، واحتل كور□يني.

- ولكن من أين أتى العدو؟ من أين اخترق المدينة؟

- لا أحد يعلم ذلك.

- وماذا عن دوريات جنود الخيالة الليلية على الحدود؟ ومواقع المراقبة والرصد؟ والسرية العسكرية التي أرسلت إلى قصر أورنكان؟

- لا شيء. لم تردنا أية أخبار عن الثلاثمئة رجل المكلفين بمهمة المراقبة وإرسال الإشارات التحذيرية. كان بإمكاننا إعادة نصب ثكنة عسكرية تتألف من الجنود الفارين أو الجنود الذين لقوا حتفهم ودُفنوا من قبل سكان المدينة، لكن الثلاثمئة جندي الذين ينتمون إلى سلاح المشاة والمتمركزين في أورنكان اختفوا تمامًا دون أن يتركوا أدنى أثر خلفهم، لم يوجد فارون، أو جرحى، أو قتلى. لا شيء مطلقًا.

- إنه أمر لا يصدق، هل سألت جيدًا؟

- استجوبت عشرة أشخاص ليلة البارحة، كنت قد كلفتهم منذ شهر، حيث لم يشعروا بالحرج أو الانزعاج من قبل الجنود القلائل المنتمين إلى المليشيات الألمانية المكلفين بحراسة كور□يني، بإجراء تحقيق دقيق بشأن هذه الأسئلة المحيرة، بيد أنهم لم يتمكنوا من الوصول إلى فرضية واحدة معقولة. توجد احتمالية واحدة فقط: جاء هذا الهجوم عقب فترة إعداد طويلة وبعد الإلمام بأدق التفاصيل الممكنة. حُدّدت مواقع القلاع والكنيسة والساحة بدقة متناهية، ونُصبت أيضًا مدافع الحصار قبل شن الهجوم بفترة مناسبة وتوجيهها بحنكة بحيث تتمكن القذائف الإحدى عشرة من إصابة الأهداف المراد الوصول إليها دون احتمالية حدوث أية أخطاء. أما بالنسبة إلى تفاصيل بقية الأحداث، يظل الأمر لغزًا غامضًا لم تفك طلاسمه بعد.

- وماذا عن قصر أورنكان؟ وإليزابيث؟

نهض بول من مكانه. أُطلقت أبواق الإنذار، وازداد تراشق القصف المدفعي. توجه الاثنان نحو ساحة المدينة، واستأنف بول حديثه:

- هناك أيضًا لغز محير ومرعب للغاية. وضع العدو لافتة، على أحد الطرق العرضية التي تشق السهل بين مدينة كور□ يني وأورنكان، تشير بعدم السماح لأي شخص باجتياز هذا الطريق المحفوف بالمخاطر والموت المحقق. ألح برنارد قائلًا:

- وما الوضع إذن بالنسبة إلى إليزابيث؟

- لا أعلم شيئًا، لم أعد أعرف شيئًا. إنه حقًا لأمر مرعب أن يخيم شبح الموت بظلاله على كل الأشياء ويمتد في تفاصيل شتى الأحداث. يبدو لي -بالرغم من عدم التحقق من مصدر هذه الشائعة- أن قرية أورنكان التي تقع بجوار القصر لم تعد قائمة. دُكت بالكامل، بل بالأحرى أبيدت وأسر سكانها الأربعمئة. إذن ترى ماذا..

قال بول بصوت خفيض ومرتجف: «إذن، ترى ماذا فعلوا في القصر؟ بإمكاننا رؤية القصر. لا يزال بإمكانك رؤية أبراجه وجدرانه من بعيد. ولكن ماذا وقع خلف هذه الجدران؟ ماذا أصاب إليزابيث؟ عاشت وحيدة بين هؤلاء الرعاع البهيمين لمدة ما تقرب من أربعة أسابيع، وعُرّضت لجميع أشكال الانتهاكات والإهانات.. يا لها من بائسة مسكينة!

بالكاد انقشعت عتمة الليل عندما وصلا إلى ساحة المدينة. استُدعي بول من قبل الكولونيل الذي نقل له تهاني القائد العام للفرقة، وأبلغه بأنه رُشّح لنيل وسام صليب التحرير ولرتبة ملازم ثان، وأنه سيتولى بدءًا من الآن قيادة وحدته العسكرية.

أردف الكولونيل مبتسمًا له: هذا كل شيء، ما لم يكن لديك رغبة أخرى؟

- أرغب في شيئين سيدي الكولونيل.

- قل ما شئت.

- في البداية، أود أن يُنقل على الفور شقيق زوجتي برنارد داند□يل إلى وحدتي العسكرية، وأن تتم ترقيته إلى رتبة عريف، فهو يستحق ذلك عن جدارة.

- موافق، وما الشيء الثاني؟

- أود أيضًا أن تُوجّه وحدتي، في وقت لاحق، عندما ننتقل ناحية الحدود، إلى قصر أورنكان الذي يقع على الطريق هناك.

- هذا يعني أن وحدتك ستُكلّف بمهاجمة القصر نفسه؟

قال بول بقلق بالغ: «ماذا تقصد سيدي بمهاجمة القصر؟ لدي معلومات بأن العدو يتمركز على طول الحدود، على بعد ستة كيلومترات من القصر.

- هذا ما اعتقدناه بالأمس. في الواقع يتمركز العدو في قصر أورنكان الذي يعد موقعًا دفاعيًا ممتازًا يتشبث به العدو بكل قوته منتظرًا وصول تعزيزات جديدة، وإليك دليل قوي على أنه يقوم بهجوم مضاد، انظر هناك إلى اليمين، هذه القذيفة المتفجرة.. وعلى مسافة أبعد تنطلق قذيفة شظايا.. اثنتان.. بل ثلاث قذائف. رصد عدونا قواعد المدفعية التي نصبناها على المرتفعات المحيطة. لديهم الآن قرابة عشرين مدفعًا.

تلعثم بول عندما هاجم ذهنه سيل من الأفكار المرعبة: «إذن تَوجّه نيران مدفعيتنا نحو..»

- يتم توجيه نيران مدفعيتنا نحو العدو، ذاك غني عن القول. تقوم سرية المدفعية 75، منذ وقت مبكر، بقصف قصر أورنكان.

صاح بول بصوت عال: «ماذا تقول سيدي الكولونيل؟ يتم قصف قصر أورنكان».

أخذ برنارد داند□يل، الذي يقف بجوار بول، يكرر بقلب يعتصره الألم: «يُقصف!! هل هذا معقول؟»

تملكت الضابط دهشة بالغة متسائلًا: «هل تعرفون هذا القصر؟ ربما يكون ملكًا لكما؟ أليس كذلك؟ هل لا يزال أحد أقاربكم يقطن هناك؟

- زوجتي، سيدي الكولونيل

امتقع وجه بول، وبالرغم من أنه بذل قصارى جهده لكي يضبط مشاعره ارتعشت يداه قليلًا واختلجت عضلات ذقنه.

غرق الكولونيل والضباط من حوله المنصتون بعناية فائقة لما يقوله بول في لجة الصمت. هذا الموقف المأساوي المثير للذعر الذي أبرز نكبات الحرب وويلاتها ولعناتها المريرة، فاقت سطوته جميع قوى الطبيعة الأخرى، وبدت حتمية مصائبه مطلقة، وجائرة، وشرسة. لما يعد بوسعنا فعل أي شيء، ولم يكن بمقدور أي شخص أن تراود ذهنه مجرد فكرة التوسط كيما تتوقف المدفعية عن إطلاق نيرانها، أو على الأقل تقلل من كثافتها، لم يطمح بول إلى شيء أكثر من ذلك، فتمتم قائلًا: «أعتقد أن نيران العدو تتباطأ رويدًا رويدًا. ربما اتخذ الأعداء قرارًا بالانسحاب قليلًا»

انفجرت ثلاث قذائف في طرف المدينة، خلف الكنيسة، فتبدد آخر بصيص أمل. هز الكولونيل رأسه قائلًا: «يتراجعون؟ ليس بعد. المكان الذي يتمركزون فيه يُعد بالغ الأهمية بالنسبة إليهم، ينتظرون تعزيزات مكثفة، ولن يتقهقروا إلا بمقاومتهم واشتباك أفواجنا القتالية معهم.. وأظن أن هذا لن يتأخر كثيرًا».

في الحقيقة، صدرت أوامر إلى الكولونيل بالتقدم، بعد بضع لحظات، نحو معقل العدو. سلكت الأفواج العسكرية طريقها، وانتشرت في السهول الممتدة إلى اليمين. قال الكولونيل لضباطه: «دعونا نذهب أيها السادة، ستسير وحدة الرقيب ديلروز في المقدمة. نقطة الهدف أيها الرقيب: قصر أورنكان. يوجد طريقان صغيران مختصران، سوف تسلكهما برفقة وحدتك».

- حسنًا، سيدي الكولونيل.

اختزل بول الألم الذي يعتصره وثورة غضبه العارمة في رغبة ملحة في الانقضاض على العدو الباطش، وعندما شرع في طريقه بصحبة رجاله، باغته شعور بامتلاك قوة لا تنضب وقدرة لا تنفد على غزو موقع العدو بمفرده. راح يحمس رجاله واحدًا تلو الآخر بسرعة دون كلل أو ملل مثل كلب الراعي الذي يحث

باقي القطيع على السير إلى الأمام. ضاعف من نصائحه وأكثر من إضرام الحماسة في صدورهم:

- أنت، أيها البطل، أنت تملك شجاعة لا تضاهى، تيقن من ذلك، احذر أن يخور عزمك.. وأنت أيضًا كذلك.. أنت تفكر في أن تقاوم مقاومة الأبطال الجسورين، وأنت تتأفف هكذا، لكننا سنمازح العدو.. حسنًا، سوف تمازحون عدوكم، أيها الأبطال، أليس كذلك؟ سوف نبذل قصارى جهدنا، سنوجه له ضربة ساحقة، دون أن نلتفت إلى الوراء، أليس كذلك؟

تشق القذائف طريقها فوق رؤوسهم عبر الفضاء، يدوي صفيرها، وضجيج زمجرتها، وصوت انفجارها، فتشكل قبة من الشظايا والحديد. صاح بول: «احنوا رؤوسكم! انبطحوا على الأرض!»

أما هو ظل واقفًا، غير مكترث بقذائف العدو. بيد أنه في خضم هلعه وذعره، تناهى إلى مسامعه صوت الجنود الآخرين القادمين من الخلف، والمندفعين من وراء التلال المحيطة، هؤلاء من يمضون قدمًا إلى الأمام بلا هوادة يحملون في كفوف أيديهم الموت. أين سيسقط هذا الجندي قتيلًا؟ في أي مكان سيمطر هذا الجندي وابل رصاصاته وشظايا قذائفه القاتلة؟ همس عدة مرات: «إليزابيث! إليزابيث»

طارده تخيل رؤية زوجته جريحة غارقة في دمائها، تلفظ أنفاسها الأخيرة. لم يتمكن بول من التفكير في زوجته، منذ اليوم الذي علم فيه أنها رفضت الانصياع لرغبته ومغادرة قصر أورنكان، دون أن يتملكه شعورًا ممتزجًا برجفة ثائرة حانقة تجتاح كل جسده. لم يعد يمزج بين ذكريات الماضي البغيضة والحقائق الجلية لطبيعة حبه ومشاعره. كلما فكر في الأم القاتلة المثيرة للاشمئزاز، لم تعد تجول في خاطره صورة الابنة الضحية، فهما الاثنتان مخلوقتان تنتمي كل منهما إلى سلالة مغايرة، ولا توجد أية صلة تربط إحداهما بالأخرى. لقد تحلت إليزابيث بالشجاعة، وجازفت بحياتها ممتثلة أداء واجب بدا في عينيها ذات قيمة تفوق قيمة حياتها؛ لذا فقد تعاظمت قيمتها في عيني بول وأضحت بالنسبة إليه مثالًا متفردًا في النبل والشهامة. إنها دون أدنى شك تلك المرأة التي كان يحبها ويعتز بها، وما زال حتى الآن يهيم بعشقها.

توقف بول بغتة. جازف بصحبة رجاله بالتوجه إلى أرض مكشوفة، وربما قام العدو برصدها فأمطرها بوابل من القذائف. أسفر ذلك عن سقوط عدد من الجنود. أمر بول جنوده صائحًا: «توقفوا! لينبطح الجميع أرضًا». قبض بقوة على يد برنارد قائلًا: «انبطح أرضًا يا عزيزي! لماذا تعرض حياتك للخطر دون أي جدوى؟ ابق هنا.. لا تبرح مكانك»

أبقاه بول منبطحًا على الأرض بإيماءة ودودة، أحاط رقبته بذراعه متحدثًا إليه بلطف وبشاشة، كما لو أنه أراد أن يغدق على الأخ بمشاعر المحبة والحنان التي تنبع من قلبه، والتي حُرمت منها زوجته حبيبته إليزابيث. نسي الكلمات اللاذعة التي وجهها إلى برنارد ليلة البارحة، واستبدل بها كلمات مغايرة تمامًا تنبض بالمودة والرقة اللتين كان يطمرهما في أعماق عمق وجدانه.

- لا تتحرك يا عزيزي. أتعلم، كان عليَّ ألا آخذك معي، وأصطحبك هكذا إلى أتون المعركة. أنا مسؤول عنك الآن، ولا أريد.. لا أريد أن يصيبك أي مكروه.

هدأ إطلاق النيران. استمر الجنود في الزحف حتى بلغوا صفًّا مزدوجًا من أشجار الحور التي تقدموا بطولها حتى وصلوا إلى منحدر منبسط ينتهي بسلسلة من التلال التي يشقها طريق محفور. تسلق بول المنحدر حتى ارتقى قمة هضبة أورنكان. لمح من بعيد أنقاض القرية، والكنيسة المنهارة التي يمتد إلى يسارها رُكام من حجارة وأشجار يبرز من خلفه مجموعة من الجدران. إنه قصر أورنكان.

ارتفعت ألسنة اللهب في كل مكان حول المزارع، وأكوام التبن، ومستودعات الحصيد.

في الخلف، انتشرت القوات الفرنسية في شتى الأرجاء. تمركزت إحدى سريات المدفعية في مكان آمن في إحدى الغابات وشرعت في إطلاق النيران دون هوادة. أبصر بول انفجار القذائف فوق القصر وبين أنقاض القرية، ولم يكن قادرًا على تحمل رؤية مثل هذا المشهد الذي يعتصر وجدانه، فراح يستأنف ركضه على رأس سريته. توقف دوي إطلاق نيران مدافع العدو التي أجبرت دون شك على التزام الصمت. بيد أنه عندما اقتربت القوات الفرنسية، وأضحت على مسافة ثلاثة كيلومترات من القرية، دوى صوت صفير طلقات نارية من حولها، ولاحظ بول، من مسافة بعيدة، تقهقر مفرزة عسكرية ألمانية في أثناء إطلاق النيران.

لم تتوقف زمجرة مدافع السرية 75، مشهدًا مروعًا للغاية. أمسك بول ذراع برنارد وهمس في أذنه بصوت مرتجف: «إذا أصابني مكروه، أخبر إليزابيث بأنني أعتذر لها والتمس منها الصفح والعفو، حقًا، التمس منها أن تسامحني»

ارتعد بول من مباغتة القدر الذي ربما يحول بينه وبين رؤية زوجته مرةً أخرى، وأدرك أنه تعامل معها بقسوة غير مبررة، متخليًا عنها باعتبارها مذنبة من أجل خطأ لم تقترفه، ومسلمًا إياها لشتى أشكال التعذيب والتنكيل. تسارعت خطواته، وتبعه رجاله من بعيد.

انضم إليه، في نهاية الطريق المختصر الذي اجتازه أمام وادي ليزرون، جندي يستقل دراجة. أصدر الكولونيل أمرًا إلى الوحدة العسكرية بانتظار وصول بقية الفوج العسكري حتى يشنوا هجومًا كاملًا. إنها المحنة الأكثر تعقيدًا والحرب الأكثر ضراوة.

أضحى بول فريسة للحماسة المضطرمة، وأخذ يرتجف من فرط السخط والانفعال. قال له برنارد: «هيا يا بول، لا تستسلم لمثل هذه الهواجس! سنصل في الوقت المناسب».

أجابه بول: «في الوقت المناسب.. لنفعل ماذا؟ لأجد إليزابيث قد وافتها المنية أم مصابة وغارقة في دمائها؟ أم من أجل ألا أعثر عليها على الإطلاق؟ ثم ماذا! هل يجب ألا يخرس صوت مدافعنا المقدسة؟ ماذا يقصفون الآن في وقت صمتت فيه مدفعية العدو؟ جثث الموتى.. المنازل المهدّمة»

- وماذا عن مؤخرة جيش العدو التي تغطي وتحمي تقهقرهم إلى الخلف؟

- حسنًا، أليس لهذا السبب نحن هنا، نحن سلاح المشاة؟ تلك هي مهمتنا...

انطلقت الوحدة العسكرية في نهاية المطاف، تدعمها بقية السرية الثالثة تحت قيادة نقيب عسكري. ركضت بسرعة مفرزة من سلاح الفرسان متجهة نحو القرية لتقطع الطريق على جنود العدو الفارين. انحرفت السرية العسكرية متجهة نحو القصر.

يخيم صمت الموت المطلق قبالتنا، ربما هناك شرك نصب لنا بإحكام؟ ألا يمكن الاعتقاد أن قوات العدو قد تحصنت بقوة في مواقعها ووضعت من حولها الحواجز والمتاريس متأهبة لمقاومة مستميتة؟

لم يكن هناك شيء مثير للريبة في الممر الذي تصطف على جانبيه الأشجار العتيقة المؤدية إلى فناء القصر الرئيسي. لم تتبعث أية جلبة، ولم يتراءى أي شخص. أخذ بول وبرنارد، اللذان لا يزالان في المقدمة، حيث يضع كل منهما إصبعه على زناد بندقيته، ينقبان بنظراتهما الحادة بين الشجيرات. تصاعدت أعمدة الدخان فوق جدار قريب للغاية توجد فيه فتحات ضخمة وواسعة. اقترب الاثنان من الجدار، وتناهى إلى مسامعهما صوت تأوه، ثم صوت أنين حشرجة الموت الموجع. ينبعث هذا الصوت من جرحى الجنود الألمان.

ارتجت الأرض بغتة تحت أقدام الجنود الفرنسيين، كما لو أن القشرة الأرضية تشققت جراء حدوث زلزال مدمر، وعلى الجانب الآخر من الجدار، وقع انفجار هائل بل -بالأحرى- سلسلة من الانفجارات الضخمة التي تشبه صاعقة رعدية عنيفة ومتواصلة. اكتسى المكان بالظلام الحالك، وخيمت عليه سحابة ضخمة من الرمال والغبار، حيث تدفق منها وابل من شتى الحطام ومواد البناء.

فجر العدو القصر.

عندما اجتاز الجنود بوابة القصر، راعهم مشهد فناء القصر المدمر، والأبراج المهدّمة، والقصر المحطم، والمباني الملحقة التي تتصاعد منها ألسنة اللهب، وجنود ينازعون سكرات الموت، وجثث متكدسة، أصابهم هلع شديد حتى أنهم ارتدوا بضع خطوات إلى الوراء. صاح الكولونيل الذي كان يركض على رأس سلاح الخيالة:

- إلى الأمام! إلى الأمام! لا بد أن هناك كثيرًا من الجنود قد فروا هاربين عبر الحديقة.

تقدم بول الذي يعرف جيدًا تفاصيل طريق اجتازه سابقًا منذ بضعة أسابيع في مثل هذه الظروف المأساوية. اندفع وسط الحشائش الخضراء الطويلة، وكتل الأحجار، والأشجار المقتلعة. بيد أنه عندما مر أمام منزل صغير ينتصب وحيدًا عند مدخل الغابة، توقف بغتة، وتسمرت قدماه في الأرض. أصابت حالة من الصدمة والذهول برنارد وبقية الجنود الذين فغرت أفواههم الدهشة، وتحجرت ألسنتهم داخل أفواههم من هول المشهد المريع. كانت هناك، أمام حائط المنزل، جثتان واقفتان ومثبتتان في الحائط بحلقتي سلسلة طوقت بطنيهما. إنهما جثتان لرجل وسيدة عرفهما بول على الفور، إنهما چيروم وروزالي اللذان أعدما رميًا بالرصاص. امتدت السلسلة

بجوارهما، وتشعب منها حلقة ثالثة مثبتة بالجدار ومغلقة. تلطخ جص الجدار بالدماء، وبدت آثار الرصاص جلية للعيان. كانت هناك، دون أدنى شك، ضحية ثالثة، ونُقلت جثتها.

اقترب بول قليلًا، ولاحظ شظية إحدى القذائف منغرسة في الجص، كما أبصر أيضًا، بين الجص وشظية القذيفة، على طرف الفتحة، حفنة من شعر إليزابيث الأشقر الذهبي التي انتزعت متشبثة بالجدار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع

«هــ»، «يــ»، «ر»، «مــ»

تملك بول في تلك اللحظة -بجانب حالة اليأس والهلع التي انتابته- شعور برغبةٍ ملحةٍ في انتقام فوري، مهما كلفه ذلك من ثمن. أخذ يتطلع إلى جرحى العدو الذين يحتضرون في الحديقة باعتبارهم مذنبين ينالون جزاء جرائم القتل الوحشي التي ارتكبوها.. ثم جز على أسنانه بقوة قائلًا:

- الجبناء! سافكو الدماء!

تلعثم برنارد: «هل أنت واثق؟ هل أنت واثق بأنه شعر إليزابيث؟

- نعم، نعم، أُعدمت رميًا بالرصاص مثل الشخصين الآخرين.. أعرفهما جيدًا، إنه حارس القصر وزوجته. آه! يا لهما من بائسين!

رفع بول أخمص بندقيته على جندي ألماني يزحف بين الأعشاب، وكان على وشك أن يصفعه بقوة، إلا أنه تفاجأ بوجود الكولونيل الذي اقترب منه قائلًا:

- ماذا تفعل يا ديلروز؟ وأين بقية وحدتك؟

اندفع بول نحو قائده ملوحًا ببندقيته، وقد جُن جنونه واستشاط غضبه قائلًا:

لقد قتلوها يا سيدي الكولونيل؛ نعم، أعدموها رميًا بالرصاص.. هنا، على هذا الجدار بجوار الشخصين اللذين كانا يخدمانها.. قُتلوا جميعًا. كانت في العشرين من عمرها سيدي الكولونيل... آه! يجب أن نذبحهم جميعًا، مثل الكلاب!

كان برنارد قد سبقه قائلًا: «دعنا لا نضيع الوقت، يا بول، دعنا نأخذ بثأرنا من أولئك الذين يقاتلوننا.. يمكننا سماع طلقات نارية هناك. يجب أن نحاصر أماكن وجودهم».

لم يعد بول مالكًا زمام عقله ولا مدركًا أفعاله. أستأنف ركضه، وتوهجت في أعماقه ثورة عارمة من الغضب والأسى الشديدين.

انضم بول، بعد عشر دقائق، إلى وحدته، ثم مر من أمام الكنيسة، مجتازًا مفرق الطرق، حيث عُرّض والده للطعن. وبدلًا من أن يجد البوابة القصيرة المنخفضة التي كان قد رآها قبلًا تتوسط الجدار الحدودي، أبصر هذه المرة فتحة ضخمة يتم من خلالها إدخال وإخراج قوافل الإمدادات المخصصة للقصر. وقع تبادل عنيف لإطلاق النيران في السهل، على بعد ثمانيمئة مترٍ من الجدار.

حاول بضع عشرات من الجنود الألمان الفارين أن يشقوا طريقهم بصعوبة بالغة وسط جنود سلاح الفرسان الذين تتبعوا الطريق. هاجمهم بول ووحدته من الخلف، بيد أنهم تمكنوا من الاختباء داخل مربع من الأشجار، وظلوا يدافعون عن أنفسهم بشراسة متناهية. أخذوا يتراجعون رويدًا رويدًا، ثم سقطوا في قبضة الفرنسيين واحدًا تلو الآخر. تمتم بول، الذي راح يطلق النيران بلا هوادة، بعد أن هدأت حدة

القتال: «لماذا يقاومون؟ أعتقد أنهم يحاولون كسب بعض الوقت». صاح برنارد، حيث بدا أن نبرة صوته قد تبدلت: «انظر إلى هناك!»

انطلقت أسفل الأشجار سيارة قادمة من ناحية الحدود، ومكتظة بالجنود الألمان. هل تحمل تعزيزات عسكرية؟ لا، كادت السيارة أن تدور حول المكان، وكان يقف بينها وبين المقاتلين الفارين ضابطٌ يرتدي معطفًا طويلًا رمادي اللون، مدججٌ بمسدس، يحثهم على المقاومة متراجعًا نحو السيارة المرسلة لنجدتهم.

كرر برنارد قائلًا: «انظر، يا بول، انظر».

أُصيب بول بالصدمة والذهول. هذا الضابط الذي لفت برنارد انتباهه إليه، لقد كان... ولكن لا، هذا أمر لا يصدقه العقل. وبالرغم من ذلك، سأل برنارد: «ماذا تريد أن تقول يا برنارد؟»

همس برنارد: «نفس الوجه، نفس الوجه الذي رأيته في الأمس يا بول كما أخبرتك، وجه تلك السيدة التي سألتني عنك ليلة البارحة».

من ناحيته، أدرك بول -دون أدنى تردد- حقيقة هذا الشخص الغامض الذي سعى إلى أن يرديه قتيلًا بالقرب من باب الحديقة الصغير، هذا الشخص الذي تشبه ملامحه إلى حد كبير لا يمكن تخيله ملامح السيدة قاتلة والده، ملامح السيدة التي ظهرت في اللوحة، ملامح هيرمين داند□يل، ملامح والدة إليزابيث وبرنارد. اكتتف برنارد بندقيته، صاح بول، وهو في غمرة دهشته من هذا المشهد:

- لا، لا، لا تطلق عليه الرصاص.

- لماذا؟

- دعنا نحاول أن نلقي القبض عليه وهو على قيد الحياة.

اندفع بول إلى الأمام مشتعلة نيران البغضة داخل قلبه، في حين أن الضابط ركض بسرعة جنونية نحو السيارة. مد الجنود الألمان أياديهم إليه ورفعوه بينهم داخل السيارة. أطلق بول الرصاص فأصاب الشخص الذي يجلس خلف مقود السيارة، حينئذ أمسك الضابط على الفور بعجلة القيادة في اللحظة التي كادت فيها السيارة أن تصطدم بإحدى الأشجار. عدل الضابط مسار السيارة، وجعلها تنطلق مسرعة بمهارة لا تضاهى وسط الحواجز والعوائق، قادها خلف أرض متعرجة، ثم اتجه مباشرة من هناك نحو الحدود.

لقد نجا بأعجوبة.

عندما أضحى الأعداء، الذين ما زالوا يقاتلون بشراسة، في مأمن من نيران الجيش الفرنسي، استسلموا على الفور.

ارتجف بول من شدة الغضب، فقد بدا هذا الشخص بالنسبة إليه تجسيدًا حيًا للشر في أشكاله شتى، ومنذ اللحظة الأولى حتى آخر لحظة في مشاهد هذه السلسلة الدرامية الطويلة والاغتيالات والتجسس والاعتداءات والخيانات وتبادل إطلاق النيران، التي

تفاقمت وتضاعفت في سياق واحد، وعلى نفس المنوال، برهن هذا الشخص على عبقرية الجريمة.

موت هذا الكائن الشرس هو الأمر الوحيد الذي كان سيروي ظمأ كراهية بول. لقد كان هو بالفعل، لم تعد الشكوك تراود بول، إنه الوحش الثائر الذي أطلق الرصاص على إليزابيث. آه! يا للخزي والعار! قُتلت إليزابيث بدمٍ باردٍ رميًا بالرصاص!

صاح بول بصوتٍ عالٍ شق عنان السماء: «من يكون هذا؟ كيف أعرفه؟ كيف أصل إليه، وأتلذذ بتعذيبه، وأمزقه إربًا إربًا؟

أخبره برنارد: «استجوب أحد الأسرى».

وبناءً على أمر أصدره القائد، الذي ارتأى أنه من الحكمة ألا يتقدم بقواته أكثر من ذلك، تراجعت وحدة بول لتبقى على اتصال مع باقي الفوج العسكري، وكُلف بول على رأس وحدته باحتلال القصر وقيادة الأسرى إلى هناك.

في الطريق إلى القصر، أسرع بول في استجواب ضابطين أو ثلاثة، وبعض الجنود. لكنه لم ينتزع منهم سوى معلومات يشوبها الغموض، لأنهم وصلوا البارحة إلى كور□يني، ولم يقضوا سوى ليلة واحدة في القصر. أخبروه بأنهم يجهلون تمامًا اسم الضابط ذي المعطف الطويل الرمادي، والذين ضحوا بحياتهم من أجله. ينادونه الميجور، هذا كل شيء. أستأنف بول استجوابه: «هل هو قائدكم المباشر؟»

- لا، قائد مفرزة مؤخرة الجيش التي ننتمي إليها هو ضابط برتبة ملازم أول، أُصيب بجراح بالغة جراء انفجار الألغام في أثناء هروبنا. أردنا أن نصطحبه معنا بيد أن الميجور رفض بشدة، وأمرنا مدججًا بالسلاح بالسير أمامه، مهددًا بقتل أول شخص لا ينصاع لأوامره. وعلى الفور، بينما كنا نقاتل، تراجع الميجور بضع خطوات إلى الوراء، وواصل تهديده لنا ممسكًا مسدسه، حتى يُلزمنا بالدفاع باستماتة عنه. سقط ثلاثة أشخاص منا برصاص مسدسه.

- كان يعتمد على مساعدة السيارة، أليس كذلك؟

- نعم، وعلى التعزيزات التي كانت ستنقذنا جميعًا، كما أخبرنا. لكن السيارة فقط هي التي أتت لإنقاذه، ونجا بمفرده.

- الملازم الأول يعرف اسمه، بلا أدنى شك، أليس كذلك؟ وهل أصيب بجروح بالغة؟

- كُسرت ساقه. تركناه ممددًا في منزل صغير في الغابة.

- المنزل الذي أعدمتم أمامه بعض الأشخاص رميًا بالرصاص؟

- نعم.

توجها نحو المنزل الصغير، ورُفعت جثتا چيروم وروزالي. سرت في جسد بول رعشة مفزعة، عندما راح يتأمل السلسلة المشؤومة المتصلة بثلاث حلقات حديدية،

والممتدة على طول الجدار، وآثار الطلقات النارية، وشظية القذيفة التي ثبتت شعر إليزابيث في الجص.

قذيفة فرنسية! أضفى هذا المزيد من ملامح الفزع والرعب على فظاظة وبشاعة جريمة القتل.

في الواقع، وفقًا لما قام به بول البارحة عندما استولى على السيارة المصفحة، وشرع في إحدى صولاته الجسورة، ممهدًا الطريق أمام القوات الفرنسية، تمكن من ربط وتحديد الأحداث المتعاقبة التي أدت إلى مقتل زوجته! أراد العدو أن ينتقم لتقهقره وانسحابه المخزي مطلقًا الرصاص على سكان القصر! طُوّقت إليزابيث بإحدى حلقات السلسلة المثبتة على الجدار، ورُميت بالرصاص! ومن فرط سخرية القدر البغيضة، أن جسدها تلقى أيضًا شظايا القذائف الأولى التي أطلقتها المدفعية الفرنسية قبل حلول الليل، من أعلى التلال القريبة من كور□يني.

انتزع بول شظية القذيفة من الجص، وأخذ يفصل عنها خصلات الشعر الذهبية التي همَّ بجمعها باهتمام بالغ لكي يحتفظ بها، ولج باب المنزل بصحبة برنارد، حيث كان الممرضون قد أعدوا وحدة إسعاف مؤقتة. وُجد الملازم الأول مستلقيًا على فراش من القش، يخضع لعناية طبية، وفي حالة تسمح له بالإجابة عن الأسئلة التي سيطرحها عليه.

وعلى الفور، بدا له أن هناك نقطة وحيدة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار ولا تقبل الجدل، ألا وهي أن القوات الألمانية التي استُحضرت لتتولى أمر الدفاع عن القصر لم يكن لديها -إن جاز قول ذلك- أي تواصل مع باقي القوات الأخرى التي انسحبت البارحة من أمام كور□يني والقلاع المجاورة. ولأن العدو كان يخشى صدور بعض الحماقات وقيام أحد الجنود بإفشاء بعض الأسرار في أثناء احتلال القصر، تم إجلاء جميع الجنود الذين كُلفوا بحماية القصر والمدينة، فور وصول القوات المقاتلة البديلة بقيادة الملازم الأول الذي راح يحكي:

- في تلك اللحظة، في تمام الساعة السابعة مساء، كانت سرية مدفعيتكم 75 قد رصدت مكان القصر، ولم نجد سوى مجموعة من الجنرالات وكبار الضباط. كانت عربات الأمتعة الخاصة بهم قد غادرت، وتأهبت سياراتهم للانطلاق. صدرت لي الأوامر بالدفاع عن القصر باستماتة ولأطول فترة ممكنة، ثم بتفجير القصر. علاوة على ذلك، اتخذت هذه الإجراءات بناء على أوامر الميجور.

- ما اسم هذا الميجور؟

- لا أعلم. يسير دائمًا برفقة ضابط شاب يخاطبه الجنرالات أنفسهم باحترام مبالغ فيه، ويبدون له كل إجلال وتقدير. هذا الضابط نفسه هو من استدعاني، وألزمني بالامتثال لأوامر الميجور.

- ومن يكون هذا الضابط الشاب.

- إنه الأمير كونارد.

- أحد أبناء القيصر، أليس كذلك؟

- نعم، غادر القصر في الأمس، في نهاية فترة ما بعد الظهيرة.

- وهل قضى الميچور ليلته هنا؟

- أظن ذلك. على أية حال، رأيته هنا هذا الصباح. زرعنا الألغام والمتفجرات، وغادرنا على الفور. بيد أنني، أُصبت بعد ذلك بجراح بالغة أمام المنزل.. بالقرب من الجدار..

تمالك بول نفسه وسأله: «أتقصد ذلك الجدار الذي أُعدم أمامه ثلاثة فرنسيين رميًا بالرصاص؟»

- نعم.

- متى قتلوا؟

- أعتقد أن ذلك حدث مساء أمس، نحو الساعة السادسة، قبيل وصولنا إلى كور□ يني.

- من الذي أمر بإطلاق الرصاص عليهم؟

- الميچور.

شعر بول بقطرات عرق جارحة تنساب من قمة رأسه وتتدفق إلى أسفل جبهته وعنقه. لم يكن مخطئًا فيما توقعه: أعدمت إليزابيث رميًا بالرصاص، بناءً على أوامر صدرت من هذا الشخص المجهول الخارق للطبيعة، والذي لا تختلف ملامح وجهه كثيرًا عن ملامح وجه هيرمين داند□يل، والدة إليزابيث!

تابع بول حديثه بصوت مختنق ومرتجف: «إذن، قُتل ثلاثة فرنسيين، هل أنت واثق من ذلك؟

- نعم، من يعيشون في القصر. خدعونا، إنهم خائنون.

- رجل وامرأتان، أليس كذلك؟

- بلى

- ومع ذلك، لم يوجد سوى جثتين اثنتين موثقتين بجدار المنزل، أليس كذلك؟

- بلى، يوجد جثتان فقط. بناءً على أمر صادر من الأمير كونراد، أراد الميچور أن تُدفن سيدة القصر.

- أين؟

- لم يخبرني الميچور بهذا الأمر.

- لكنك ربما تعلم لماذا أُعدمت رميًا بالرصاص؟

- يبدو لي أنها أقدمت على اكتشاف أسرار هامة للغاية.

- كان من الممكن أن تصطحبوها كأسيرة، أليس كذلك؟

- بلى، لكن الأمير كونراد ربما كان فاقدًا للرغبة فيها.

ارتجف فؤاد بول، واستأنف الضابط حديثه بابتسامة مبهمة:

- أجل! فنحن نعرف الأمير جيدًا، إنه «دون چوان» عائلته. يعيش في هذا القصر، منذ بضعة أسابيع، وبالطبع، كان لديه متسعٌ من الوقت، أليس كذلك، كيما ينال إعجاب السيدة.. وبعد ذلك.. وبعد ذلك أصابه السأم.. فضلًا عن ذلك، ادعى الميچور أن هذه السيدة سعت برفقة الخادمين إلى دس السُم للأمير في الطعام. لذا، أليس...؟

لم يكد الضابط ينتهي من جملته حتى انحنى بول نحوه بوجه متشنج، قابضًا بعنف على رقبته، وقائلًا له بحنق: «كلمة أخرى، وسوف أخنقك.. آه! لحسن حظك أنك ما زلت جريحًا.. وإلا.. وإلا لكنت..

جُن جنون برنارد الذي راح هو الآخر يدفعه بقوة، قائلًا:

- نعم، أنت محظوظ للغاية. ثم إن أميرك كونراد، كما تعلم جيدًا، ليس سوى إنسان قذر.. وأنا سأتكفل بمسؤولية أن أخبره بذلك وجهًا لوجهٍ.. إنه شخص قذر مثل جميع أفراد عائلته ومثلكم أنتم جميعًا.

ترك الاثنان الملازم الأول الذي تملكه الذهول التام، ولم يدرك الدافع وراء غضبهما المباغت وسخطهما الشديد.

في الخارج، شعر بول بأن سهام اليأس تخترق وجدانه، تراخت أعصابه، وتبدل كل غضبه الجارف، وكل بغضته الشديدة بكآبة لا متناهية ووهن شديد. تمكن بالكاد من أن يكبح جماح دموعه. صاح برنارد: «لا يا بول، لا تصدق كلمة واحدة»

- لا، وألف لا! جميع ما توقعته حدث بالفعل.. فكرْ مليًا في الأمر! امرأة تعيش بمفردها، دون أية حماية، صيد ثمين يستحق عناء المخاطرة. أي أشكال من التعذيب والتنكيل قد عُرّضت لها، يا لها من مسكينة بائسة! يا له من خزي وذل مهين! صراع يومي.. تهديدات.. فظاظة ووحشية.. ثم بعد كل هذا، وفي اللحظة الأخيرة، يُحكم عليها بالإعدام لمجرد أنها صمدت في الدفاع عن نفسها..

قال برنارد بصوت خفيض: «سوف نثأر لها يا بول».

- بالطبع سوف أنتقم لها، لكنني لن أنسى البتة أنها مكثت هنا بسببي.. كان هذا خطئي. سأوضح لك لاحقًا كل شيء، وستدرك كم كنت شخصًا قاسي القلب وظالمًا.. وعلى الرغم من ذلك...

شرد عقل بول، وطاردت صورة الميچور ذهنه، فأخذ يكرر:

- ومع ذلك.. ومع ذلك.. تدور بمخيلتي أشياء غاية في الغرابة..

خلال فترة ما بعد الظهيرة، واصلت القوات الفرنسية تدفقها عبر وادي ليزرون، وقرية أورنكان، لاعتراض أي ارتداد هجومي من قبل العدو. انتهز بول وبرنارد،

وقت استراحة جنود وحدتهما، وانكبا على إجراء فحص دقيق وتفتيش شامل لشتى أرجاء الحديقة ولأنقاض القصر، لكنهما لم يجدا أي أثر للمكان الذي دُفن فيه جثمان إليزابيث.

نحو الساعة الخامسة، دُفنت جثتا چيروم وروزالي بشكل لائق، ونُصب صليبان فوق ربوة صغيرة تناثرت عليها الورود. أتى قسيس ليتلو الصلوات الجنائزية على قبريهما. اضطربت مشاعر بول في تلك اللحظة، وجثا على ركبتيه أمام قبر هذين الخادمين الأمينين اللذين بذلا حياتهما ثمنًا لإخلاصهما المتفرد.

أخذ بول على نفسه عهدًا بأن يثأر لهما أيضًا، واشتعلت بضراوة نيران الانتقام في ثنايا وجدانه، مستدعيًا من ذاكرته ملامح صورة الميچور البغيضة، تلك الصورة التي لم يعد يفرقها الآن عن صورة الكونتيسة داند□يل التي ظلت ملامحها تطارده ليل نهار.

اصطحب بول شقيق زوجته في جولة وسأله: «هل أنت واثق بأنك لم تخطئ عندما أشرت إلى التشابه الشديد بين ملامح وجهي الميچور والسيدة التي تزعُم بأنها فلاحة والتي وجهت لك العديد من الأسئلة بشأن كور□يني؟

- واثق تمام الثقة.

- إذن، هيا بنا، أخبرتك من قبل عن لوحة لإحدى النساء معلقة في القصر. سوف نذهب معًا لرؤيتها، وسوف تخبرني بانطباعك اللحظي.

كان بول قد لاحظ أن أحد أجزاء القصر، الذي توجد فيه غرفة نوم وغرفة معيشة هيرمين داند□يل، لم يتهدم تمامًا جراء انفجار القذائف أو الألغام. ربما بقيت غرفة المعيشة على حالتها الأولى.

لم يكن هناك درج؛ لذا لن يتمكنا من الصعود إلى الطابق العلوي إلا إذا تسلقا أنقاض القصر المتهدمة. يمكن الوصول إلى الممر عبر عدة أماكن. اقتُلعت جميع الأبواب من أماكنها، وعُرّضت الغرف لحالة من الفوضى العارمة التي يُرثى لها. قال بول بصوت مرتفع، مشيرًا بيده نحو فراغ موجود بين أطلال جدارين ظلا قائمين بأعجوبة: «ها هو المكان».

إنها غرفة معيشة هيرمين داند□يل، متداعية وجدرانها متصدعة، يتناثر في أرجائها حطام الجص والحجارة. تعرف بول عليها بسهولة، حيث كانت لا تزال ممتلئة بالأثاث الذي أبصره مساء يوم زواجه. حجبت مصاريع النوافذ أشعة الشمس قليلًا، بيد أنه تسرب ما يكفي من الضوء الذي يسمح لبول بتخمين مكان الجدار المقابل. صاح بول على الفور: «انتُزعت اللوحة من الجدار!»

شعر بول بخيبة أمل كبيرة، أدرك في تلك اللحظة أن اختفاء اللوحة يُعد برهانًا واضحًا يبرز أهميتها البالغة بالنسبة إلى أعدائه. إذا كان العدو اللعين قد أخذها، أليس لأنها تشكل دليلًا دامغًا على جريمته النكراء؟

أخبره برنارد: «أقسم لك أن هذا لن يغير شيئًا من قناعاتي. أنا لست بحاجة إلى التحقق من التشابه الكبير بين ملامح وجهي الميچور، وفلاحة كور□يني. إذن، صورة من كانت تحمل هذه اللوحة؟

- صورة امرأة، كما قلت لك آنفًا.

- أية امرأة؟ هل هي إحدى اللوحات التي جلبها أبي إلى القصر، إحدى لوحات مجموعته؟

أكد بول، حريصًا على ألا يعطي شقيق زوجته انطباعًا خاطئًا، قائلًا: «بالضبط».

تمكن بول، بعد أن فتح قليلًا أحد مصراعي نافذة، أن يلاحظ على مساحة كبيرة مستطيلة من الجدار كانت تغطيها اللوحة، بعض التفاصيل التي تبين انتزاع اللوحة بتهور، وفي عجالة، كما أنه وجد الإطار الذي يزين اللوحة مُمزقًا ومُلقىً على الأرض.

تسلل بول خفية، وأخذ يجمع بقايا الإطار حتى لا يرى برنارد الكتابة التي نُقشت عليه. بيد أنه عندما راح يتفحص عن كثب مكان اللوحة، هم برنارد بفتح مصراع النافذة الآخر، عندئذ، أطلق بول صيحة مدوية.

قال برنارد: «ماذا هناك؟»

- انظر إلى الجدار.. انظر.. هذا التوقيع المكتوب.. في نفس مكان اللوحة.. هناك توقيع وتاريخ.

كُتبت هذه الكلمات في سطرين منفصلين بقلم رصاصي على الجص الأبيض:

التاريخ: مساء الأربعاء، 16 سبتمبر 1914.

التوقيع: الميچور هيرمان.

الميچور هيرمان! وقبل أن يعي بول فحوى هذه الكتابة، تعلقت عيناه بالتفاصيل التي تجمعت في هذين السطرين، في حين أن برنارد اقترب من الجدار ليتحقق من الكتابة، ثم غمغم في دهشة لا مثيل لها: «هيرمان.. هيرمين».

إنهما تقريبًا نفس الكلمتين! يبدأ اسم هيرمين بالأحرف ذاتها التي يحملها الاسم المكتوب على الجدار، والذي يلي رتبة الميچور. الميچور هيرمان! الكونتيسة هيرمين! «هــ»، «يــ»، «ر»، «مــ» الحروف الأربعة المكتوبة على الخنجر الذي حاول الرجل أن يطعن به بول عند باب جدار الحدود، «هــ»، «يــ»، «ر»، «مــ» الحروف الأربعة المحفورة على الخنجر الذي استولى عليه من الجاسوس في برج جرس الكنيسة!

تفوه برنارد قائلًا: «في رأيي المتواضع، هذه الكلمات كُتبت بيد امرأة. إذن... »

ثم واصل حديثه بتمعن وتفكر: «إذن.. ماذا يجب أن نستنتج من ذلك؟ إما أن تكون المرأة الفلاحة التي التقيتها ليلة البارحة والميچور هيرمان، شخصية واحدة، أي أن

هذه السيدة الفلاحة هي رجل متنكر، ألا وهو الميچور.. أو.. أو أننا أمام شخصيتين مختلفتين، رجل وامرأة، وأعتقد أن هذا هو الرأي الأرجح والمقبول، على الرغم من التشابه العجيب بين ملامح وجهيهما.. لأنه في النهاية، كيف للعقل أن يقبل فكرة أن يقوم نفس الشخص بكتابة حروف اسمه على هذا الجدار ليلة البارحة، ويجتاز الخط الحدودي، ويتنكر في زي فلاحة، ويجاذبني أطراف الحديث في كور□ يني.. ثم بعد كل هذا، كيف يعود صباح اليوم، متنكرًا في شخصية ميچور ألماني، ويصدر أوامره بتفجير القصر، ويفر هاربًا، وبعد أن يقتل عددًا من جنوده، يولي أدباره مسرعًا للاختفاء في سيارة؟

لم ينبس بول ببنت شفة، مستغرقًا في أفكاره وتأملاته. توجه، بعد برهة قصيرة من الوقت، إلى الغرفة المجاورة التي تفصل بين غرفة معيشة الكونتيسة، والشقة التي كانت تعيش فيها زوجته إليزابيث.

لم يتبقَ من شقة إليزابيث سوى أنقاض، بيد أن الغرفة الوسطى لم تتهدم كثيرًا، وكان من السهل أن يستنتج بول، عبر رؤية المغسلة، والفراش المغطى بملاءات غير مرتبة، أنه تم استخدامها كغرفة للنوم في أثناء ليلة البارحة. وجد بول على الطاولة مجموعة من الصحف الألمانية، وصحيفة فرنسية صدرت يوم العاشر من سبتمبر، حيث شُطب -بخطين عريضين لقلم رصاصي أحمر- بيان صحفي يتناول خبر انتصارات «المارن»، وذُيل البيان بهذين الكلمتين: -«أكذوبة! أكذوبة!»، مرفقتين بالتوقيع «هـ». توجه بول نحو برنارد قائلًا: «نحن بالفعل في قصر الميچور هيرمان».

- نعم، أحرق الميچور ليلة أمس الأوراق التي تعرضه للشبهة والخطر.. انظر، يمكنك رؤية كومة من الرماد في المدفأة.

انحنى برنارد ملتقطًا بعض أظرف الخطابات، وبعض أوراق شبه محترقة لم يتضح منها، بالرغم من ذلك، سوى كلمات غير متناسقة، وعبارات غير مترابطة.

وتشاء الصدفة العجيبة أن يلتفت برنارد ناحية الفراش، فيلاحظ أسفل مُلّة السَّرير صرة من الثياب قد أخفيت، أو ربما نُسيت في أثناء تعجل المغادرة. هم برنارد بسحب الثياب تجاهه وصاح على الفور:

- آه! هذا دليل دامغ لا يقبل الشك!

قال له بول الذي كان يفتش متفحصًا بدقة الجانب الآخر من الغرفة: «ماذا؟»

- هذه الملابس.. ملابس السيدة الفلاحة.. رأيتها ترتدي هذه الثياب عندما التقيتها في كور□ يني. أنا على يقين من ذلك.. ثوب من الصوف الغليظ بني اللون. ثم، انظر إلى هذا الوشاح من الدانتيل الأسود الذي حدثتك عنه.. صاح بول مهرولًا تجاهه:

- ماذا تقول؟

- أجل! بإمكانك أن تنظر إلى هذا الوشاح قديم الطراز. يبدو أنه بالٍ وممزق! لا يزال الدبوس الزيني الذي أعطيتك أوصافه مثبتًا فيه. هل ترى؟

بمجرد أن اقترب بول ولمح الدبوس الزيني، تملكته نوبة من الهلع الشديد! يا للدلالات المرعبة التي تكمن خلف اكتشاف هذه الثياب في غرفة الميچور نفسها، وبالقرب من غرفة معيشة هيرمين داند□يل! هذا الجزع المنقوش المؤطر بثعبان مذهب، وعيناه من الياقوت! هذا الجزع المنقوش الذي حُفرت صورته في ذاكرته، ولم يغب عن باله منذ نعومة أظافره، رآه آنفًا معلقًا في صدار تلك المرأة التي طعنت والده، وتعرف على أدق تفاصيله عندما أبصره للمرة الثانية في لوحة الكونتيسة هيرمين. وها هو الآن يعثر عليه في هذا المكان، ويجده مثبتًا في نفس وشاح الدانتيل الأسود المطمور وسط ثياب فلاحة كور□يني، والمنسي في غرفة الميچور هيرمان!

تلفظ برنارد قائلًا: «أضحت الدلائل الآن غير قابلة للشك. بما أننا عثرنا على هذه الثياب في القصر، فهذا يعني أن السيدة التي استجوبتني بشأنك عادت إلى هنا في تلك الليلة. ولكن، ما وجه العلاقة بين هذه السيدة والضابط الذي يشبهها بشكل لافت للنظر؟ الشخص الذي استجوبني بشأنك هو بالطبع الشخص نفسه الذي أطلق النار على إليزابيث؟ إلى أي صنف من البشر ينتمون هؤلاء الأشخاص؟ أية عصابة من القتلى والجواسيس تلك التي اصطدمنا بها؟

أجابه بول: «نحن نواجه الألمان، ولا أحد غيرهم. بالنسبة إليهم، يعدّ القتل والتجسس إحدى الوسائل الطبيعية والمباحة في الحرب، في حرب شنّوها علينا في فترة سادها الوئام والسلام. تجاذبنا من قبل أطراف الحديث بشأن هذه الحرب، وأوضحت لك أننا ضحايا زلقت أقدامنا منذ ما يقرب من عشرين عامًا. بدأت الدراما المأساوية بمقتل والدي، وها نحن الآن يعتصر قلبنا الألم وتتأرجح الدموع في أحداقنا أمام مشهد مقتل إليزابيث المسكينة. ولن ينتهي الأمر بعد».

- ومع ذلك، لاذ هذا الهمجي بالفرار.

- سنلتقيه مرةً أخرى، كن واثقًا من ذلك. إذا لم يأت، سوف أذهب لإحضاره. وقتها سوف...

كان هناك كرسيان ذوا ذراعين موضوعان في الغرفة. قرر بول وبرنارد، في البداية، أن يقضيا الليلة هناك، وهما على الفور بكتابة اسميهما على جدار الردهة. انضم بول، بعد ذلك، إلى رجاله ليشرف على تجهيز مكان للإقامة وسط مستودعات الحصيد والمباني الملحقة التي لا تزال قائمة. عندئذٍ، أخبره الجندي الوصيف، وهو جندي شجاع يدعى «چيريفلور» قادم من منطقة «أو□يرنيا»، بأنه وجد زوجين من الملاءات والمراتب النظيفة داخل منزل صغير مجاور لمنزل حارس القصر؛ لذا سوف يُعدّ -بسهولة- فراشًا للجنود. اتُّفق، في النهاية، على أن يذهب چيريفلور بصحبة أحد رفاقه إلى القصر ليتدبرا أمريهما ويستلقيا على الكرسيين.

مرت هذه الليلة دون أن يشوبها الذعر والخطر، ليلة قضاها بول مستسلمًا للاضطراب والأرق، تطارده ذكرى إليزابيث الموجعة. عندما لاح الصباح، غط بول في سبات عميق تتخلله كوابيس مفزعة، ثم قاطعه بغتة دوي صوت بوق

الاستيقاظ. كان برنارد ينتظر صهره. لاحظ بول غياب جنديه الوصيف چيريفلور ورفيقه، فأخبر برنارد:

- لا بد أنهما لا يزالان نائمين، دعنا نذهب لتوبيخهما.

سلكا مرةً أخرى، عبر الأنقاض، الطريق المؤدي إلى الطابق العلوي، والذي تمتد بطوله الغرف المتهدمة. وجدا، على سرير الغرفة التي احتلها الميچور هيرمان، الجندي چيريفلور منهارًا، وملطخًا بالدماء، وقد وافته المنية. كما أبصرا رفيقه ملقى أيضًا وميتًا على أحد الكرسيين.

لم يكن هناك فوضى أو أثر لأية مقاومة حول الجثتين. لا بد أن الجنديين قتلا في أثناء نومهما. أما بالنسبة إلى السلاح المستخدم في طعنهما، فقد لاحظه بول على الفور، كان خنجرًا ذا مقبض خشبي حفرت عليه هذه الأحرف الأربعة: «هـ»، «يـ»، «ر»، «مـ».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن

يوميات إليزابيث

لم ينبس بول وإدوارد ببنت شفة ولم تصدر عنهما أية إيماءة جراء تراكم ويلات الحرب، وتكدس الكوارث والنكبات المثيرة للسخط، ومن هول مشهد قتل مزدوج هز وجدانهما، وحل عقب سلسلة من الأحداث المأساوية المترابطة والمتشابكة.

لم يتجل الموت، الذي لفحت أنفاسه مرات عديدة وجهيهما في غمار معاركهما الضارية، مثلما كشف لهما هذه المرة عن وجهه القبيح وبدا أمام أعينهما في هيئته المرعبة والمقيتة.

الموت! أبصراه بأعينهما، ليس كشر مخادع ومستتر يشن هجومه الضاري بشكل عشوائي، ولكن كشبح يتسلل في الظلام، يترصد خصمه، ثم يختار اللحظة المواتية التي فيها يرفع ذراعه عازمًا في قرارة نفسه أن يضرب ضربته القاضية. شبح مرعب يتخذ هيئة الميچور هيرمان متقنعًا بوجهه.

انفتحت شفتا بول أخيرًا، وبدت نبرة صوته مختنقة، ومذعورة، وكأنها تستحضر قوى الظلام الشريرة:

- جاء هنا الليلة الماضية. أتى متسللًا، ولأننا كتبنا اسميْ «برنارد داند□يل»، و«بول ديلروز» على الجدار، استشاط غضبة لرؤية اسمي اثنين من ألد أعدائه، فأغتنم الفرصة وقرر أن يتخلص منهما ظنًا منه بأنهما ينامان في تلك الغرفة.. بيد أنه همَّ بطعن المسكين چيريفلور ورفيقه اللذينِ ماتا عوضًا عنا.

همس بول بعد أن غرق في صمت طويل، قائلًا:

- قتلا مثلما قتل والدي الحبيب.. ومثلما أُعدمت إليزابيث.. والحارس وزوجته أيضًا. طالتهم نفس اليد الغاشمة الآثمة.. نفس اليد، هل تنصت لي جيدًا يا برنارد! نعم، هذا أمر لا يغتفر وغير مقبول، أليس كذلك؟ يأبى عقلي أن يقبل أو يقتنع بهذا.. إنها نفس اليد التي تمسك دائمًا بالخنجر.. اليد التي سعت جاهدة لاقتراف الجرائم ولا تزال.

تفحص برنارد السلاح بتدقيق، وعندما أبصر الأحرف الأربعة تفوه قائلًا:

- هيرمان، أليس كذلك؟ الميچور هيرمان

أجابه بول بحماسة مؤكدًا:

- بالطبع.. هل هذا هو اسمه الحقيقي، ومن هو في واقع الأمر؟ لا أدري. لكني متيقن بأن الشخص الذي ارتكب هذه الجرائم جميعها هو الذي حفر أيضًا هذه الأحرف الأربعة: «هــ»، «يــ»، «ر»، «مــ».

بعد أن أنذر بول رجال وحدته بالخطر المحدق الذي يحوم حولهم، وبعد أن أخطر الكاهن والطبيب بما حدث، عزم أن يجري مقابلة خاصة مع الكولونيل كيما يبوح له ويخبره بتفاصيل أحداث جوهرية غير معلنة بإمكانها أن تلقي ببعض الضوء على

حادثة إعدام إليزابيث ومقتل الجنديين. بيد أنه تنامى إلى علمه أن الكولونيل يقاتل خارج الحدود برفقة فوجه العسكري، وأنه تم استدعاء السرية العسكرية الثالثة على وجه السرعة، باستثناء الوحدة التي يجب أن تظل رابضة في القصر تحت قيادة الرقيب ديلروز. حينئذ، شرع بول في تفحص المكان وإجراء تحقيق مفصل بصحبة رجاله للتوصل إلى بعض الحقائق المبهمة.

لم ينكشف له شيئًا، كان من المتعذر العثور على أي أثر يكشف كيفية دخول القاتل أولًا إلى أرض الحديقة، ثم تسلله عبر الأنقاض، وأخيرًا صعوده إلى الغرفة. لم يمر أي شخص مدني أمام أنظار الجنود، هل هذا يعني أن مرتكب الجريمة المزدوجة هو جندي ينتمي إلى السرية العسكرية رقم 3؟ لا بالطبع. ومع ذلك، ما الافتراض الآخر الذي يجب الاستناد عليه؟

لم يتمكن بول من إيجاد أي أثر يستدل من خلاله على المكان الذي دُفن فيه جثمان زوجته، وغدا هذا الاختبار المؤلم هو الأكثر قسوة في حياته بأسرها. اصطدم بنفس المعلومة المبهمة التي أخبره بها الجرحى الألمان، وكذلك أيضًا الأسرى. أكدوا جميعهم إعدام رجل وامرأتين، بيد أنهم، في حقيقة الأمر، كانوا قد وصلوا عقب رميهم بالرصاص، وعقب رحيل قوات الاحتلال.

تقدم بول نحو قرية أورنكان، ربما تتكشف له حقائق جديدة، وربما تناهى إلى مسامع السكان الحديث عن سيدة القصر، عن الحياة البائسة التي عاشتها في قصرها، عن تعذيبها، وعن قتلها.

أضحت أورنكان خالية تمامًا من السكان. لا يوجد امرأة ولا شيخ عجوز. لا بد أن العدو أرسل جميع السكان إلى ألمانيا، فهو يسعي جاهدًا، دون أدنى شك، منذ بداية احتلاله إلى طمس الأدلة وإخفاء شواهد أفعاله الشيطانية النكراء. أمضى بول ثلاثة أيام متواصلة في بحثه الدؤوب عديم الجدوى، ومع ذلك صرح لبرنارد:

- لا يمكنهم إخفاء جثمان إليزابيث تمامًا. إذا كنت لم أجد قبرها حتى هذه اللحظة، ألا يمكنني إذن العثور على أي أثر تركته خلفها يبين أنها كانت تقيم هنا؟ لقد عاشت هنا، وعانت أشد معاناة في هذا المكان. أي شيء يذكرني بها سيغدو ذو قيمة ثمينة في عيني! انتهى به المطاف إلى إعادة ترميم الغرفة التي كانت تعيش فيها إليزابيث، وسط الأنقاض، عبر كومة من الأحجار والجص تبقت منها، وكانت مختلطة بحطام غرف المعيشة، في الطابق الأرضي، حيث انهارت أسقف الطابق العلوي عليها. ذات صباح، شرع يتسلل وسط بحر الركام، أسفل كومة من الجدران المتهدمة والأثاث المهشم، وراح يلتقط مرآة صغيرة مكسورة، ثم سكينًا فضي اللون، ثم حافظة مقصات، وأشياء أخرى كثيرة تخص إليزابيث.

ولكن أكثر ما أثار انزعاجه هو العثور على مفكرة ضخمة، علم أن عروسه الشابة دونت فيها، قبل زواجها، نفقاتها، وقائمة مشترياتها، والزيارات التي يتعين عليها القيام بها، كما كانت تدون فيها في بعض الأحيان مذكراتها اليومية، وأحداث حياتها الخاصة.

ومع ذلك، لم يتبق من المفكرة سوى الغلاف الكرتوني الذي يحمل تاريخ عام 1914، والجزء المتعلق بالأشهر السبعة الأولى من العام. لم تُمزّق جميع الأوراق الخاصة بالأشهر الخمسة الماضية، بل انتُزعت واحدة تلو الأخرى من الخيوط التي تربطها بغلاف المفكرة. فكر بول على الفور قائلًا:

- لا بد أن إليزابيث انتزعت هذه الأوراق دون تعجل في وقت لم تشعر فيه بأي انزعاج ولم ينتابها أي قلق، بل تملكتها رغبة عارمة في استخدام هذه الصفحات لتدون فيها مذكراتها اليومية.. لم تبدُ الحياة في عينيها، عقب مغادرتي القصر، سوى مأساة مروعة ومرعبة، ومما لا شك فيه أنها باحت بأسرار قلبها لتلك الصفحات المفقودة التي سُطرت في صفحاتها كآبة قلبها وشكواها المريرة.. وربما تفاصيل ثورتها العارمة ضدي. انتهز بول فرصة غياب برنارد في هذا اليوم، وضاعف جهوده بهدف إيجاد الأوراق المفقودة. أخذ يفتش بتأنٍ وروية أسفل الأحجار، وينقب في جميع الثقوب. هم برفع الرخام المتهشم، والثريات المنبعجة، والبُسُط الممزقة، والعوارض الخشبية المتفحمة التي التهمتها النيران. استمر بضع ساعات في سعيه الجاد دون كلل ولا ملل. راح يوزع الأنقاض إلى عدة قطاعات مختلفة ليستجوبها تباعًا بكل صبر وأناة، بيد أنها لم تبحْ له بشيء وسدت آذانها عن سماع أسئلته.

ذهبت جميع جهوده سدى، خارت قواه وشعر بأن بحثه المستمر سيمنَّى بالفشل الذريع. لا بد أن إليزابيث أولت اهتمامًا بالغًا بتلك الصفحات حتى لا يعثر عليها أحد، أو يتم إتلافها أو إخفاؤها إلى الأبد. إلا إذا...

قال لنفسه: «إلا إذا سرقها أحد الأشخاص. لا شك أن الميجور أبقى إليزابيث تحت المراقبة المستمرة. وفي هذه الحالة، من يدري؟»

تشكل هذا الافتراض تدريجيًا في ذهن بول. بعد أن اكتشف ثياب الفلاحة ووشاح الدانتيل الأسود، أودعهما على سرير الغرفة ذاتها، ولم يعرهما اهتمامًا ملحوظًا، بيد أنه تساءل عما إذا كان الميجور قد أتى معتزمًا استعادة ثيابه في الليلة التي اغتال فيها الجنديين، أو على الأقل استعادة ما تحويه جيوبهم، وهذا لم يستطع فعله، لأن الجندي چيريفلور، الذي كان مستلقيًا فوقهم، أخفاهم تمامًا عن ناظريه.

تذكر بول في هذه اللحظة أنه عندما بسط تنورة السيدة الفلاحة وصدارها على الفراش، تناهى إلى مسمعيه صوت حفيف أوراق منبعث من أحد الجيوب. هل بإمكانه أن يستنتج من هذا أن هذه الأوراق هي يوميات إليزابيث التي شكلت تهديدًا للميجور هيرمان فهم بسرقتها؟

ركض بول لاهثًا نحو الغرفة التي ارتكبت فيها جريمة القتل المزدوجة. أمسك بالثياب وأخذ يفتش فيها، ثم تفوه على الفور وقد غمرت قلبه بهجة عارمة قائلًا: «ها هم! لقد عثرت عليهم!»

تغلفت الأوراق المنتزعة من المفكرة بظرف أصفر كبير، وبدت جميعها منفصلة عن بعضها البعض، مجعدة وممزقة في عدة أماكن. أدرك بول بمجرد إلقاء نظرة

عابرة على الأوراق أنها تتعلق فقط بيوميات شهري أغسطس وسبتمبر، وأنه يوجد القليل من الأوراق المفقودة في تسلسل هذين الشهرين.

أبصر بول الكلمات التي كُتبت بيد إليزابيث.

في بداية الأمر، لم تدون إليزابيث يوميات مفصلة للغاية. فقط بعض ملاحظات بسيطة وكلمات هزيلة تنبعث من قلب ذابل سحقته المرارة وأضنته الكآبة. ملاحظات أدلت بها نهارًا أو ليلًا، وبشكل عشوائي، بالكاد يمكن قراءتها، وتعطي انطباعًا بأنها كُتبت بيد مرتعشة لشخص مزقه الألم، وعيناه مغرورقتان بالدموع.

اضطربت مشاعر بول بقوة وتشوش وجدانه. أخذ يقرأ بمفرده:

الأحد 2 أغسطس

«ما كان يجب أن يبعث لي بهذه الرسالة القاسية. ثم لماذا يقترح عليَّ أن أغادر أورنكان؟ الحرب؟ إذن، هل لأن الحرب وشيكة الوقوع، لا أمتلك الجرأة الكافية للبقاء هنا بمفردي وإتمام واجبي على الوجه الأكمل؟ إنه لا يعرفني حق المعرفة! لذا، هل يعتقد أنني جبانة وحقيرة أو أن الشك في أمي المسكينة سيتسرب ببساطة إلى أعماقي؟ بول، عزيزي بول، ما كان يجب أن تتركني وحيدة»

الاثنين 3 أغسطس

«منذ أن غادر جميع الخدام، ضاعف چيروم وروزالي من اهتمامهما البالغ بي. توسلت إليّ روزالي بأن أرحل أيضًا، عندئذ قلت لها: «وأنت يا روزالي، هل ستغادرين؟»، فأجابتني: «أوه! نحن أناس بسطاء ليس لدينا ما نخشاه، ثم أنه كُتب علينا أن نبقى هنا متشبثين بأرضنا حتى يلتهم الزمان عمرنا». أخبرتها بأنني أود البقاء هنا أيضًا رابضة في مكاني. لاحظت أنها لا تستطيع فهم ما أقوله، عندما التقيت بچيروم، أومأ برأسه ونظر إليَّ بعينين ملأهما الحزن».

الثلاثاء 4 أغسطس

«واجبي؟ نعم، هذا أمر لا يقبل الجدل. أفضل الموت على أن أتخلى عنه. ولكن كيف يمكنني الوفاء بالعهد وأداء واجبي؟ كيف أصل إلى الحقيقة؟ تتملكني شجاعة لا تضاهى، بيد أن عينيّ لم تكفّا عن ذرف الدموع، كما لو أنني لم أبذل كل ما في وسعي وأقف مكتوفة اليدين. دائمًا ما تراود صورة بول مخيلتي، أين هو الآن؟ ماذا حدث له؟ عندما أخبرني چيروم هذا الصباح بأن طبول الحرب قُرعت، ظننت أنني فقدت وعيي. سيذهب بول إلى أرض المعركة، ربما يصيبه مكروه! يُقتل! آه! يا إلهي! أليس من الواجب أن أبحث عن مكان في بلدة قريبة من ساحة القتال لأبقى بجواره؟ ما الطائل من بقائي هنا؟ نعم، واجبي، أعلم ذلك جيدًا.. أمي. آه! ألتمس منك العفو يا أمي. لكن انظري مقدار حبي له، أخشى أن يصيبه أذى»

الخميس 6 أغسطس

«دائمًا ما تنسكب الدموع بغزارة من عيني، حتى أنني أسبح شيئًا فشيئًا في لجة من التعاسة والشقاء. ينتابني شعور ملح بعدم الاستسلام ومواصلة مسيرتي، حتى لو

أصابني ضعف أضعاف وجعي. فضلًا عن ذلك، هل بإمكاني أن ألحق به وألتقيه مجددًا بينما هو لم يعد يريدني ولم يعد يكتب لي؟ ماذا عن حبه لي؟ أعلم أنه يبغضني! أنا ابنة السيدة التي يضمر لها الضغائن في قلبه. آه! يا له من أمر مثير للفزع! هل هذا ممكن؟ ولكن إن لم يغير بول وجهة نظره في أمي، وإن لم أنجح في تحقيق مأربي، فلن نتمكن من رؤية بعضنا البعض مرة أخرى؟ هل هذه هي الحياة التي تنتظرني؟»

الجمعة 7 أغسطس

«وجهت أسئلة كثيرة إلى چيروم وروزالي بشأن والدتي. لقد عرفوها فقط لبضعة أسابيع، لكنهم يتذكرونها جيدًا، وكل شيء أخبراني به عنها أبهج قلبي وغمرني بالسعادة! يبدو أنها كانت لطيفة وجميلة وودودة للغاية! الجميع كانوا يحبونها. أخبرتني روزالي بأنها: «لم تكن مبتهجة دائمًا. هل ذاك جراء الألم الجسدي الذي أضنى فؤادها، لا أدري، بيد أنه عندما ترتسم الابتسامة على ثغرها، تهتز القلوب طربًا».

«أمي العزيزة المسكينة!»

السبت 8 أغسطس

«تناهى إلى مسامعنا هذا الصباح صوت إطلاق نيران مدفع بعيد للغاية. اشتعل القتال على بعد عشرة فراسخ من هنا. يتوافد، في بعض الأحيان، عدد من الجنود الفرنسيين. أبصرتهم عدة مرات من شرفة القصر يمرون عبر وادي ليزرون. سيقيم هؤلاء في القصر. قدم قائدهم خالص اعتذاره لي، وخوفًا من أن يكون سببًا في تكدير صفو حياتي، أقام بصحبة مساعديه في المنزل الذي يمتلكه چيروم وروزالي».

الأحد 9 أغسطس

«لم تصلني أية أخبار عن بول، وأنا أيضًا لم أجرؤ على الكتابة إليه. لا أود أن أحدثه عن نفسي وأبعث إليه بآخر أخباري دون الحصول على جميع الأدلة الممكنة. ولكن ماذا يتعين عليّ فعله؟ وكيف أحصل على أدلة تتعلق بأحداث مر عليها ستة عشر عامًا؟ بحثت كثيرًا، وتفحصت، وفكرت مليًا. لم أعثر على شيء»

الاثنين 10 أغسطس

«لم يتوقف دوي قذائف المدفع الذي يطلق نيرانه على مسافة بعيدة. أخبرني القائد بأنه لا يوجد أي تحرك ينذر بهجوم مرتقب للعدو من هذا الجانب».

الثلاثاء 11 أغسطس

«في فترة ما بعد الظهيرة، طُعن جندي حتى الموت في أثناء نوبة حراسة في الغابة، بالقرب من البوابة الصغيرة التي تنفتح على الريف. من المفترض أنه أعاق مرور شخص حاول مغادرة الحديقة. ولكن كيف تمكن هذا الشخص من الدخول؟

الأربعاء 12 أغسطس

«ما الذي حدث؟ وقع أمر غامض يتعذر تفسيره أثار دهشتي. إلى جانب ذلك، توالت أحداث أخرى محيرة ومبهمة بنفس القدر. تتملكني دهشة بالغة كلما أتقابل مع القائد والجنود الذين يبدون غير مكترثين إلى حد كبير ويتمازحون دائمًا فيما بينهم. ينتابني ذاك الشعور الذي يصيب المرء بالاضطراب والقلق عندما تقترب منه الأعاصير والزوابع. «لذا هذا الصباح...»

توقف بول بغتةً عن القراءة، وانتابه الذهول من هول رؤية الجزء السلفي من الصفحة -والذي يكتمل من خلاله معنى الأسطر القليلة المبهمة أعلاه- والصفحة التالية ممزقة بالكامل. هل نستنتج من ذلك أن الميجور، بعد أن سرق مذكرات إليزابيث، انتزع منها لأسباب قد تبدو مجهولة الصفحات التي وضعت فيها الفتاة الشابة تفسيرًا للأحداث التي تزعجها؟

استأنف بول قراءة اليوميات:

الجمعة 14 أغسطس.

لا يسعني سوى أن أضع كامل ثقتي بالقائد. توجهت بصحبته إلى الشجرة الميتة المحاطة بنباتات اللبلاب، ثم توسلت إليه أن يتمدد على الأرض وينصت جيدًا. أولى الكثير من الاهتمام إلى إلحاحي متحليًا بالصبر ومتفحصًا باهتمام زائد هذه المسألة غير المألوفة. بيد أنه لم يسمع شيئًا، وعندما شرعت بدوري، في الواقع، لأجتاز هذا الاختبار، كان لزامًا عليَّ أن أعترف بأنه لديه كل الحق.

- كل شيء طبيعي للغاية يا سيدتي كما ترين.

- أقسم لك أيها القائد أنه تصاعد من هذه الشجرة، قبل البارحة، ومن هذا المكان تحديدًا، ضجيج مبهم. استمرت الضوضاء عدة دقائق.

أجابني القائد بابتسامة عريضة: «لا، سيكون من السهل قطع هذه الشجرة. لكن، ألا تعتقدين يا سيدتي أنه في حالة التوتر العصبي التي أصابتنا جميعًا، قد نكون عرضة لخداع الحواس، أو لأشكال متنوعة من الهذيان والهلوسة؟ لأنه في الحقيقة من أين تنبعث هذه الضوضاء؟»

«نعم، لديه حق. لكنني، بالرغم من ذلك، سمعت.. ورأيت..».

السبت 15 أغسطس

أُلقي القبض، مساء أمس، على جنديين ألمانيين كانا مختبئين في مَغْسَل الثياب الملاصق للمباني الملحقة.

في هذا الصباح، لم يُعثر سوى على زيهم العسكري الألماني داخل مغسل الثياب.

افترض الجميع أنهما حطّما البوابة، بيد أن تحقيقات القائد أثبتت أنهما لاذا بالفرار بعد أن ارتديا الزي العسكري الفرنسي، ومرا من أمام أعين جنود الحراسة، ادّعيا أنهما كُلفا بتنفيذ مهمة في كور□ يني.

من الذي زودهما بهذين الزيين العسكريين؟ علاوة على ذلك، كان لزامًا عليهما أن يكونا على دراية بكلمة السر.. من الذي كشف لهما كلمة السر؟

اتجهت الشبهات صوب امرأة فلاحة ترددت لعدة أيام متتالية على المكان لتجلب البيض والحليب، سيدة ترتدي زيًا فلاحيًا، يبدو أنيقًا ومنسقًا للغاية، لكن لم يرها أحد اليوم.. ولا يوجد دليل واحد يثبت تواطؤها».

الأحد 16 أغسطس

حثني القائد على مغادرة القصر. لم يعد يبتسم بعد الآن، وبدت على وجهه ملامح القلق والذعر الشديدين، أخبرني قائلًا:

- نحن محاطون بالجواسيس. بالإضافة إلى ذلك، توجد عدة مؤشرات تدفعنا إلى الاعتقاد أننا سنُعرّض لهجوم مباغت في وقت قريب. ليس هجومًا ضخمًا يهدف إلى اقتحام مدينة كور□ يني، ولكن هجوم عسكري مفاجئ على قصر أورنكان. يحتم عليّ واجبي أن أحذرك يا سيدتي، قد نضطر إلى التراجع في أية لحظة نحو كور□ يني، وأعتقد أنه ليس من الحكمة أن تبقي هنا في القصر.

أخبرت القائد أنه لا شيء بإمكانه أن يثنيني عن قراري.

توسل إليَّ أيضًا چيروم وروزالي. وما الجدوى من ذلك؟ لن أغادر مطلقًا.

توقف بول عن القراءة مرة أخرى. لاحظ أيضًا أن هناك صفحة ممزقة بالكامل في هذا المكان من المفكرة، لكن الصفحة التالية التي تحمل تاريخ 18 أغسطس، مُزّقت بدايتها ونهايتها، ولم يتبقَّ منها سوى جزء صغير من يوميات إليزابيث التي كُتبت في هذا التاريخ:

... ولهذا السبب لم أذكر شيئًا في الرسالة التي أرسلتها توًا إلى بول. سيعلم أنني سأمكث في قصر أورنكان، وسيدرك دوافع قراري، هذا كل شيء.

آه! يبدو أن القائد مضطرب كثيرًا؛ فقد ضاعف دورياته الاستكشافية، أشهر الجنود أسلحتهم وتعالت صيحات الرغبة في القتال. يتمركز العدو في إبريكورت كما يقولون، ماذا يهمني؟ هناك فكرة واحدة بالغة الأهمية هي التي تشغل بالي وتقض مضجعي! هل وجدت نقطة بدايتها؟ هل أسير على الدرب الصحيح؟

دعونا نرى، ودعونا نفكر.

تمزقت الصفحة عقب هذه الكلمات، عندما كانت إليزابيث ستبدأ بعرض تفسيراتها الدقيقة. هل الميجور هيرمان هو الذي مزق باقي الصفحة؟ إنه هو دون أدنى شك، ولكن ما الذي دفعه لفعل ذلك؟

وجد بول أن النصف الأول من صفحة الأربعاء 19 أغسطس قد مُزّق بالكامل. إنه اليوم الذي يسبق اقتحام الألمان لأورنكان، وكور□ يني، والمنطقة بأسرها. ما الكلمات التي سطرتها الفتاة الشابة بيدها بعد ظهر الأربعاء؟ ماذا اكتشفت؟

اجتاح الخوف قلب بول، وتذكر أنه في الساعة الثانية من صباح يوم الخميس، دوى صوت زمجرة أول قذيفة مدفعية في سماء كور□ يني، اتجهت أنظاره بقلب منقبض ومرتجف نحو الجزء الثاني من الورقة ليقرأ ما دونته زوجته:

الساعة الحادية عشرة ليلًا

نهضت عن فراشي وفتحت نافذتي. تعالى صوت نباح الكلاب في أرجاء شتى، يجيبون بعضهم البعض، ثم يتوقفون عن النباح، يبدو أنهم ينصتون إلى شيء ما، يبدؤون مرة أخرى بالنباح كما لو أنني لم أسمعهم من قبل. عندما تنخرس أفواههم، يغرق المكان في صمت مريع، حينئذ أنصت بدوري كيما تلتقط أذني صوت الضجيج المبهم الذي يبقيهم مستيقظين.

يبدو لي أن هناك ضجيجًا غير متجانس يتناهى إلى مسامعي، صوت مغاير تمامًا لحفيف أوراق الأشجار، صوت ليس له أية علاقة بتلك الأصوات التي تحرك في العادة سكون الليل المطلق. لا أدري من أين ينبعث هذا الصوت، وتملكني انطباع قوي جدًا ومحير للغاية في آن واحد، حتى أنني تساءلت في تلك اللحظة، هل أنا منصتة إلى سماع دقات قلبي، أم أنني أخمن صوت جيش زاحف بكامل عدته؟

سحقًا! لقد أصابني مس من الجنون. جيش يزحف بكامل عدته! وماذا عن دوريات الاستطلاع، والخطوط الأمامية للجيش الرابضة على الحدود؟ وماذا عن جنود الحراسة حول القصر؟ هناك معركة فعلية، تبادل لإطلاق النيران.

الساعة الواحدة صباحًا

تسمرت قدماي أمام غرفة النافذة. لم تتوقف الكلاب عن نباحها. يغط جميع البشر في نوم عميق. وها أنا قد أبصرت شخصًا ينسل وسط الأشجار، ثم يجتاز وسط المروج الخضراء. اعتقدت في البداية أنه أحد جنودنا، ولكن عندما مر ظله أسفل نافذتي، كان هناك ما يكفي من ضوء القمر المنساب عبر السحب، والذي جعلني أدرك أنه ظل لامرأة. اعتقدت في البداية أنها روزالي، ولكن لا، فالظل الذي أبصرته يعود إلى سيدة فارعة الطول، تسير بخطىً رشيقة ومتسارعة.

كنت على وشك إيقاظ چيروم وإطلاق جرس الإنذار. لكنني لم أقدم على فعل ذلك. تلاشى الظل من جانب شرفة القصر. وفجأة، دوى صوت صياح غير مألوف لأذني ينطلق من أحد الطيور.. ثم شع وميض باهر في السماء.

خمد كل شيء، وعاد الصمت المطلق يخيم مرة أخرى على الأجواء التي غرقت في سكون تام. وبالرغم من ذلك، لم أجرؤ منذ تلك اللحظة على النوم. تملكني خوف مريب، ولا أدري ما السبب وراء ذلك. يلوح الخطر في أركان الأفق شتى، يتقدم نحوي، يحاصرني، يحتجزني، يخنقني، يسحقني. أعجز عن التنفس. أشعر بالخوف.. أشعر بالخوف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع

نجل الإمبراطور

طوى بول بين يديه المتشنجتين يوميات إليزابيث الموجعة للقلب والمثيرة للشفقة، والتي باحت عبرها بهمومها المتثاقلة، وكدر عيشها.

فكر بول: «يا لها من مسكينة بائسة، كم عانت الكثير والكثير! ولم يكن كل هذا سوى بدايةِ طريقٍ وَعِرٍ سلكته بمفردها وأودى بحياتها.

خشي بول الإبحار في صفحات المفكرة أكثر من ذلك. اقتربت ساعات التعذيب من إليزابيث، ساعات التهديد والوعيد القاسية، كان يود أن يصرخ إليها قائلًا: «ارحلي بعيدًا! لا تواجهي قدرك المحتوم! فلتنسي الماضي. أحبك»

تأخر الوقت جدًا! هو الذي قادها، بقسوته المفرطة، نحو محنتها وآلامها الموجعة، وكان لزامًا عليه أن يشهد حتى النهاية جميع مراحل اقتيادها نحو الجلجثة ([2]) والتي انتهت بمشهد الموت المأساوي.

راح يقلب فجأة صفحات المفكرة.

بدت أمام ناظريه ثلاث صفحات فارغة، تلك الصفحات التي تحمل تواريخ 20، 21، 22 أغسطس.. الأيام التي سادتها الاضطرابات المفزعة والأحداث المرعبة، حيث لم تتمكن إليزابيث من الكتابة.. الصفحتان اللتان تحملان تاريخي 23، 24 مفقودتان. لا شك أنهما كانتا تلقيان بالضوء على أحداث جوهرية وتكشفان تفاصيل الغزو المتعذر تفسيره.

تُستأْنَفُ اليوميات بدءًا من منتصف ورقة ممزقة تحمل تاريخ الثلاثاء 24.

«.. نعم يا روزالي، أشعر أنني بخير وفي أفضل حال، وأعبر لك عن خالص شكري من أجل اعتنائك بي ورعايتك الخاصة لي».

- إذن، لن تعاودك نوبة الحمى؟

- لا، روزالي، لقد انتهى الأمر.

- تفوهت سيدتي البارحة بنفس هذه الكلمات، وعاودتها الحمى من جديد.. ربما بسبب الزيارة المرتقبة.. بيد أن الزيارة لن تكون اليوم.. غدًا في واقع الأمر.. تلقيت أمرًا بإخطار سيدتي.. ستكون غدًا عندما تدق الساعة الخامسة.

- لم أنبس ببنت شفة. ما الجدوى من الثورة والتمرد؟ لا شيء من الكلمات المخزية والمهينة التي تنهال عليَّ من كل صوب يلحق بي الأذى أكثر مما وقعت عليه عيناي: الخيول المربوطة بالأوتاد التي اجتاحت الحديقة، الشاحنات وعربات الذخيرة في الممرات، أنصاف الأشجار المقطعة، الضباط المستلقون على العشب الذين يحتسون الخمر وينشدون الأغاني الوطنية، والعلم الألماني المعلق في شرفة نافذتي يرفرف أمام ناظري. آه! يا للخسة والدناءة!

أغلق عيني كي لا أبصر شيئًا. يراود ذهني أمر أكثر بشاعة ورعبًا.. آه! تذكري تلك الليلة.. عندما طرقت باكورة أضواء الصباح مصاريع نوافذ غرفتي، وأفزعتني رؤية الكم الهائل من الجثث.. لا يزال يوجد أيضًا بعض الأشخاص التعساء الذين بقوا على قيد الحياة ومن حولهم تتراقص الوحوش الضارية. تناهى إلى مسامعي صوت صيحات من يلفظون أنفاسهم الأخيرة ويتوسلون إليهم كيما يعجلون بموتهم وينهون احتضارهم.

ثم بعد ذلك.. بعد ذلك.. لا أود التفكير في الأمر مرةً أخرى، لن ينشغل ذهني في أي شيء من شأنه أن يثبط من عزيمتي، ويبدد شجاعتي، ويحطم آمالي.

بول، لطالما انشغل كل تفكيري بك وأنا أدون يومياتي. صوت ما يهمس في أذني ويخبرني بأنك سوف تقرؤها إن أصابني سوء؛ لذا يتوجب عليَّ أن أسعى جاهدة وباذلة قصارى جهدي كي أطلعك كل يوم على مستجدات الأمور. ربما بإمكانك أن تدرك، عبر ما أسرده لك، فحوى ما يبدو بالنسبة إليّ مبهمًا وعسر الفهم. تُرى ما العلاقة بين الماضي والحاضر، بين الجريمة السابقة وهجوم الليلة الماضية الغامض المتعذر تفسيره؟ لا أدري. أوضحت لك تفاصيل الأحداث، كما عرضت أيضًا افتراضاتي. عليك أن تستنتج، وتكشف الحقائق المستترة.

الأربعاء 26 أغسطس

عمت الفوضى والجلبة أرجاء القصر. هناك حركة متواصلة لا تهدأ ولا تنقطع في جميع جنباته، ولا سيما في غرف المعيشة أسفل غرفتي. وصلت إلى الحديقة، منذ ساعة تقريبًا، نصف دزينة من الشاحنات والعديد من السيارات الخاصة. تبدو الشاحنات فارغة. ترجلت سيدتان أو ثلاث عن كل سيارة ليموزين، نساء ألمانيات يلوحن بأياديهن ويطلقن قهقهات عالية. هرع الضباط للقائهن، يغمرهم سيل جارف من البهجة. ثم توجهوا جميعًا إلى القصر. ماذا ينوون أن يفعلوا؟

يبدو أن شخصًا ما يسير في الردهة. بعد مرور خمس ساعات.. طرق شخص ما باب غرفتي..

ولج باب غرفتي خمسة أشخاص، الذي طرق الباب أولًا، ثم أربعة ضباط صاغرون ينحنون أمامه.

قال لهم بالفرنسية بنبرة جافةٍ متعاليةٍ:

- كما ترون أيها السادة، كل شيء في هذه الغرفة وفي الشقة المخصصة للسيدة، آمركم ألا تمتد إليه أيدي أحد. أما بالنسبة إلى باقي القصر، باستثناء غرفتي المعيشة الكبيرتين، فأمنحكم إياه. احتفظوا بما تحتاجون إليه وخذوا ما تريدونه. إنها الحرب، هذا هو قانون الحرب.

بأي نبرة من القناعة الزائفة الحمقاء تفوه هذا الشخص بتلك الهراءات: «هذا هو قانون الحرب!»، ثم راح يكرر:

- أما بالنسبة إلى شقة السيدة، كما قلت آنفا، يجب ألا يتحرك فيها أي أثاث من مكانه. أعرف جيدًا ألا أتجاوز حدود اللياقة.

راح يتفرس في وجهي وكأنه يريد أن يقول لي:

- حسنًا! انظري كم أنا شخص شهم ونبيل! بإمكاني أن أستولي على كل شيء. لكنني ألماني الجنسية، وعلى هذا الأساس، أتصرف بلياقة.

راح ينتظر كلمة شكر، فقلت له: «هل بدأت أعمال السلب والنهب؟ هذا يوضح الهدف من وصول الشاحنات».

أجابني قائلًا: «نحن لا ننهب الأشياء التي تخصك بموجب قانون الحرب»

- آه! وهل قانون الحرب لا يسري على الأثاث والأعمال الفنية الموجودة في غرفة المعيشة؟

احمر وجهه خجلًا، فانفجرت عندئذ بالضحك.

- أتفهم ذلك، هذه الشقة فقط هي التي تخصك. أحسنتِ الاختيار. لن نأخذ سوى الأشياء الثمينة عالية القيمة، أما النفاية سيتقاسمها ويتشاركها خدامك.

التفت الضباط إلى الوراء وقد جن جنونهم، فازداد احمرار وجهه خجلًا. لديه وجه مستدير للغاية، وشعر دهني يصطبغ بالشقرة مفروق عند منتصفه، ذو جبهة منخفضة، يمكنني أن أخمن الجهد الذي يبذله عقله خلفها كي يعثر على جواب سريع لاذع وانتقامي. اقترب مني، في نهاية المطاف، وقال لي بنبرة ملؤها الانتصار:

- تعرض الفرنسيون للهزيمة في «شارلروا»، وفي «مورهانج»، وفي كل مكان. يتراجعون على طول الشريط الحدودي. قُضي الأمر بشأن هذه الحرب.

وبالرغم من الألم الذي يعتصر قلبي ويسحق روحي، لم يتحرك لي ساكن، لم أرتبك البتة. نظرت إليه بتحدٍ سافرٍ وتمتمت قائلة: «يا لك من وغد!»

اهتز في مكانه. تناهى إلى مسامع رفقائه ما نطقت به، ورأيت أحدهم يضع يده على قبضة خنجره. ولكن ماذا سيفعل؟ ماذا سيقول؟ شعرت أنه ارتبك لأقصى حد، وأن هيبته اهتزت. سألني قائلًا: «سيدتي، أنت لا تعلمين، دون أدنى شك، من هو الشخص الواقف أمامك؟»

- بلى يا سيدي، أعرفك جيدًا، أنت الأمير، أحد أبناء القيصر، وماذا بعد ذلك؟

خُدشت كرامته مرة أخرى. انتفخ خيلاءَ وكبرًا، انتظرت منه أن يوجه لي رسالة تهديد ووعيد أو يعبر عن استشاطة غضبه، ولكن لا، أجابني بموجة من الضحك انتابته بغتة، موجة مصطنعة من الضحك تصدر عن سيد عظيم غير مكترث، يترفع عن رد الإساءة، ذكي للغاية لدرجة تثير سخط من يقف أمامه.

- انظروا إلى تلك الفتاة الفرنسية الشابة! إنها ساحرة، وبديعة، تسلب الألباب أيها السادة! هل أنصتم إليها؟ يا للوقاحة! تجسد المرأة الباريسية، أيها السادة، بكل أناقتها

وبكامل خبثها وكياستها.

حياني مودعًا بإيماءة مطولة، دون أن ينبس ببنت شفة، ثم انصرف مازحًا: «يا لها من فرنسية شابة! آه، هؤلاء هن الفرنسيات الصغيرات أيها السادة!

الخميس 27 أغسطس

يُنقل الأثاث طوال النهار. تسير الشاحنات متجهةً نحو الحدود محملة بما نُهب وسُلب، هدايا حفل زفافي التي منحني إياها والدي المسكين، كل مجموعة اللوحات التي حصل عليها بشق الأنفس، التحف الثمينة التي جُلبت لتزيين المكان الذي يجب أن نعيش فيه أنا وبول. يا لها من فاجعة!

الأخبار التي تنامت إلى علمي بشأن الحرب سيئة ومحزنة. بكيت واغرورقت عيناي بالدموع.

أتى الأمير كونراد إلى القصر. كان يجب عليَّ أن أكون في استقباله، ذاك لأن روزالي نبهتني إلى ضرورة الترحيب بزيارته، وإلا سيُعرّض جميع سكان أورنكان لعواقب وخيمة!

اختتمت إليزابيث يومها بتدوين هذه الكلمات، ثم استأنفت الكتابة مرة أخرى بعد يومين بتاريخ 29 أغسطس:

- جاء الأمير كونراد أمس إلى القصر، واليوم أيضًا. بذل كل ما في وسعه كي يبدو أمامي شخصًا مرهف الإحساس وواسع المعرفة والاطلاع. راح يتحدث عن الأدب والموسيقى، عن «جوته»، و«فاغنر». في واقع الأمر، كان حديثه أحادي الجانب، وكأنه يتحدث إلى نفسه، فانتابته حالة من الغضب الشديد، انتهت بصيحة عالية:

- إذن، لماذا لا تجيبينني! ماذا، إنه ليس أمرًا مخزيًا أن تتجاذب امرأة، حتى لو كانت فرنسية، أطراف الحديث مع الأمير!

- لا يوجد امرأة تتجاذب أطراف الحديث مع سجانها.

اعترض بشدة: «لكنك لست سجينة، اللعنة!»

- إذن، أيمكنني الخروج من هذا القصر؟

- بإمكانك التنزه في حديقة القصر.

- وما الفارق، بين أربعة جدران مثل سجينة؟

- وماذا بعد؟ ماذا تريدين؟

- أريد أن أخرج من هنا، وأن أستمتع بحياتي. في المكان الذي تحدده أنت، في كور□ يني، على سبيل المثال.

- هذا يعني أنك ستكونين بعيدة عني!

ولأنني التزمت الصمت المطلق، انحنى قليلًا نحوي وهمس في أذني بصوت خفيض:

- أنتِ تكرهينني، أليس كذلك؟ أوه! لست أجهل ذلك، اعتدت على النساء. أنتِ تبغضين الأمير كونراد، أليس كذلك؟ إنه الأمير الألماني.. المنتصر.. ولا يوجد سبب واحد، بعد كل ما حدث، يجعلك تبغضين الشخص الواقف أمامك، وترينه شخصًا فظًا وسمجًا.. الشخص الذي يسعى، في تلك اللحظة، إلى إرضائك ونيل إعجابك.. هل تفهمين؟ لذا..

وقفت قبالته بثبات، ولم أنطق بكلمة واحدة، لكنه أبصر، دون شك، نظرات عيني التي تنم عن مدى اشمئزازي ونفوري، حتى أنه توقف في منتصف جملته، وبدا وكأنه مصاب بالبلاهة. ثم بعد أن استعاد رباطة جأشه، رفع قبضة يده بفظاظة في وجهي، وغادر صافعًا الباب، مغمغمًا بكلمات التهديد والوعيد.

هناك أيضًا صفحتان مفقودتان من اليوميات. امتقع وجه بول بدماء الغضب. تفاقمت معاناته، وبدا له أن عزيزته المسكينة إليزابيث لا تزال على قيد الحياة، وأنها ما زالت تقاوم بشراسة على مرأى من ناظريه، وتشعر بأنه يراقبها. لم يزعجه ويؤرقه ويقض مضجعه شيء في هذا الوجود أكثر من صرخة الاستغاثة ونداء الحب اللذين شعر بهما عبر ما كتبته إليزابيث في يوميات الأول من سبتمبر.

بول، عزيزي بول، لا تخشَ شيئًا. نعم، مزقت هاتين الصفحتين لأنني لم أكن أريدك أن تقرأ مثل هذه الأمور الشائنة التي حدثت معي. ليس لأن شخصًا همجيًا متوحشًا أجاز لنفسه أن يذلني ويهينني، فهذا يعني أنني أضحيت غير جديرة بحبك، أليس كذلك؟ أوه! كل ما قاله لي يا بول.. بالأمس أيضًا.. من شتائم مقذعة، وتهديدات بشعة، ووعود دنيئة.. لا أود أن أكرره ثانية. فكرت أن أبوح لك بأفكاري وأسرد لك أفعالي عبر هذه اليوميات التي أثق بأنها ستفي بالغرض المنشود. اغفر لي استسلامي للصمت. يكفي ما قلته كي تدرك حجم الإهانة التي لحقت بي وتنتقم لي لاحقًا. لا تطلب مني شرح المزيد..

في الواقع، خلال الأيام التالية، لم تعد إليزابيث تروي تفاصيل زيارات الأمير كونراد اليومية، بيد أنه يمكن للمرء أن يستشعر، عبر سردها للأحداث، وجود العدو العنيد الذي يحوم حولها! لم تكن يومياتها التالية سوى ملاحظات مختصرة، لم تجرؤ أن تسترسل في شرحها، كما أنها انتقت بشكل عشوائي بعض الصفحات، وحددت الأيام دون أن تنتبه إلى التواريخ.

واصل بول القراءة مرتجفًا، وتفاقم شعوره بالهلع عندما كُشفت له أمورًا جديدة لم تكن في الحسبان.

الخميس.

تطرح روزالي على الأعداء بعض الأسئلة كل صباح. لا يزال تقهقر القوات الفرنسية مستمرًا. يبدو أن ما يحدث هو بالطبع هزيمة نكراء، وأن باريس أضحت مهجورة من السكان. تورات الحكومة ثم لاذت بالفرار. نحن تائهون.

الساعة السابعة مساءً.

يتمشى كعادته أسفل نوافذ غرفتي، وترافقه امرأة، رأيتها آنفًا عدة مرات من بعيد، ترتدي عباءة فضفاضة ووشاحًا من الدانتيل يخفي ملامح وجهها. لكنه في معظم الأحيان، يتجول في الحديقة بصحبة أحد الضباط، يلقب بالميجور. هذا الشخص أيضًا يخبئ وجهه خلف ياقة معطفه الرمادي المرتفعة.

الجمعة.

يرقص الجنود على العشب، تُعزف موسيقى الأناشيد الوطنية الألمانية ممتزجةً بقرع أجراس أورنكان.. يحتفلون بدخول قواتهم إلى باريس. كيف أشك في صحة هذا الأمر؟ واحسرتاه! بهجتهم العارمة هي الدليل الدامغ على حقيقة ما يحدث.

السبت.

يوجد بين شقتي وغرفة المعيشة التي تحوي صورة والدتي غرفة أخرى كانت تعيش فيها أمي الغالية. يقيم الميجور في هذه الغرفة منذ بضعة أيام، إنه الصديق المقرب للأمير، وشخصية ذات شأن عظيم- كما يُشاع- معروف فقط لدى الجنود باسم الميجور هيرمان. لا يقف منحنيًا أو صاغرًا أمام الأمير مثل بقية الضباط الآخرين، بل على النقيض من ذلك، يخاطبه بألفة وحميمية.

في تلك اللحظة، يسيران في الممر جنبًا إلى جنب. يتكئ الأمير على ذراع الميجور هيرمان. أعتقد أنهما يتحدثان بشأني. تعارضت آراؤهما. يبدو لي أيضًا أن الميجور هيرمان يستشيط غضبًا.

الساعة العاشرة صباحًا

لم أكن مخطئةً فيما ظننته، أخبرتني روزالي بأنه اندلع شجار عنيف بينهما.

الثلاثاء 8 سبتمبر

هناك بعض التصرفات المريبة وغير المألوفة تصدر من الجميع. لاحظت بوضوح أن الأمير والميجور وبقية الضباط يغضبون لأتفه الأمور. لم يعد الجنود يغنون أو يرقصون. يتناهى إلى مسامعي ضجيج المشاجرات والخلافات. هل سيبتسم الحظ لنا؟

الخميس

تزايدت وتيرة الاضطرابات. يبدو لي أنهم يستقبلون الرسائل طوال الوقت. أعاد الضباط بعض أمتعتهم إلى ألمانيا. ما زلت أتشبث بالأمل، بيد أنني من ناحية أخرى..

آه! عزيزي بول! لو كنت تعلم مقدار الألم والعذاب اللذين يسحقان وجداني جراء زيارات الأمير! لم يعد نفس الشخص متصنع الود واللطف الذي رأيته في أول لقاء. أزال القناع وكشف عن وجهه الحقيقي القبيح. ولكن لا، لا، لا يجب عليّ التزام الصمت حيال ذلك..

الجمعة.

تم إجلاء جميع سكان القرية ونقلهم إلى ألمانيا. إنهم لا يرغبون في بقاء شاهد واحد على دراية بما حدث في أثناء تلك الليلة المفزعة التي سردت لك بعض تفاصيلها.

الأحد مساءً.

هزيمة العدو النكراء والتقهقر بالقرب من باريس. أخبرني الأمير بذلك، وهو يصر أسنانه غضبًا، وراح يسبني بأقذع الألفاظ مهددًا ومتوعدًا. أنا الرهينة التي سيصب عليها جام انتقامه.

الثلاثاء.

بول، إذا التقيته يومًا ما في أرض المعركة، اذبحه ككلب ضال. ولكن هل مثل هؤلاء الناس ينالون شرف القتال؟! آه! لم أعد أدرك ما أتفوه به.. أكاد أفقد عقلي.. لماذا بقيت هنا وحيدة في القصر؟ كان يجب عليك أن تصطحبني عنوة يا بول.

بول، هل بإمكانك تخيل الفعلة الشنيعة التي أقدم عليها هذا الملعون؟ آه! يا له من جبان حقير! أبقى اثني عشر شخصًا من سكان أورنكان، باعتبارهم رهائن، وحمّلني أنا مسؤولية بقائهم على قيد الحياة. سيعيشون أو سيعدمون بالرصاص واحدًا تلو الآخر، بناء على ما يبدر مني من تصرفات تجاهه.. هل تصدق مثل هذا العمل الشائن؟ هل يسعى لبث الرعب في قلبي؟ آه! يا لخزي تهديداته الحقيرة! ما هذا بحق الجحيم! أفضل أن أرتمي في قبضة الموت.

الساعة التاسعة مساءً

... الموت؟ ولكن لا، لماذا يجب أن أموت؟ أتت روزالي. أبرم زوجها اتفاقًا مع أحد الجنود المكلفين بنوبة حراسة هذه الليلة عند بوابة الحديقة. ستوقظني روزالي في الثالثة صباحًا، وسنفر هاربين حتى نصل إلى الغابة، سيصطحبنا چيروم إلى مكان آمن يتعذر الوصول إليه.. يا إلهي، ماذا لو كللت خطتنا بالنجاح!

الساعة الحادية عشرة مساءً

ماذا حدث؟ لماذا استيقظت فزعة من نومي؟ المصائب التي لحقت بي لم تكن سوى كابوس مزعج، أنا واثقة من ذلك.. ومع ذلك، يرتعش جسدي من الحمى، بالكاد أتمكن من الكتابة.. وماذا عن كوب الماء هذا على طاولتي؟ لماذا لا أجرؤ على تجرع رشفة من الماء، كما اعتدت أن أفعل عندما ينتابني الأرق؟

آه! يا له من كابوس مروع! كيف أتمكن من نسيان ما رأيته في أثناء استغراقي في النوم؟ عندما خلدت إلى النوم، أنا واثقة من ذلك، وذهبت إلى فراشي لأنال قسطًا من الراحة قبل أن ألوذ بالفرار، رأيت في حُلمي شبح امرأة! شبح؟ ولكن، هل هناك شبح امرأة يستطيع اجتياز الأبواب المغلقة، وهل ينبعث صوت خافت للغاية أكاد لا أسمعه من خطوات قدميها المتسللتين على الأرضية الخشبية، ولا يتناهى إلى مسامعي سوى صوت خفيض لأقصى حد يصدر عن حفيف تنورتها.

ماذا كانت تفعل في غرفتي؟ تمكنت من رؤيتها، عبر ضوء خافت ينبعث من المصباح، تدور حول الطاولة وتتقدم بحذر تجاه فراشي، ورأسها غارق في ظلام دامس. انتابتني حالة من الهلع الشديد حتى أنني أغلقت عيني لكي تتأكد أنني أغط في سبات عميق. بيد أن شعوري بوجودها وباقترابها تجاهي تفاقم في أعماق أعماقي، وتابعت بشكل مفصل وواضح كل شيء قامت بفعله. انحنت نحوي، حدقت إليَّ وراحت تتفرس طويلًا في ملامح وجهي، كما لو أنها لا تعرفني وتريد أن تتفحص وجهي بتمعنٍ. كيف لم يتناهَ إلى مسمعيها دقات قلبي المضطربة وغير المنتظمة؟ كان بإمكاني سماع دقات قلبها وصوت أنفاسها المنتظمة. لكم عانيت أشد معاناة! من هذه المرأة؟ وماذا كانت تنوي أن تفعل؟

توقفت عن تفحص وجهي، ثم ابتعدت. لم تبتعد كثيرًا. أدركت، من خلف جفنيّ المغمضين أنها منحنية على مسافة قريبة مني ومنخرطة في مهمة صامتة، ومع مرور الوقت، أيقنت تمامًا أنها لم تعد تراقبني حتى أنني استسلمت شيئًا فشيئًا لإغراء فتح عينيّ. أردت أن أرى، ولو للحظة واحدة، ملامح وجهها..

تطلعت بسرعة عابرة إلى وجهها

يا إلهي، أية معجزة تلك التي منحتي قوة كتمان صرختي التي انطلقت من أرجاء كياني؟ المرأة التي كانت هنا وأبصرتُ بوضوح بالغ ملامح وجهها المنساب عليها ضوء خافت منبعث من المصباح، كانت حقًا.. «أوه! كيف لي أن أكتب بيدي مثل هذا الهراء! كانت هذه المرأة يومًا ما بجانبي، جاثية على ركبتيها، مستغرقة في الصلاة، ورأيت وجهها اللطيف الباسم مبللًا بالدموع. لا، لم أرتعد أمام هذا المشهد الخيالي لامرأة وافتها المنية. بيد أن ما أفزعني هو تبدل ملامحها السمحة بملامح أخرى متشنجة بالغة الشراسة تنفث شرًا وكراهية ووحشيةً. لم أصرخ البتة، ربما لأن هذا المشهد بدا -من وجهة نظري- أمرًا خارقًا لقوانين الطبيعة ولا يدركه العقل البشري. تنتابني الآن تقريبًا حالة من الهدوء. أدركت في الوقت الذي انفتحت فيه عيناي أنني كنت فريسة لكابوس مفزع.

أمي، أمي، لم تبدُ هذه التعابير يومًا ما على وجهك السمح، ولا يمكن أن تتبدل بتلك البشاعة، أليس كذلك؟ كنتِ امرأة صالحة ومحبوبة، أليس كذلك؟ ألم يكن وجهك بشوشًا تعلوه ابتسامة رقيقة؟ وإذا كنتِ لا تزالين على قيد الحياة، أليس من المفترض أن ترتسم على وجهك ملامح الطيبة والود والرقة؟ أمي العزيزة، منذ ذلك المساء المشؤوم، الذي تعرف فيه بول على صورتك، ولجت غرفتك عدة مرات لأتفرس في قسمات محياك التي انمحت من ذاكرتي -كنت صغيرة جدًا عندما فارقتِ الحياة يا أماه! - وإذا كنت قد واجهت عناءً شديدًا في التعرّف عليك لأن الرسام أعطى وجهك تعابير مغايرة لتلك التي توقعتها، إلا أنها على الأقل لم تكن بنفس القدر من الشراسة والوحشية التي رأيتها في وجه هذه المرأة منذ قليل. لماذا تبغضينني؟ أنا ابنتك. أخبرني والدي، في كثير من الأحيان، بأنه لدي نفس ابتسامتك، وعندما كنتِ تتطلعين إلى وجهي كانت تنساب الرقة والحنان من عينيك الوديعتين. إذن.. إذن.. أنت لا تكرهينني، أليس كذلك؟ ألم أكن مستغرقة في حلم مخيف؟

أو على الأقل، استغرقت في حلم عندما لاحت أمامي بغتة هذه المرأة التي تشبهك. أصابني الهذيان، ومن فرط ما تأملت تفاصيل صورتك ولكثرة التفكير فيك، منحت هذه المرأة المجهولة ملامح وجهك، وهي بالفعل، ليست أنتِ يا أمي.

إذن، لن أتجرع هذا الماء. لا بد أنها وضعت لي سمًّا في الكوب.. أو ربما وضعت شيئًا يدفعني إلى الاستسلام لنوم ثقيل كي تسلمني إلى قبضة الأمير.. أظن أنها هي نفس السيدة التي تتمشى بجواره في بعض الأحيان.

لم أعد أدري شيئًا.. لم أعد أفهم شيئًا.. تزاخمت أفكاري المضطربة في عقلي المنهك.

اقتربت الساعة الثالثة صباحًا.. أنتظر روزالي.. ليلة هادئة تمامًا. لا يوجد أي ضوضاء في القصر أو في الأبنية المجاورة.

دقت الساعة الثالثة صباحًا. آه! سوف أنجو من أسري.. سأنال حريتي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العاشر

75 أم 155؟

انتقل بول بلهفة واضطراب إلى الصفحة التالية، كما لو كان يأمل أن تكلل خطة هروب إليزابيث بالنجاح الباهر، لكنه أُصيب بصدمة ساحقة موجعة أثقلت كاهله حينما قرأ بصعوبة بالغة الأسطر الأولى التي دُونت، في صباح اليوم التالي، بخطٍ غير واضح بعض الشيء:

افتضح أمرنا، وتعرضنا للخيانة. عشرون رجلًا كانوا يترصدوننا.. انقضوا علينا كوحوش ضارية. أضحيت سجينة داخل منزل صغير في طرف الحديقة. احتُجز چيروم وروزالي داخل كوخ صغير بجوار المنزل. رأيتهما مقيّدي الأيدي ومكممي الأفواه. لم تُقيّد يداي، لكن يوجد العديد من الجنود أمام باب المنزل. أسمعهم دائمًا يتجاذبون أطراف الحديث.

منتصف الظهيرة

أجد صعوبة بالغة في الكتابة يا بول. يفتح أحد جنود الحراسة، بين الفينة والأخرى، باب المنزل ومراقبتي. لم أفتَّش، لذا تمكنت من الاحتفاظ بصفحات يومياتي، أكتب إليك على عجالة، والظلام يحاصرني، بعض الرسائل الموجزة.

يومياتي الغالية! هل ستعثر عليها يا بول؟ هل ستتمكن من معرفة كل ما ألمَّ بي، وما آلت إليه الأمور؟ شريطة ألا ينتزعوها مني ويمزقوها!

أحضروا لي بعض الخبز والماء. ما زلت منفصلة عن چيروم وروزالي، لم يجلبوا لهما الطعام.

الساعة الثانية

نجحت روزالي في التخلص من الكمامة الموضوعة على فمها، وتحدثت إليّ بصوت خفيض من الكوخ المجاور لي. تنصت روزالي بانتباه لما تتناقله ألسن الجنود الألمان المكلفين بحراستنا، وأخبرتني أن الأمير كونراد غادر ليلة البارحة إلى كور□ينى، وأن الفرنسيين يقتربون، وأن الجنود الألمان يتملكهم شعور غامر بالقلق. هل سيجرؤون على المقاومة؟ هل سيتراجعون نحو الحدود؟ أفسد الميچور هيرمان خطة هروبنا. تقول روزالي إنه قد انتهى أمرنا.

الساعة الثانية والنصف.

يجب علينا، أنا وروزالي، أن نكف عن الحديث. سألتها للتو ما الذي تعنيه بأن نكف؟ ولماذا انتهى أمرنا؟ أكدت لي أن الميچور هيرمان رجل شرير شديد المكر والدهاء.

كررت روزالي: «بالطبع، رجل شرير شديد المكر والدهاء، ولديه أسباب شخصية تدفعه إلى إساءة معاملتك»

- أي أسباب يا روزالي؟

- سأوضح لكِ في وقت لاحق.. لكن يجب عليك أن تتيقني أنه إذا لم يعد الأمير كونراد من كور□ يني في وقتٍ مناسبٍ لإنقاذنا، سيغتنم الميچور هيرمان الفرصة وسيقتلنا جميعًا رميًا بالرصاص.

أطلق بول زمجرة غاضبة عندما وقعت عيناه على هذه الكلمات المثيرة للفزع التي سطرتها يد المسكينة البائسة إليزابيث. لم يجد بول في الصفحات التالية الأخيرة من المفكرة سوى بعض العبارات التي كُتبت على عجالة بشكل عشوائي، وبدت مثل شهقات الاحتضار.

جلبت الرياح القادمة من كور□ يني صوت قرع أجراس الإنذار.. ماذا يعني ذلك؟ الجنود الفرنسيون؟ بول، عزيزي بول.. ربما تكون بصحبتهم! ولج المنزل جنديان يقهقهان قائلين: «صدر أمر الإعدام يا سيدتي! ستُقتلون جميعًا.. أصدر الميچور هيرمان أمرًا بقتلكم.

ما زلت بمفردي.. سنقتاد إلى الموت.. روزالي تود التحدث معي.. لا تجرؤ على ذلك..

الساعة الخامسة

أُطلقت نيران المدافع الفرنسية.. انفجرت القذائف حول القصر.. آه! ليت أحدهم يتمكن من الوصول إليَّ! يتناهى إلى مسامعي صوت روزالي.. ماذا لديها لتخبرني به؟ أي سر همت باكتشافه؟

آه! يا للفظاعة! آه! يا للحقيقة البشعة! تحدثت روزالي معي. يا إلهي، أتوسل إليك، امنحني وقتًا كافيًا لأتمكن من الكتابة.. بول، ليس بمقدور عقلك أن يخمن أو يتخيل هذا.. يجب أن تعرف الحقيقة يا بول قبل أن يواري جسدي التراب.. بول..

أُنتزعت بقية هذه الصفحة، وابيضت تمامًا الصفحات التالية حتى نهاية الشهر.. هل كان لدى إليزابيث الوقت الكافي والجرأة لكتابة السر العظيم الذي باحت لها به روزالي؟

كان هذا سؤالًا لم يطرحه بول على نفسه. ولكن، ما المنفعة التي ستعود عليه من كشف الأسرار، وتعري الحقائق، في حين أن الظلام الدامس سيحجب مرةً أخرى، وللأبد، عن عينيه رؤية حقيقة أخرى يتعذر عليه إدراكها؟ ما الطائل من الأخذ بالثأر، وقد قام الأمير كونراد والميچور هيرمان وكل هؤلاء الهمجيون بقتل وتعذيب النساء؟ انتقلت إليزابيث إلى الرفيق الأعلى. أتى ليراها تلفظ أنفاسها الأخيرة أمام ناظريه.

لا شيء في هذا الوجود، باستثناء هذه الحقيقة المرة، يستحق عناء التفكير أو بذل الجهد. تثبتت عيناه على مفكرة اليوميات، حيث دونت زوجته المسكينة بيدها مراحل التعذيب الأكثر بشاعة وقسوة، والتي تفوق كل تخيل للعقل البشري. راح يشعر أن رغبة محرقة في التلاشي والنسيان تتملكه. إليزابيث تناديه. ما الفائدة من القتال الآن؟ لم لا ألحق بها؟

أمسك مسدسه الذي كان يحمله. ربت شخص ما على كتفه، إنه برنارد يهمس في أذنه:

- دع سلاحك يا بول، وتريث بعض الشيء. إذا كنت تظن أن أي جندي لديه الحق في قتل نفسه الآن، فسوف أتركك وشأنك لتفعل ما تشاء في وقت لاحق، وبعد أن تصغي بانتباهٍ إلى ما سأقوله..

لم يعترض بول. لقد أغواه الموت، وتسلل إليه خلسة. وعلى الرغم من أنه استسلم في لحظة طيش لسطوته وخداعه فإنه لا يزال يتمتع بحالة ذهنية تهيئه لاستعادة وعيه سريعًا.

- تحدث يا برنارد.

- لن أخوض في حديث مطول. سأكتفي بثلاث دقائق على الأكثر لأسرد بعض التفاصيل. أنصت إليّ جيدًا.

- أعتقد، وفقًا لخط الكتابة التي أراها أمامي، أنك عثرت على يوميات إليزابيث. هل تؤكد هذه اليوميات المعلومات التي نمت إلى علمك؟

- بالطبع.

- عندما دونت إليزابيث يومياتها كانت على شفا حفرة من الموت، وكذلك أيضًا چيروم وروزالي، أليس كذلك؟

- بلى.

- قتلوا جميعهم رميًا بالرصاص في نفس اليوم الذي خطت فيه أقدامنا كور□يني، أي الأربعاء يوم السادس عشر، أليس كذلك؟

- هذا ما حدث بالفعل.

- هل هذا يعني أنهم اغتيلوا في الفترة ما بين الساعة الخامسة والسادسة مساءً قبل يوم الخميس الذي وصلنا فيه إلى قصر أورنكان؟

- نعم، ولكن لماذا كل هذه الأسئلة؟

- لماذا! سأوضح لك يا بول. احتفظت بشظية القذيفة التي انتزعتها من جدار المنزل الصغير، من نفس المكان الذي أُطلقت فيه النيران على إليزابيث. ها أنا أمسكها بين يدي. لا تزال خصلات شعر إليزابيث ملتفة حولها.

- وماذا إذن؟

- حسنًا، تجاذبت أطراف الحديث، منذ وقت قليل، مع أحد ضباط سلاح المدفعية، واستنتجت من حوارنا وتفحصه الدقيق أن هذه الشظية لم تنتج عن قذيفة أطلقتها سرية مدفعيتنا 75، بل عن قذيفة أُطلقت من قبل سرية مدفعيتنا 155، قذيفة من طراز «ريميلهو».

- لا أفهم شيئًا.

- أنت لا تدرك فحوى ما أقوله لأنك تغافلت عن حقيقة جوهرية ذكرني بها توًا ضابط المدفعية. في مساء يوم الأربعاء 16، سرية المدفعية التي فتحت النيران، وأطلقت القذائف على القصر لحظة تنفيذ الإعدام، هي دون أدنى شك، سرية المدفعية 75. بيد أن سرية المدفعية 155 لم تطلق القذائف التي من طراز «ريميلهو» إلا بحلول اليوم التالي، يوم الخميس، في أثناء توجهنا ناحية قصر أورنكان. لذلك؛ إذا افترضنا أن إليزابيث أُعدمت رميًا بالرصاص ودُفن جثمانها مساء يوم الأربعاء قرابة الساعة السادسة، فإنه من المستحيل أن تنتزع شظية قذيفة هذه التي من طراز «ريميلهو» خصلات شعرها، ما دامت قذائف «ريميلهو» لم تُطلق إلا في صباح يوم الخميس.

همس بول، وقد تبدلت نبرة صوته: «وماذا بعد؟»

- إذن، كيف لا يراودني الشك في أن العدو التقط من الأرض، في صباح يوم الخميس، شظية القذيفة التي من طراز «ريميلهو» وغرزها عمدًا في الجدار وسط خصلات شعر إليزابيث التي قُصَّت في الليلة السابقة؟

- هل جننت! ولأي غرض يفعلون ذلك؟

ابتسم برنارد: «يا إلهي، بهدف جعلك تصدق أن إليزابيث قد أُعدمت بالرصاص، في حين أن هذا لم يحدث البتة».

ارتمى بول عليه وراح يهزه قائلًا: «أنت تخفي عني شيئًا آخر يا برنارد! وإلا لماذا ارتسمت الابتسامة على ثغرك؟ تحدث إذن! وماذا عن آثار الرصاص التي وجدناها في جدار المنزل؟ والسلسلة الحديدية؟ والحلقة الثالثة؟

- كل هذا لم يكن سوى مشهد مصطنع زائف! عندما يُنفّذ الإعدام، هل يمكن رؤية آثار الرصاص بهذه الطريقة المثيرة للسخرية؟ وهل تمكنت من العثور على جثمان إليزابيث؟ من يدري، ربما عقب إطلاق النيران على چيروم وروزالي، تملكهم شعور بالشفقة تجاه إليزابيث، وربما تدخل أحد الأشخاص.

تسرب بصيص من الأمل إلى نفس بول. أصدر الميچور هيرمان أمرًا بإعدام إليزابيث، لكن ربما أنقذت من قبل الأمير كونراد، الذي عاد من كور□يني قبل تنفيذ الحكم...

تلعثم بول:

- ربما، ربما.. لهذا الغرض هو هنا: الميچور هيرمان يعلم بأمر وجودنا في كور□يني -تذكر جيدًا لقاءَك مع المرأة الفلاحة-، أوهمنا بأن إليزابيث قد لاقت حتفها لنتخلى عن فكرة البحث عنها، الميچور هيرمان اصطنع كل هذه المشاهد. آه! كيف عرفت ذلك؟

اقترب برنارد منه وقال بنبرة هادئة وواثقة ورصينة:

- لم آتِ فقط لأبث فيك روح الأمل يا بول، أنا متيقن مما أقوله. أردت فقط تهيئتك للأمر. والآن، اسمعني جيدًا.. إذا كنت قد توجهت إلى ضابط المدفعية لأطرح عليه

سؤالي، فذاك بدافع التحقق من أشياء كنت على دراية بها. نعم، عندما وطأت قدماي، منذ بضعة ساعات، قرية أورنكان، وصل عدد من الأسرى الألمان عبر الحدود. تبادلت مع أحدهم بعض الكلمات، وأدركت أنه كان تابعًا للجنود المكلفين باحتلال القصر. أخبرني بأنه على دراية بتفاصيل الأحداث التي وقعت! حسنًا! لم تُعدم إليزابيث رميًا بالرصاص. أوقف الأمير كونراد تنفيذ حكم الإعدام.

صاح بول، الذي كاد يغشى عليه من هول الفرحة: «ماذا تقول؟ ماذا تقول؟ هل أنت واثق؟ هل ما زالت حقًا على قيد الحياة؟

- نعم، لا تزال على قيد الحياة.. اصطُحبت إلى ألمانيا.

- لكن، ربما لحق بها الميچور هيرمان وتمكن من تحقيق مآربه!

- لا.

- كيف عرفت؟

- من خلال هذا الجندي الأسير. السيدة الفرنسية التي رآها هنا من قبل حبيسة في قصرها، رآها مرة أخرى صباح هذا اليوم.

- أين؟

- ليس بعيدًا عن الحدود، في أحد قصور ضواحي إبريكورت، في كنف الشخص الذي أنقذها من براثن الموت، وهو بالطبع قادر على الدفاع عنها وحمايتها من بطش الميچور هيرمان.

انقبض وجه بول وقال له بنبرة مختنقة: «ماذا تقول؟»

- أقول لك إن الأمير كونراد أقام ثكنة عسكرية في إبريكورت، ويتوجه كل يوم لزيارة إليزابيث، وبالتالي فإن الخوف...

توقف برنارد عن حديثه ولم يكمل جملته، ثم تساءل مدهوشًا:

- ماذا دهاك؟ لماذا امتقع وجهك غضبًا؟

وضع بول يديه على كتفيْ شقيق زوجته، قائلًا له:

- فُقدت إليزابيث. الأمير كونراد متيم بحبها.. أخبرتنا بهذه الحقيقة المُرة.. وهذه اليوميات ليست سوى صرخة مختنقة نابعة من معاناتها الأليمة.. يهيم بها عشقًا، ولن يدع فريسته تفلت منه، هل تفهمني؟ لا شيء سيثنيه عن رغبته!

- أوه! لا أصدق ذلك.

- ويجب عليك أن تعلم، قبل أي شيء، أنه ليس رجلًا أحمق، بل هو شخص مخادع وحقير.. يمكنك اكتشاف ذلك عبر قراءة يوميات شقيقتك.. يتعين علينا الآن التحرّك على وجه السرعة، دون أن نستنفذ الوقت في التفكير العميق.

- ماذا تريد أن تفعل؟

- سأنتزع إليزابيث من قبضة هذا الرجل، سوف أحررها من سجنها.

- هذا أمر مستحيل.

- مستحيل؟ نحن على بعد ثلاثة فراسخ من المكان الذي سجنت فيه زوجتي، حيث تعرّض لأبشع الإهانات من قبل هذا المخادع، هل تعتقد أنني سأظل ماكثًا هنا مكتوف الأيدي؟ هيا! علينا أن نتحلى بالشجاعة! تأهب لمعركة جديدة يا برنارد، وإذا أصابتك الحيرة، سأنطلق بمفردي.

- ستذهب بمفردك! إلى أين؟

- إلى هناك. لست بحاجة إلى مساعدة أي شخص. أحتاج فقط إلى زيٍّ عسكريٍّ ألمانيٍّ. سأمزق عتمة الليل الرهيب، وسأبيد كل الأعداء الذين يتوجب عليَّ قتلهم، وستغدو إليزابيث غدًا في الصباح هنا بحوزتي حرة وطليقة.

هز برنارد رأسه وقال بلطف: «مسكين يا بول!»

- ماذا؟ ماذا تقصد؟

- هذا يعني أنني أول من لا يتخاذل عن الذهاب برفقتك على الفور لنجدة إليزابيث. لم أعد أخشى المخاطر. ولكن لسوء الحظ..

- لسوء الحظ؟

حسنًا! سنودع هذه المنطقة منطلقين إلى مكان آخر لشن هجوم أكثر ضراوة؛ لذا تم استدعاء القوات الاحتياطية والإقليمية لتحل محلنا. أما بالنسبة إلينا، سنغادر حتمًا.

تلعثم بول مذعورًا: «سوف نغادر؟»

- نعم، في هذه الليلة. ستتوجه فرقتنا العسكرية إلى كور□يني، وسننطلق من هناك إلى مكان مجهول.. «ريمس» ربما أو «أراس»، لا أدري.. لسوء الحظ، لن نتمكن من تنفيذ مخططك.. هيا، كن شجاعًا وتجلد بالصبر. هيا، إليزابيث خارج دائرة الخطر.. وستعرف كيف تدافع عن نفسها.

لم ينبسْ بول ببنت شفة متذكرًا على الفور، تلك العبارة البغيضة التي تفوه بها الأمير كونراد، والتي وردت في مذكرات إليزابيث: «إنها الحرب.. هذا هو قانون الحرب». شعر أن هذا القانون يثقل كاهله للغاية. هل هذا حقًا هو قانون الحرب؟ لا، بل واجب الحرب، واجب حتمي مقدس لا جدال فيه ولا يقبل المناقشة، سواء كانت إليزابيث تواجه الموت أو العار، لا يجب أن يتحول نظر الرقيب ديلروز، ولو للحظة واحدة عن الطريق الذي رُسم له والذي صدرت له الأوامر بأن يسلكه. كان جنديًا قبل أن يصبح زوجًا، إنه غير مدين لأحد بروحه سوى فرنسا، وطنه الجريح المحفور في وجدانه. طوى بهدوء صفحات يوميات زوجته، ثم تبعه شقيق زوجته. سيغادر طواعية قصر أورنكان، عندما يسدل الليل ستاره.

الجزء الثاني

الفصل الأول

نـهر «إيسير».. بؤس وشقاء

لاحت المدن الصغيرة، «تول»، و«بار لو ديك»، و«□يتري لو فرانسوا»، واحدةً تلو الأخرى أمام أنظار بول وبرنارد اللذين استقلا القطار المتجه إلى غرب فرنسا. سبقتهم قطارات لا حصر لها، وتبعتهم قطارات أخرى عديدة محملة بالجنود والإمدادات. برزت ضواحي باريس الكبرى، واتجه القطار صاعدًا نحو «أراس» في الشمال.

يجب علينا الوصول بأقصى سرعة ممكنة إلى حدود «أراس» للانضمام إلى البلجيكيين الأبطال. عاش الملازم الثاني بول ديلروز، مسبقًا عبر أحلامه المبعثرة في صفحات القدر-مُنح رتبته الجديدة في طريقه إلى أراس- والذي يقاتل بضراوة دون أن يهاب الموت، ويدرب رجاله مضرمًا فيهم نيران الحماس كل يوم، تفاصيل تحركاته نحو الشمال والمعارك الضارية التي تنتظره، بيد أن جميع الأحداث بدت له في تلك اللحظة وكأنها تتوالى في غفلة من الزمن دون أن يدري بها. وفي الوقت الذي راح برنارد يجازف فيه بحياته ضاحكًا، وداعمًا بسالة رفقائه بمرحه الدائم ونشاطه وحيويته، ظل بول شارد الذهن، ملتزمًا الصمت المطلق. بدا غير مكترث البتة بتقلبات الجو والعناء والكد والجوع والعطش.

ومع ذلك، كان من دواعي سروره -يبوح بذلك لبرنارد في أغلب الأحيان- أن يمضي قدمًا ويسعى جاهدًا إلى دحر العدو. تملكه شعورٌ بأنه يتجه بخطىً متسارعةٍ وواضحة نحو هدف محدد ووحيد يأسر لبه ويشغل كل تفكيره، ألا وهو إنقاذ إليزابيث، سواء على تلك الحدود التي يربض عليها الآن، أو على الحدود الشرقية التي وُجد عليها آنفًا، لا يزال يواجه عدوًا بغيضًا منقضًا عليه بشجاعة منقطعة النظير. لا يهم إذا ما كان يقاتله هنا أو هناك، ففي كلتا الحالتين سيصل إلى نتيجة واحدة وستنال إليزابيث كامل حريتها. ذات يوم، أخبره برنارد:

- سوف نحقق غايتنا. أنت تعلم جيدًا أن إليزابيث ستنتصر على هذا الطائش الأبله. في تلك الأثناء، سنحاصر الألمان وسننطلق بسرعة عبر بلجيكا، نباغت كونراد من الخلف، ثم نحتل إبريكورت في غضون خمس ثوانٍ! ألا يضحكك هذا التصور المستقبلي؟ لا، فأنا أعلم أن الابتسامة لن ترتسم على وجهك إلا حينما تدك حصون هؤلاء الأوغاد. تسلح بالابتسامة فنحن نقاتل بشرف! ولتعلم أنه لدينا كامل الحق في أن نبتسم!

اجتزنا مناطق «روا»، و«لاسيني»، و«شولن».. ثم عقب ذلك عبرنا قناة «دولاباسيه»، ونهر «دولاليس».. ووصلنا في نهاية الأمر إلى مدينة «إيبر» البلجيكية! يمتد بعد الأنهار الفرنسية (المارن، الإيزن، الواز، السوم) جدول ماء صغير سيصطبغ عاجلًا أو آجلًا بحمرة دماء الأبطال الفرنسيين. قرعت طبول معركة نهر «إيسير» المستعرة.

خاض برنارد -الذي حصل بسرعة هائلة على رتبة رقيب- بصحبة بول ديلروز غمار هذا الجحيم المتأجج حتى أوائل أيام شهر ديسمبر. شَكّلا فرقة صغيرة برفقة نصف دزينة من الجنود الفرنسيين، وجنديين متطوعين، وآخر احتياطي، وجندي بلجيكي من الذين لاذوا بالفرار من بلدة «روسلاريه» البلجيكية يُدعى «لاشين». لم يتبق من الوحدة التي يقودها بول سوى هؤلاء الجنود، وعندما أُعيد تشكيل الوحدات العسكرية، تجمعوا مرة أخرى في نفس الفرقة. تولوا تنفيذ المهام المعقدة والخطرة. ودائمًا، كلما ينتهون من حملاتهم العسكرية يجدون بعضهم البعض سالمين لم يُصبْ أيهم بخدش واحد، وكأنهم يجلبون الحظ السعيد لبعضهم البعض.

خلال الأسبوعين الماضيين، دُعم الفوج العسكري الذي تصدر طليعة الجيش الفرنسي، بعدة تشكيلات عسكرية بلجيكية وإنجليزية. ألا يعد هذا انتهاكًا للبطولة المتفردة؟ كُثفت الهجمات العنيفة في شتى الأرجاء، في الوحل، وفي المستنقعات، وفي المياه الغامرة، وسقط الآلاف بل عشرات الآلاف من القتلى الألمان.

غمرت البهجة قلب برنارد الذي توجه بالحديث ذات يوم إلى جندي إنجليزي صغير يتقدم بجواره أسفل شظايا القذائف، والذي -بالرغم من ذلك- لم يكن باستطاعته فهم معنى أي كلمة فرنسية: «كما ترى يا «تومي»، لا أحد يعشق البلجيكيين أكثر مني، لكنهم لا يثيرون إعجابي، وذاك لسبب منطقي ووجيه للغاية، ألا وهو أنهم يقاتلون بشراسة متبعين نفس منهجيتنا، أي أنهم يقاتلون مثل الأسود. من يثير إعجابي حقًا هو أنتم يا رفاق بريطانيا العظمى. أنتم مختلفون تمامًا، لديكم طريقتكم الخاصة في إنجاز المهام الخطرة.. وأي مهام! لا يوجد اندفاع أو تهور، ولا غضب جارف، تكتمون سخطكم في أعماق أعماقكم، على سبيل المثال: عندما تتراجعون تستشيطون غضبًا، ثم تضحون مرعبين تصبون جام حنقكم على أعدائكم. لا تتقدمون مطلقًا إلا حينما تتقهقرون إلى الوراء. والنتيجة الجلية للعيان هي: سحق الألمان.

في مساء هذا اليوم، عندما كانت السرية الثالثة تناوش العدو على مقربة من مدينة «ديكسيميود»، وقع حادث غريب أصاب الصهرين بدهشة بالغة وصدمة مروعة. شعر بول بغتة بصدمة عنيفة في الجانب الأيمن، فوق حقويه. لم يكن لديه وقتًا لينشغل بهذا الأمر. بيد أنه عندما عاد إلى الخندق، اكتشف أن رصاصة اخترقت الجراب الجلدي الذي يحمل مسدسه مستقرة في ماسورة سلاحه. في الحقيقة، استنادًا إلى الموقع الذي كان بول متمركزًا فيه، يمكن الجزم بأن الرصاصة أطلقت عليه من الخلف، أي من قِبل أحد جنود سريته أو أحد جنود سرية أخرى تابعة لكتيبته. هل ما حدث كان مصادفةً أم رعونةً من أحد الجنود؟

في اليوم التالي، جاء دور برنارد. تدخلت العناية الإلهية لحمايته، اخترقت إحدى الرصاصات حقيبته وخدشت عظمة لوح كتفه. عقب هذا الحادث بأربعة أيام، اخترقت رصاصة أخرى قبعة بول العسكرية، وفي هذه المرة أيضًا جاءت الرصاصة من الخلف، من خطوط دفاع القوات الفرنسية. لم يعد هناك مجالًا للشك أن الصهرين مستهدفان بشكل متعمد، وأن الخائن هو شخص مسلح يعمل لحساب العدو ويختبئ بين صفوف القوات الفرنسية. قال برنارد لبول:

- لم يعد هناك أي مجال للشك. استَهدفتَ في البداية، ثم أنا، وبعد ذلك أنت أيضًا. تعبث أصابع الميجور هيرمان بنا. لا بد أنه هنا في مدينة «ديكسيميود».

- وربما أيضًا الأمير كونراد.

- ربما. على أيةِ حال، تسلل أحد جواسيسهم إلى صفوفنا. كيف نفتضح أمره؟ هل نخبر الكولونيل بما جرى؟

- كما تريد يا برنارد، ولكن دعنا ألا نتطرق إلى الحديث عن صراعنا الشخصي مع الميجور. إذا كنت قد نويت أن أكشف للعقيد أوراقي فإنني أعدل الآن عن قراري، ولا أرغب في الزج باسم إليزابيث في هذه القضية برمتها.

علاوةً على ذلك، لم تكن هناك حاجة إلى تحذير القادة من مؤامرة العدو. ففي الوقت الذي توقف فيه العدو عن استهداف الصهرين تعرضت القوات كل يوم للخيانة والغدر.. رُصد موقع سلاح المدفعية، وأحبطت بعض الهجمات. تيقن الجميع أن التنظيم الممنهج من قبل منظومة تجسس العدو أضحى أكثر خطورة في تلك المنطقة أكثر من أية منطقة أخرى. كيف لا يتملك بول وبرنارد الشك في تلاعب الميجور هيرمان بهما، وهو يعد أحد العناصر الرئيسة في تلك المنظومة؟

كرر برنارد مشيرًا بيده نحو الخطوط الألمانية: «إنه يقبع هنا دونِ أدنى شك. إنه هنا لأن جزءًا كبيرًا من المعارك يدور في تلك المستنقعات وقد أوكلت إليه هذه المهمة. وهو بالطبع هنا أيضًا لأننا نخيم في هذا المكان.

اعترضه بول: «وكيف عرفت؟ »

أجابه برنارد متسائلًا: «وكيف لا أكون على يقين من ذلك؟»

بعد ظهر أحد الأيام، استُدعي بول ديلروز لاجتماع عُقد لعدد من الرواد والنقباء في كوخ يُعد بمثابة مسكن للكولونيل. تنامى إلى علم بول في أثناء الاجتماع أن الجنرال المسؤول عن قيادة الفرقة العسكرية أصدر أمرًا بالاستيلاء على منزل صغير يقع على الضفة اليسرى للقناة تحصن بداخله الألمان، ويقطنه في أغلب الأوقات أحد المهربين. دافع سلاح مدفعية العدو المتمركز على المرتفعات الجبلية في الناحية الأخرى، بضراوة عن هذا الحصن الصغير الذي أصبح محل نزاع منذ بضعة أيام؛ لذا لا بديل عن الاستيلاء عليه. أوضح الكولونيل:

- وبناءً على ذلك، طلبنا من قادة السرايا العسكرية في إفريقيا أن يمدونا بمئة متطوع، سيتحركون الليلة وسينفذون هجومًا ضاريًا في صباح الغد. يتمحور دورنا في دعمهم بشكل فوري، وفي حالة نجاح هجومهم يتوجب علينا صد جميع الهجمات المضادة التي من المؤكد أنها ستكون عنيفة للغاية نظرًا لأهمية موقع هذا الحصن. هذا الموقع، كما تعلمون أيها السادة، تفصله عنا المستنقعات التي سيجتازها الجنود المتطوعون هذه الليلة.. ولكن، على يمين هذه المستنقعات، يوجد على طول القناة طريق محاذٍ، يمكننا من خلاله أن نهب لمؤازرتهم. ومع ذلك، قبل خمسمئة متر من منزل هذا المهرب، توجد منارة قديمة احتلها الألمان، وقد قمنا منذ بضع ساعات بتدميرها عبر إطلاق وابل من قذائف مدفعيتنا. هل أخلوها تمامًا؟ هل سنجازف

بالاصطدام بموقع عسكري سابق للحصن المنشود؟ هذا ما سيكون من الجيد أن نعرفه مسبقًا. لقد فكرت في أن تقوم بهذه المهمة يا ديلروز.

- أشكرك سيدي الكولونيل.

- المهمة ليست خطيرة للغاية، بيد أنها دقيقة ويجب عليك أن تأتي بالثمار المرجوة. ستغادر هذه الليلة، وإذا كانت المنارة القديمة لا تزال محتلة عد أدراجك على الفور. ولكن، إذا كانت قد أُخليت تمركز هناك بصحبة ما يقرب من دزينة من الرجال الأقوياء، حيث ستخفيهم بعناية حتى نلحق بك. سيكون هذا المكان بمثابة نقطة دعم رائعة.

- حسنًا سيدي الكولونيل.

سيتخذ بول التدابير اللازمة، سيجتمع بمجموعته الصغيرة المؤلفة من الجنود الباريسيين والجنديين المتطوعين والجندي الاحتياطي والبلجيكي، والتي تشكل فرقته المعتادة، وسيخبرهم أنه سيكون بحاجة إليهم بلا شك في أثناء الليل. عندما تدق الساعة التاسعة مساءً، سيبدأ بالتحرك فقط برفقة برنارد داند□يل لاستكشاف المكان.

ألزمت أضواء كشافات العدو الصهرين بالبقاء لفترة طويلة خلف جذع ضخم لإحدى أشجار الصفصاف المقتلعة. ثم غرقا في ظلام دامس لا يمكن اختراقه، حتى أنهما لم يتمكنا من رؤية الحد الفاصل بين اليابسة والماء.

لجأ الاثنان إلى فكرة الزحف بدلًا من السير على الأقدام خوفًا من أن تُسلط عليهما أضواء العدو المباغتة. هب نسيم خفيف على الحقول الموحلة والمستنقعات فارتعشت نباتات البوص وانبعث أنينها.

همس برنارد: «يا له من جو مثير للكآبة»

- اصمت

- كما تود، حضرة الملازم الثاني.

يزمجر، من وقت لآخر دون سبب يُذكر، صوت إطلاق القذائف التي تشبه كلابًا تنبح، تسعى إلى إحداث القدر الأكبر من الضوضاء التي تشق صمت الليل المطلق المثير للقلق، وعلى الفور تنبح قذائف أخرى بشراسة أكبر، وكأنها تسعى بدورها إلى إحداث قدر أعظم من الجلبة مؤكدة أنها لم تكن غارقة في سبات عميق.

يعم الهدوء مرة أخرى شتى الأرجاء. بدت أعشاب المستنقعات وكأنها جامدة كالصخر بلا حراك. ومع ذلك، شعر بول وبرنارد، بالزحف البطيء لجنود إفريقيا الأبطال المتطوعين الذين تحركوا في نفس توقيت مغادرتهما، وباستراحاتهم الطويلة وسط مياه المستنقعات المتجمدة، وبجهودهم الدؤوبة.

تأوه برنارد: «تستولي علينا الكآبة شيئًا فشيئًا»

لاحظه بول قائلًا: «كم تبدو سريع التأثر هذه الليلة!»

- انبطحا على الأرض بسرعة البرق؛ أجرى العدو مسحًا ضوئيًّا للطريق عبر العاكسات الضوئية متفحصًا المستنقعات أيضًا. تجاوزا إنذارين آخرين، ثم وصلا أخيرًا، بلا أدنى عائق، إلى مشارف المنارة القديمة.

كانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة والنصف. تسللا بحذر بالغ بين الكتل المتهدمة وسرعان ما أدركا أن الموقع قد أُخلي تمامًا. وعلى الرغم من ذلك، اكتشفا أسفل درجات السلم المنهارة، بابًا أرضيًا مفتوحًا، ودرجًا منحدرًا إلى الأسفل يؤدي إلى قبو تبرق فيه أضواء السيوف والخوذ.. بيد أن برنارد الذي شق الظلام بواسطة مصباح يدوي، قال بصوت هادئ:

- لا تخشَ شيئًا يا برنارد، إنهم أموات. ألقى الألمان بهم في هذا المكان، عقب قصف المنارة بالمدفعية.

- حقًا. لكن يجب أن نحذر من عودتهم ليأخذوا جثامينهم. اصعد لتولي أمر حراسة المكان من ناحية نهر إيسير يا برنارد.

- ماذا لو كان أحد هؤلاء على قيد الحياة؟

- سوف أحدره إلى الهاوية.

قال له برنارد: «فتش جيوبهم، وأحضر لنا دفاتر ملاحظاتهم. هذا الأمر يثير شغفي. إنها أفضل الوثائق التي تكشف لنا عن حالتهم النفسية وأسلوب تفكيرهم».

نزل بول إلى القبو المترامي الأطراف. تناثرت نصف دزينة من الجثث على الأرضية، جميعها هامدة وجامدة كالصخر. ووفقًا لنصيحة برنارد، أخذ بول، بعقلٍ شاردٍ، يفتش جيوبهم وينتزع دفاتر ملاحظاتهم. لم يجد شيئًا جاذبًا للانتباه، بيد أنه عثر بداخل جيب سترة الجندي السادس النحيف، على حافظة تحمل اسم «روزينتال»، وتحوي أوراقًا نقديةً فرنسيةً وبلجيكيةً، ومجموعة من الرسائل أُلصقت عليها طوابع إسبانية وألمانية وسويسرية. كُتبت جميع الخطابات باللغة الألمانية بيد أنه ضابط ألماني يقيم في فرنسا، لم يتضح اسمه، وكُلّف الجندي السادس بتسليم جميع الرسائل بصحبة صورة فوتوغرافية إلى شخص ثالث لُقب باسم (صاحب الفخامة).

قال بول لنفسه متصفحًا الرسائل: «خدمة التجسس.. معلومات سرية.. إحصائيات.. يا لهم من أوغاد!»

لكن بول، عندما هم بفتح الحافظة مرةً أخرى، أخرج منها ظرفًا وفتحه، وجد بداخله صورة فوتوغرافية، علت الدهشة البالغة ملامح وجهه، حتى أنه من هول رؤية هذه الصورة أطلق صيحة فزع عالية.

إنها نفس المرأة التي رأى صورتها في غرفة قصر أورنكان المغلقة، نفس المرأة، نفس وشاح الدانتيل الذي ترتديه بطريقة مماثلة، نفس ملامح وجهها الحادة، والتي لا تُخفي قسوتها هذه الابتسامة المصطنعة. أليست هذه المرأة هي الكونتيسة هيرمين داند□يل، والدة إليزابيث وبرنارد؟

عندما قلب بول الصورة، لمح شيئًا فجر في أعماقه مرة أخرى كل ينابيع الدهشة. رأى بول بضع كلمات مكتوبة: إلى «ستيفان داند□يل»، 1902.

«ستيفان»، ذاك هو الاسم الأول للكونت داند□يل!

هذا يعني أن هذه الصورة قد أُرسلت من برلين إلى والد إليزابيث وبرنارد في عام 1902، أي بعد أربع سنوات من وفاة الكونتيسة. ووفقًا لتلك المعطيات نجد أنفسنا في مواجهة افتراضين: إما أن هذه الصورة أُخذت قبل وفاة الكونتيسة هيرمين، وتحمل تاريخ العام الذي حصل فيه الكونت عليها، أو أن الكونتيسة هيرمين لا تزال على قيد الحياة..

فكر بول، رغمًا عنه، على الفور في الميچور هيرمان، حيث استحضرت هذه الصورة المماثلة تمامًا لصورة الغرفة المقفلة، في ذهنه المضطرب ذكرى هيرمان! هيرمين! وها هو الآن يكتشف صورة هيرمين داخل جيب جثة جاسوس ألماني، على ضفاف نهر «إيسير»، حيث يصول ويجول الميچور هيرمان، زعيم الجواسيس، بحرية في شتى الأرجاء!

- بول! بول!

ناداه برنارد من الأعلى. انتصب بول بسرعة بالغة، ثم أخفى الصورة عازمًا ألا يتحدث بشأنها، صعد نحو الباب الأرضي، قائلًا:

- حسنًا يا برنارد، ما الأمر؟

- يوجد فرقة صغيرة من الجنود الألمان. في البداية، ظننت أنها دورية استكشاف، وأنها ستربض على الضفة الأخرى من القناة. ولكن لا، يعبرون القناة الآن مستقلين زورقين.

- في الواقع، يمكنني سماعهم.

اقترح برنارد: «لمَ لا نطلق الرصاص عليهم؟»

- لا، سيعد هذا الأمر بمثابة إطلاق إنذار. من الأفضل أن نراقبهم. تلك هي مهمتنا.

أخذ بول وبرنارد يتتبعان في تلك اللحظة صوتًا خافتًا لصافرة تنبعث من ناحية الطريق المحاذي. أجاب الجنود الذين يستقلون الزورقين على تلك الصافرة، بصافرة أخرى مماثلة تمامًا. تم تبادل إشارتين أخريين على فترات منتظمة. دقت ساعة الكنيسة لتشير إلى منتصف الليل.

خمن بول قائلًا: «أظن أنه اجتماع. الأمر مثير للفضول، هلم بنا، لاحظت في الأسفل مكانًا متواريًا عن الأنظار، سنكون في مأمن من أي هجوم مباغت».

كان المكان عبارة عن قبو خلفي مفصول عن القبو الأول بواسطة كتلة من البناء تتوسطها فتحة يمكن العبور من خلالها بسهولة. شرعا بأقصى سرعة في سد هذه الفتحة بالحجارة التي تساقطت من السقف والجدران.

عندما انتهيا بالكاد من ترميم الثغرة، تردد فوقهما صدى دوي خطوات أقدام الجنود، وتناهى إلى مسامعهما تبادل بعض العبارات باللغة الألمانية. يبدو أن عدد جنود الفرقة العسكرية كبير جدًا. وضع برنارد طرف بندقيته في إحدى كوى الجدار الفاصل بين القبوين.

تساءل بول: «ماذا تفعل؟»

- ماذا لو توجهوا ناحيتنا؟ أتهيّأ لمقاومتهم. بإمكاننا أن نصد أي هجوم بطريقة فعالة.

- كف عن هذا الهراء يا برنارد. دعنا ننصت إليهم. ربما نتمكن من التقاط بعض الكلمات.

- ربما أنت يا بول، لكنني عاجز تمامًا عن فهم أي مقطع لفظي ألماني.

غمر الضوء المتوهج زوايا القبو شتى. نزل أحد الجنود، ثم علق مصباحًا ضخمًا إلى مسمار في الجدار، تبعته دزينة من الجنود، وأدرك الصهرين على الفور أنهم أتوا لنقل جثامين الموتى. لم يطل وقت إنجاز مهمتهم، وبعد مرور خمس عشرة دقيقة، لم يتبقَ في القبو سوى جثة واحدة، جثة الجاسوس «روزينتال».

انبعث من الأعلى صوت يُصدر أمرًا إلى الجنود بنبرة حاسمة:

- ابقوا هنا أيها الرفاق، وانتظروا قدومنا. وأنت يا «كارل»، انزل الدرج أولًا.

برز أحد الأشخاص على درجات السلم العليا. انتابت بول وبرنارد حالة من الصدمة والذهول لرؤية بنطال أحمر، ثم معطف عسكري أزرق اللون، وأخيرًا الزي الرسمي الكامل لجندي فرنسي. قفز هذا الشخص على الأرض، ثم صاح قائلًا:

- أنا هنا يا صاحب الفخامة. الآن حان دورك.

عندئذ، أبصرا الجندي البلجيكي «لاشين»، أو بالأحرى الجندي البلجيكي المزعوم الذي أطلق على نفسه اسم «لاشين» والذي كان يُعد أحد رجال وحدة بول العسكرية. عرفا الآن مصدر الطلقات الثلاث. يقف الخائن الآن على مرأى منهما. تمكنا، عبر الضوء المتوهج المنبعث من المصباح، أن يتبينا بوضوح ملامح وجهه، وجه رجل يبلغ من العمر أربعين عامًا، ذي ملامح قاسية، وبشرة دهنية، وعينين محفوفتين باحمرار. نزل أحد الضباط بحذر وحرص شديدين، متدثر بمعطف طويل رمادي اللون ذي ياقة مرتفعة. عرفاه على الفور، إنه الميجور هيرمان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني

الميچور هيرمان

على الفور، وبالرغم من اشتعال نيران البغضة في صدر بول، والتي راحت تثير حنقه وتحثه على تنفيذ عمل انتقامي فوري، وضع يده على زراع برنارد ملزمًا إياه بأن يتوخى الحذر.

لكن أية عاصفة من الغضب تلك التي اجتاحته فور ظهور هذا الشيطان! ينبش هذا الشخص، بمجرد رؤياه، في ذاكرة بول مستحضرًا كل الجرائم التي ارتُكبت ضد والده وضد زوجته، ذاك الشخص الذي يتبختر مختالًا أمام رصاصة بإمكانها أن ترديه قتيلًا، بيد أن بول يقف أمامه عاجزًا مكتوف الأيدي لا يستطيع أن يمسه بسوء! فضلًا عن ذلك، توالت الأحداث بطريقة مثيرة للدهشة وأثبتت الظروف بشكل لا يقبل الجدل، أن هذا الرجل سيتوجه، في غضون بضع دقائق، لارتكاب جرائم أخرى، دون أن يتمكن أحد من قطع دابره.

قال الميچور باللغة الألمانية: «في موعدك بالضبط يا «كارل»»

توجه نحو «لاشين» المزيف قائلًا: «في الموعد المناسب، أنت دقيق في موعدك. إذن، ما الجديد؟»

أجاب كارل، الذي بدا وكأنه يتعامل مع الميچور باحترام ممتزج بالألفة التي يتمتع بها المرء المتحدث مع قائده والمتواطئ معه في آن واحد: «بادئ ذي بدءٍ، يا صاحب الفخامة، قبل كُل شيء اسمح لي...»

خلع معطفه العسكري أزرق اللون، وارتدى سترة أحد الجنود الموتى، مؤديًا التحية العسكرية، وقائلًا:

- أُفٍ! كما ترى يا صاحب الفخامة، أنا شخص ألماني لا غش فيه، ولا غبار عليه. لم أتصل من أية مهمة كُلفت بها، لكنني أشعر باختناق مميت عندما أرتدي زي العدو.

- إذن، أنت تتهرب من المسؤولية؟

- يا صاحب الفخامة، المهنة التي تُمارس بهذه الطريقة دقيقة ومحفوفة بالمخاطر، قميص الفلاح الفرنسي، أقبله بكل رضى؛ أما زي الجندي الفرنسي، لا لا أحتمله يلامس جسدي. هؤلاء الأشخاص لا يخشون شيئًا، يجب عليَّ أن أتتبعهم، وأجازف بالتعرض للقتل بواسطة إحدى رصاصات جيشي الألماني.

- ولكن ماذا عن الصهرين؟

- أطلقت عليهما الرصاص ثلاث مرات من الخلف، وأخفقت في جميع محاولاتي. لا يوجد شيء آخر لأفعله حيالهما، إنهما محظوظان، وسينتهي الأمر قريبًا بإلقاء

القبض عليّ. لذا، كما قلت فخامتكم، أتهرب من المسؤولية، واغتنمت فرصة لقاء الغلام الذي يُقبل ويُدبر بيني وبين «روزينتال» لأقابلك.

- أخبرني «روزينتال»، في مقرنا الرئيس، بما يجول في خاطرك.

- أرسلت معه أيضًا الصورة الفوتوغرافية التي لم تَأْلُ جهدًا في البحث عنها، ومجموعة خطابات بعث بها ضباطك في فرنسا. أردت ألا تسقط هذه الأدلة في أيدي أعدائنا فيفتضح أمرنا.

- كان يجب على «روزينتال» أن يحضرها بنفسه لي، لكنه لسوء الحظ ارتكب فعلة حمقاء.

- أية فعلة يا صاحب الفخامة؟

- قُتل بإحدى القذائف الغاشمة.

- فلنبحث إذن عن جثمانه!

- ها هي جثته ملقاة عند قدميك.

اكتفى «كارل» بأن يرفع كتفيه، ثم قال:

- يا له من أحمق!

أضاف الميچور مستكملًا خطبته الرثائية: «لم يعرف كيفية تدبر أمره. ابحث عن حافظته يا كارل، لقد وضعها في الجيب الداخلي لصدرته الصوفية».

انحنى الجاسوس وقال بعد لحظة: «ليست هنا يا صاحب الفخامة».

- ذاك لأنه ربما بدّل مكانها. تفحص باقي جيوبه.

أكد كارل، بعد أن نفذ الأمر: «لم أجدها يا صاحب الفخامة».

- كيف ذلك؟ هذا محال! حافظة روزينتال لا تنفصل البتة عن جيبه. يحتفظ بها في أثناء نومه، إذن لم تفارقه في أثناء موته أيضًا.

- فلتبحث عنها بنفسك يا صاحب الفخامة.

- إذن ماذا حدث؟

- ربما أتى أحد الأشخاص منذ سويعات قليلة وسرق الحافظة.

- من؟ هل أتى بعض الجنود الفرنسيين؟

نهض الجاسوس، ثم ظل صامتًا لبرهة من الوقت. اقترب بعد ذلك من الميچور وقال له بصوت متمهل:

- بعض الجنود الفرنسيين، لا، ولكن أحدهم، نعم بالطبع.

- ماذا تريد أن تقول؟

- غادر ديلروز بصحبة شقيق زوجته منذ بضع ساعات لاستكشاف مكان ما. في أي طريق انطلقا؟ لم أتمكن من معرفة ذلك. لكنني تيقنت الآن أن أحدهما جاء إلى هنا، استكشف بالطبع أنقاض المنارة، ورأى موتانا متفحصًا جيوبهم.

هَمْهَمَ الميچور قائلًا: «يا لها من لعبة قذرة، هل أنت واثق مما تقوله؟

- من المؤكد ذلك. لا بد أنه كان هنا منذ ساعة أو أكثر.

ثم أردف ضاحكًا: «ربما أيضًا، ربما لا يزال هنا، مختبئًا في أحد الشقوق...»

ألقى كلاهما نظرة حوله، ولكن بطريقة عفوية، ودون أن تصدر من أحدهما أية إيماءةٍ تبين شعوره الدفين بالحيرة والخوف. قال الميچور متأملًا: «الخطابات التي تلقيناها من ضباطنا، هي في واقع الأمر، مجرد رسائل لا تحمل أية عناوين أو أسماء، وليس لها سوى أهمية نسبية. بيد أن الصورة الفوتوغرافية لها أهمية بالغة.

- أهمية قصوى يا صاحب الفخامة! إنها صورة التُقطت عام 1902، ولذلك استمر بحثنا الدؤوب عنها مدة اثني عشر عامًا! لقد نجحت، بعد بذل مجهود خرافي، في الحصول عليها من بين الأوراق التي تركها الكونت ستيفان داند□يل في قصره أثناء الحرب. وهذه الصورة التي أردت استعادتها من الكونت داند□يل، وقعت الآن بين يدي بول ديلروز، صهر السيد داند□يل، وزوج إليزابيث داند□يل، وعدوك اللدود!

صاح الميچور مبديًا انزعاجه الواضح: «يا إلهي! أعلم ذلك جيدًا، ولست بحاجة إلى أن تردده على أذني مرارًا وتكرارًا!»

- صاحب الفخامة، يجب أن تضع دائمًا هذه الحقيقة نصب عينيك. ماذا انتويت أن تفعل إزاء بول ديلروز؟ أن تخفي عنه كل ما يتعلق بهويتك الحقيقية، ولتحقيق خطتك، وجهت كل انتباهه، وحماسته المتجددة، وضغائنه نحو الميچور هيرمان. هذا صحيح، أليس كذلك؟ حتى بلغ بك الأمر إلى مضاعفة أعداد الخناجر التي حُفر عليها الأحرف الأربعة «هـ»، «يـ»، «ر»، «مـ»، وأيضًا وضع توقيع اسم «الميچور هيرمان» على الجدار في المكان الذي عُلقت فيه اللوحة الشهيرة. باختصار، اتخذت كل الاحتياطات اللازمة، حتى أنه عندما تتلاشى مستقبلًا رويدًا رويدًا سطوة شخصية الميچور هيرمان، سيظن بول ديلروز أن ألد أعدائه وافته المنية، ولن ينشغل تفكيره بك مرة أخرى. بيد أنه بحوزته الآن، عبر هذه الصورة، دليلًا دامغًا على وجود علاقة وثيقة بين الميچور هيرمان والصورة الشهيرة التي اصطدم بها ليلة زواجه، أي العلاقة التي تجمع بين الماضي والحاضر.

- حقًا، لكن الصورة التي عثر عليها في جيب بدلة جندي ميت لن تبلغ قدرًا كبيرًا من الأهمية إلا إذا تعرف على مصدرها، أي إذا قابل -على سبيل المثال- والد زوجته الكونت داند□يل.

- يقاتل الكونت داند□يل بين صفوف الجيش الإنجليزي، على مسافة ثلاثة فراسخ من بول ديلروز.

- هل يعلم بول وبرنارد ذلك؟

- لا، ولكن ربما تجمع المصادفة بينهما وبين الكونت. فضلًا عن ذلك، يتبادل برنارد مع والده إرسال الخطابات، ولا بد أنه أخبره بالأحداث المتعاقبة التي وقعت في قصر أورنكان، ولا سيما تلك التي شهدها بصحبة بول ديلروز.

- آه! لا يهمني ذلك، فهما يجهلان عددًا من الأحداث الأخرى. عثورهما على إليزابيث هو المفتاح الوحيد الذي سيمكنهما من فك شفرة أسرارنا وتخمين هويتي الحقيقة، لكنهما لن يعكفا على البحث عنها، طالما تيقنا بأنها في عداد الموتي.

- هل أنت واثق من ذلك، يا صاحب الفخامة؟

- ماذا تقصد؟

وقف المتواطئان الآن في مواجهة بعضيهما، وتبادلا النظرات المتسائلة. انتابت الميجور حالة من القلق والسخط الشديدين، وبدا الجاسوس ماكرًا بعض الشيء. حدق الميجور في وجهه قائلًا له: «تحدث، ما الأمر؟»

- صاحب الفخامة، تمكنت منذ فترة وجيزة من تفتيش حقيبة بول ديلروز. ليس لوقت طويل.. بل لبضع ثوانٍ فقط.. لكنها كانت كافية لرؤية شيئين في غاية الخطورة..

- تحدث بسرعة.

- في البداية، لاحظت الأوراق المتفككة لتلك المخطوطة التي أحرقت أهم صفحاتها كإجراء احترازي، لكنك لسوء الحظ، أضعت الجزء الأكبر منها.

- يوميات زوجته؟

- نعم سيدي.

أطلق الميجور بعض الكلمات البذيئة والشتائم.

- عليّ اللعنة! في مثل هذه الحالات، نحرق كل شيء! آه! لو لم يكن لدي هذا الفضول الغبي! وماذا أيضًا؟

- لا شيء تقريبًا سوى شظية من إحدى القذائف، نعم، شظية صغيرة للغاية، لكنه بدا لي أنها نفس الشظية التي أمرتني بأن أغرزها في جدار المنزل الصغير، بعد أن غلفتها بخصلات شعر إليزابيث. إذن، ماذا تظن يا صاحب الفخامة؟

ضرب الميجور الأرض بقدميه غاضبًا، وشرع يصب جام اللعنات والشتائم مرةً أخرى على رأس بول ديلروز.

كرر الجاسوس سؤاله: «إذن، ماذا تظن يا صاحب الفخامة؟»

صاح الميجور: «لديك حق، بإمكان هذا الملعون الفرنسي أن يضع إصبعه على الحقيقة المستترة عبر الاطلاع على مذكرات زوجته، أو من خلال شظية القذيفة تلك التي أبصرتها بحوزته، إنها أقوى الدلائل التي ربما تبرهن له على أن زوجته

ما زالت على قيد الحياة، وهذا ما سعيت جاهدًا ألا يعرفه. وإلا لكان الآن يكدر صفو عيشنا ويسعى إلى تعقبنا».

احتدم غضبه وجن جنونه.

- آه! كارل، هذا الشخص يزعجني ويؤرق فكري. هو وشقيق زوجته الشاب، يا لهما من وغدين! أقسم لك أن قلبي غُمر بالبهجة عندما ظننت أنك خلصتني للأبد منهما في تلك الليلة التي عدنا فيها إلى القصر، ورأينا اسميهما منقوشين على الجدار. إذا اكتشفا الآن أمر بقاء السيدة الشابة على قيد الحياة، سيفتشان عنها، ويصلان إليها. ولأن هذه الفتاة تعلم جميع أسرارنا! يجب أن نمحو ذكرها عن وجه الأرض يا كارل!

ضحك الجاسوس هازئًا: «وماذا عن الأمير؟»

- كونراد شخص أحمق. أفراد هذه العائلة الفرنسية سيلحقون الأذى بنا جميعًا، وأولنا كونراد الذي تملكته سذاجة عمياء حتى وقع في حب امرأة بلهاء. كان لزامًا علينا أن ننهي حياتها على الفور يا كارل، وألا ننتظر عودة الأمير، لقد صدر إليك الأمر قبلي..

تسلط ضوء المصباح المتوهج على وجه الميجور، وهنا برزت أبشع وأرهب ملامح يمكن تخيلها لوجه لص حقير قاطع طرق. لم تتبع بشاعة الملامح من تشوه الوجه، لكنها انبعثت عبر تعابيره المنفرة الفظة المثيرة للاشمئزاز. عندما ذكر الميجور هيرمان جريمة القتل التي أخفق في ارتكابها، بدا وكأنه يعاني آلامًا مبرحةً، كما لو كان يقتات على الجرائم كمصاصي الدماء ليتمكن من البقاء على قيد الحياة. اصطكت أسنانه غضبًا، واحتقنت عيناه بالدماء، قبض بأصابع يده على كتف شريكه متحدثًا إليه هذه المرة بالفرنسية بنبرة شاردة:

- كارل، يبدو أنهما سيفلتان من فخاخنا، وأن هناك قوة خفية تقيهم من بطشنا. أنت أخطأت ثلاث مرات التصويب عليهما خلال بضعة أيام، وفي قصر أورنكان، طعنت رجلين آخرين عوضًا عنهما. أخفقت أنا أيضًا ذات يوم في قتل بول، بالقرب من بوابة الغابة. وفي نفس هذه الغابة.. بجوار الكنيسة العتيقة.. منذ ستة عشر عامًا.. عندما كان طفلًا صغيرًا، أشهرت سكينك في وجهه، وأخفقت في قتله، هل تذكر ذلك؟ حسنًا، واليوم، لا تزال تواصل ارتكاب حماقاتك.. شرع الجاسوس في الضحك، وتعالى صوت قهقهته الوقحة والساخرة المتغطرسة.

- ماذا تريد أن تقول يا صاحب الفخامة؟ كنت حينئذ قد بدأت للتو مسيرتي المهنية الإجرامية، ولم أكن أمتلك نفس قدر شجاعتك ورباطة جأشك. أضحينا في مواجهة أب وابنه، لم نكن نعرفهما إلا منذ عشر دقائق، لم يرتكبا شيئًا سوى إثارة غضب القيصر. أعترف أن يديّ ارتعشتا في تلك اللحظة، بينما أنت.. آه! أنهيت حياة الأب في لحظة، أنت! طعنته بيدك الصغيرة طعنة مباغتة دون سابق إنذار، أفٍ! لقد فعلتها!

كان بول، هذه المرة، هو الذي يضع، ببطء وبحذر بالغ، طرف مسدسه في إحدى كوى الجدار. لم يعد يتملكه الشك الآن، بعد ما باح به كارل من أسرار خطيرة، أن الميچور هو الذي أنهى حياة والده. يقف القاتل الآن على مقربة منه! والمتواطئ معه اليوم، هو شريك جريمة الأمس، إنه الخادم الذي حاول قتله، في حين أن والده كان قد لفظ أنفاسه الأخيرة.

همس برنارد في أذن بول، بعد أن رآه يثبت طرف مسدسه في الكوة، قائلًا:

- اتخذت قرارك، أليس كذلك؟ هل سنطلق الرصاص الآن؟

همس بول: «انتظر إشارتي، لكن لا تطلق الرصاص على الميچور. صوب مسدسك باتجاه الجاسوس».

وبالرغم من كل هذا، راح بول يفكر في اللغز الغامض المعقد المتمثل في علاقة الميچور هيرمان ببرنارد داند□يل وشقيقته إليزابيث، ولم يقبل فكرة أن يقوم برنارد بأخذ الثأر من قاتل أبيه. تملكه الارتباك والحيرة، وبدا كأنه يقف أمام حادث مباغت يتعذر إدراك ملامحه. من هذا القاتل المتوحش؟ وما هويته الحقيقة؟ اليوم، هو الميچور هيرمان، وزعيم الجواسيس الألمان؛ والبارحة، رفيق الأمير كونراد، وصاحب النفوذ المطلق في قصر أورنكان، والشخص المتنكر في زي فلاحة الذي يجول ويصول في أرجاء كور□ينى شتى؛ وقبل ذلك، القاتل المتواطئ مع الإمبراطور، وسيدة قصر أورنكان العظيمة.. من هو الشخص الحقيقي من بين كل هذه الشخصيات التي لا تغدو سوى ظلال عديدة تعكس كيانًا وحيدًا متفردًا؟

أخذ بول يحدق متفحصًا وجه الميچور، مثلما فعل منذ قليل مع الصورة الفوتوغرافية، وقبل ذلك مع لوحة هيرمين داند□يل في الغرفة المُغلقة. هيرمان.. هيرمين.. امتزج الاسمان ببعضهما البعض داخل وجدانه.

لاحظ بول رقة وبياض يدي القاتل الصغيرتين اللتين تشبهان يدي امرأة. تزينت أصابعه النحيفة ببضع خواتم مرصعة بالأحجار الكريمة. لديه أيضًا قدمان رقيقتان تنتعلان حذاءً طويلًا. يبدو ذو وجهٍ شاحبٍ للغاية، لا يظهر فيه أي أثر للحيةٍ. بيد أن مظهره الأنثوي يتناقض تمامًا مع صوته الأجش، ومع ثقل حركته ومشيته.

وضع الميچور كلتا يديه على وجهه، وغرق في التفكير لبضع دقائق. نظر إليه كارل ببعض الشفقة، بدا وكأنه يتساءل ما إذا كان سيده يبدي، مستحضرًا من مستودع ذكرياته الجرائم الشنيعة التي ارتكبها، بعض الندم. بيد أن سيده استفاق من خدره وقال له بصوت يرتجف بالبغضة والحنق الشديد:

- اللعنة عليهما يا كارل، اللعنة على هؤلاء الذين يشكلون عقبة في طريقنا. لقد سلبت الحياة الأب، وحسنًا فعلت. سيأتي الدور، يومًا ما، على الابن.. الآن، حان دور السيدة الشابة.

- هل تود أن أتولى هذه المهمة، يا صاحب الفخامة؟

- لا، أحتاج إليك هنا، وأنا أيضًا بحاجة إلى أن أبقى هنا. الأمور تزداد سوءًا. سوف أغادر في بداية يناير إلى هناك. سأكون في إبريكورت في صباح اليوم العاشر من يناير. وبعد ذلك بثمان وأربعين ساعة، يجب أن يُحسم هذا الأمر. وسوف يُحسم، أقسم لك.

غرق الميچور مرةً أخرى في الصمت، بينما انفجر الجاسوس ضاحكًا. خفض بول جسده ليكون على نفس مستوى ارتفاع مسدسه عن الأرض. سيغدو مذنبًا إذا ظل خانعًا لحيرته الشديدة. لم يعد إنهاء حياة الميچور مجرد انتقام من قاتل والده، بل إجراء لا مفر منه لتفادي وقوع جريمة جديدة، ولإنقاذ حياة إليزابيث. يجب ألا يتوانى لحظة، مهما كانت العواقب وخيمة. اتخذ قرارًا نهائيًّا لا رجعة فيه. قال لبرنارد بصوت خفيض: «هل أنت متأهب؟

- نعم. أنا في انتظار إشارتك.

صوب مسدسه بهدوء ودقة نحو الميچور، مترقبًا اللحظة المواتية، كان على وشك أن يضغط على الزناد، عندما تحدث كارل بالألمانية:

- حسنًا، هل تعلم يا صاحب الفخامة ما الذي يتأهبون له بشأن منزل المهرب؟

- ماذا؟

- هجوم بلا أدنى شك. مئة متطوع من الوحدات العسكرية الإفريقية في طريقهم إليه الآن عبر المستنقعات. سيقع الهجوم عند الفجر. لا يزال أمامك بعض الوقت لإخطار المقر الرئيس والتأكد من الاحتياطات اللازمة التي ينوون اتخاذها.

صرح له الميچور ببساطة: «اتخذوا بالفعل جميع الإجراءات الاحترازية».

- ماذا تقول يا صاحب الفخامة؟

- أقول لك إنهم اتخذوا جميع احتياطاتهم. تلقيت تحذيرًا من جهة أخرى، وبما أنهم متمسكون للغاية بالتحصن داخل منزل المهرب، أجريت اتصالًا هاتفيًا مع قائد الموقع وأخبرته بأنه سيتم إمداده بثلاثمئة رجل في الخامسة صباحًا. سيسقط المتطوعون في الفخ الذي نُصب لهم. لن ينجو أحد منهم.

أطلق الميچور ضحكةً صغيرةً توحي بزهوه وإعجابه بنفسه، ثم هم برفع ياقة معطفه مردفًا:

- فضلًا عن ذلك، ولمزيد من الأمان، سأذهب لقضاء هذه الليلة في المنزل.. ولا سيما أنني أتساءل عما إذا كان قائد الموقع هو الذي أرسل بالفعل بعض الرجال إلى هنا ليحضروا إليه أوراق روزينتال بعد أن أعلم أنه فارق الحياة.

- لكن..

- كف عن الثرثرة. اعتنِ بأمر جثمان روزينتال، ودعنا نرحل.

- هل تود أن أرافقك يا صاحب الفخامة؟

- لا جدوى من ذلك. ستأخذني أحد القوارب إلى الضفة الأخرى من القناة. المنزل لا يبعد سوى أربعين دقيقة.

نزل ثلاثة جنود الدرج بناء على استدعاء الجاسوس لهم، وحُملت الجثة حتى الفتحة السرية العلوية. ظل الميچور وكارل واقفين عند سفح الدرج، لم يتحركا قيد أنملة، ثم وجه كارل المصباح الضخم الذي يحمله نحو الباب العلوي. همس برنارد: «هل نطلق النيران؟»

أجابه بول: «لا»

- لكن..

- لا تفعل شيئًا..

عندما أخرج الجنود الجثة من الفتحة العلوية، أصدر الميچور تعليماته لكارل قائلًا: «أنر الطريق جيدًا حتى أتمكن من الصعود، ولا تدع الدرج يتحرك من مكانه». صعد الميچور الدرج، ثم توارى عن الأنظار، لكنه صاح: «حسنًا، انتهى الأمر، اصعد بسرعة يا كارل».

صعد الجاسوس الدرج. تناهى إلى أذني الصهرين صوت وقع أقدام أعدائهم فوق سقف القبو. تباعدت خطواتهم رويدًا رويدًا باتجاه القناة، ولم تعد هناك أي ضجة.

صاح برنارد: «ما هذا الذي يحدث؟ ماذا دهاك يا بول؟ الفرصة كانت سانحةً أمامنا. كان بإمكاننا أن نسقط هذين اللصين جثتين هامدتين.

تحدث بول: «وماذا بعد، كان هناك اثنا عشر رجلاً في انتظارهما».

- كنت ستنقذ إليزابيث من بطش هذا الوحش! في الحقيقة، أنا لم أعد أفهمك. كيف حدث ذلك! لدينا مثل هذين المسخين في متناول رصاصات سلاحينا، ثم تدعهما يوليا أدبارهما! قاتل والدك وجلاد إليزابيث كانا على بعد خطوات منا وأنت تفكر في أمرنا!

أجابه بول ديلروز: «أنت لم تفهم العبارات الأخيرة التي تبادلاها يا برنارد. حُذّر العدو من الهجوم المرتقب وأُخطر بخطة الاستيلاء على منزل المهرب. المئة متطوع الذين يزحفون الآن في المستنقعات سيسقطون، في غضون فترة وجيزة، ضحايا لكمين قذر نُصب لهم؛ لذا فهؤلاء هم الأجدر بأن يشغلوا تفكيرنا. ليس من حقنا أن نودي بحياتنا، بينما لا يزال يتعين علينا أداء هذا الواجب. وأثق تمام الثقة بأنك توافقني الرأي».

- نعم، لكن بالرغم من ذلك كانت الفرصة مواتية لإراحة الناس من شرهما.

أكد له بول، الذي أخذ يفكر في منزل المهرب الذي قصده الميچور منذ بضع دقائق: «سنعثر عليهما مرةً أخرى، وربما قريبًا».

- إذن، ماذا نويت أن تفعل؟

- سأنضم إلى مفرزة المتطوعين. إذا اقتنع الملازم الذي يقودهم بوجهة نظري، لن ننتظر حتى الساعة السابعة كي نشن هجومنا، ولكن سنقاتلهم على الفور، وسيعود هذا الهجوم بالنفع علينا.

- وماذا عني؟

- عُد إلى الكولونيل، واشرح له ملابسات الموقف، ثم أخبره بأننا سنحتل هذا الصباح منزل المهرب، وسنواصل شن هجومنا حتى وصول التعزيزات.

افترق الصهران دون أن ينبسا بكلمة أخرى. اندفع بول بجرأة وثبات نحو المستنقعات.

لم يصادف بول في أثناء سيره العقبات التي توقع أن يصطدم بها. بعد أربعين دقيقة من السير المضني، تناهى إلى مسامعه صوت همهمة بعض الأشخاص، صاح بكلمة السر، واقتيد إلى الملازم.

أقنعت التفسيرات والتبريرات التي قدمها بول الضابط على الفور: كان من الضروري أن يُتخذ القرار إما بإلغاء الهجوم أو الإسراع في تنفيذه.

تقدم الرتل العسكري إلى الأمام لشن الهجوم.

تمكن الجنود في تمام الساعة الثالثة، بعد أن اقتادهم أحد الفلاحين، من الوصول إلى أطراف المنزل. لم تكن إشارة الهجوم قد أعطيت لهم بعد، بيد أن أحد الحراس شرع في إطلاق جرس الإنذار، وبدأ الهجوم الشرس. يُعد هذا النوع من الهجوم هو أفضل أسلحة الحرب، دقيق لأقصى حد، حتى أنه من اللازم ذكر أهم تفاصيله هنا. هجوم عنيف للغاية. قاوم العدو، الذي كان على أهبة الاستعداد، بنفس القدر من القوة والشراسة. تشابكت الأسلاك الشائكة، كثُرت الفخاخ. بدأ الاشتباك المحتدم أمام المنزل، ثم في قلب المنزل، وفي الوقت الذي قام فيه الفرنسيون المنتصرون بقتل وأسر ثلاثة وثمانين ألمانيًّا دافعوا بضراوة واستماتة عن المنزل، تكبدوا هم أنفسهم خسائر فادحة قللت عددهم إلى النصف.

كان بول في مقدمة من قفزوا داخل الخنادق التي أحاطت بالمنزل متجهة نحو اليسار، ثم امتدت في نصف دائرة وصولًا إلى نهر «إيسير». راودته إحدى الأفكار: أراد، قبل أن يكلل الهجوم بالنجاح، أن يقطع الطريق على الفارين المتقهقرين إلى الوراء. اندفع أولًا، ثم بلغ حافة النهر يتبعه ثلاثة متطوعين، اجتاز المياه، عبر القناة حتى وصل إلى الجانب الآخر من المنزل، ووجد -كما توقع- جسرًا من القوارب. لاحظ في تلك اللحظة ظلاً لأحد الأشخاص يضمحل في الظلام. تناهى إلى مسامعه صوت هذا الشخص يصيح في رجاله: «لا تبرحوا أماكنكم، ولا تدعوا أحدًا يمر». قفز هذا الشخص إلى الأمام مجتازًا الجسر، ثم شرع في الركض.

كان هناك كشاف ضوئي ينير الشاطئ، لاحظ بول مرة أخرى الشخص الذي رأى ظله آنفًا على بعد خمسين خطوة منه، ثم صاح بأعلى صوته:

- توقف! وإلا سأطلق نيران مسدسي.

واصل الهارب سيره، فأطلق بول رصاصة بجواره عازمًا ألا يصيبه.

توقف الرجل وأطلق النيران من مسدسه أربع مرات متتالية، بيد أن بول انحنى إلى الأسفل وألقى بنفسه بين ساقيه ثم طرحه أرضًا.

تمكن بول من السيطرة تمامًا عليه، فلم يبدِ العدو أية مقاومة تذكر. قيّد بول حركته داخل معطف يرتديه، قابضًا بقوة على حلقه.

ألقى بول، بيده الأخرى، ضوء مصباحه اليدوي بشكل مباشر على وجهه. لم تخدعه غريزته: ألقي القبض على الميچور هيرمان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث

منزل المهرب

لم ينبس بول ديلروز ببنت شفة. ربط معصمي أسيره خلف ظهره ودفعه أمامه، ثم عاد إلى الجسر وسط الظلام الدامس الذي أضاءته بعض الومضات القصيرة.

تواصل الهجوم، تسلل عدد من الجنود المنهزمين ليلوذوا بالفرار، بيد أن المتطوعين الذين تولوا مسؤولية حراسة الجسر استقبلوهم بإطلاق الأعيرة النارية باتجاههم. ظن الألمان أنهم هوجموا من الخلف، وعجلَ تشتيت الانتباه بهزيمتهم الساحقة.

عندما وصل بول، كانت المعركة قد انتهت. لكن الهجوم المضاد من قبل العدو، والمدعوم بالتعزيزات التي أخذ قائد الموقع وعدًا بها، ما فتئت أن أعادت تنظيم الخطوط الدفاعية على الفور.

يتألف منزل المهرب الذي حصنه الألمان بقوة وأحاطوه بالخنادق من طابق أرضي وطابق آخر علوي تحولت غرفه الثلاث إلى غرفة واحدة. ومع ذلك، بدت حجرة الدرج، التي كانت تستخدم فيما مضى كعُلية للخادم، والتي يمكن الوصول إليها عبر ثلاث درجات خشبية، كمخدع للنوم في الجزء الخلفي من هذه الغرفة المترامية الأطراف. قاد بول سجينه إلى هذه العلية. مدده على أرضية الغرفة، قيده بحبل وربطه بإحكام إلى عارضة خشبية، وبينما كان يوثقه، تملكته نوبة عارمة من الكراهية، حتى أنه أمسكه بقوة من رقبته كما لو كان يخنقه.

لقد نال منه. ما الطائل من التسرع؟ قبل أن يردي هذا الرجل قتيلًا أو يسلمه للجنود الذين سيلصقونه ميتًا بالجدار. ألم يكن من دواعي سروره أن يكشف له بعض الألغاز؟

عندما ولج الملازم الغرفة، صاح بول بهذه الكلمات كيما تتناهى إلى مسامع الجميع، ولا سيما إلى أذني الميجور:

- سيدي الملازم، أعهد إليك بهذا الوغد البائس، الذي لا يكون سوى الميجور هيرمان، أحد زعماء منظومة التجسس الألمانية. لدي دلائل تؤكد ما أقوله. إذا أصابني أي مكروه، أتوسل إليك بألا تهمله. وفي حال اضطرارنا إلى الانسحاب..

ابتسم الملازم قائلًا:

- افتراض غير مقبول. لن نتراجع لسبب وجيه هو أنني سأفجر -بالأحرى- هذا المنزل المتداعي. وبالتالي، سيتفجر الرائد هيرمان برفقتنا. لذا؛ كن هادئًا.

اتفق الضابطان على الإجراءات الدفاعية، وسرعان ما شرعا في التنفيذ.

في بداية الأمر، فكّك جسر القوارب، وحُفرت الخنادق على طول القناة، ونُصبت المدافع الرشاشة. وضع بول جدرانًا من الأكياس الرملية في الطابق العلوي مدعمًا الأجزاء التي بدت أقل صلابة في جدران الغرفة.

في تمام الساعة الخامسة والنصف، وتحت أضواء الكاشفات الألمانية الساطعة، سقطت عدة قذائف في المناطق المجاورة. أصابت إحدى القذائف المنزل. انطلقت على الطريق الموازي، قبل بزوغ الفجر بفترة وجيزة، مفرزة عسكرية فرنسية من راكبي الدراجات يتقدمها برنارد داندﷺيل، حيث أُرسلت على عجالة.

أوضح برنارد للملازم أنه تم انطلاق سريتين عسكريتين، ووحدة من سلاح المنقبين العسكريين، تتقدمهم كتيبة كاملة، بيد أن قذائف العدو أعاقت مسيرتهم، فاضطروا إلى التحرك بمحاذاة المستنقعات، في مأمن من القذائف، على المنحدر الداعم للطريق الموازي؛ لذا أضحى تقدمهم بطيئًا للغاية، ويجب انتظارهم لمدة ساعة على الأقل.

أجابه الملازم: «ساعة على الأقل، هذا وقت طويل. لكن سنصمد أمام هؤلاء الأوغاد. إذن..

في أثناء إصدار أوامر جديدة، وتحديد تمركزات الجنود راكبي الدراجات، ظهر بول، وكان على وشك أن يخبر برنارد بأسر الميجور هيرمان، إلا أن شقيق زوجته زف إليه هذا الخبر:

- أتعلم يا بول، أبي هنا برفقتي.

انتفض بول متسائلًا: «والدك هنا؟ هل أتى والدك برفقتك؟

- بالطبع، وبأكثر الطرق تلقائية في العالم. لك أن تتخيل أنه يسعى إلى إدراك هذه الفرصة منذ وقت بعيد.. آه! بالمناسبة، لقد عُيّن مترجمًا برتبة ملازم ثانٍ.

لم يبدِ بول أي اهتمام لما تفوه به برنارد، لكنه قال لنفسه:

- السيد داندﷺيل هنا.. السيد داندﷺيل، زوج الكونتيسة هيرمين. هل يجهل مخططاتها؟ هل وافتها المنية أم باقية على قيد الحياة؟ أم ظل هو حتى آخر لحظة من عمرها ضحية لخداع سيدة قبيحة تدبر المكايد؟ ولكن لا، ما حدث يعدُ ضربًا من ضروب الخيال، كيف تُرسل صورة من برلين التقطت عقب وفاتها بأربع سنوات، إلى الكونت! إذن هو يعلم كل شيء، ولذلك..

تملكت بول حالة من الاضطراب والتشويش الذهني. كشفت له الأسرار التي باح بها كارل عن الوجه الآخر للسيد داندﷺيل. وها قد شاءت الأقدار وجلبت له السيد داندﷺيل، في نفس اللحظة التي أُلقى فيها القبض على الميجور هيرمان!

استدار بول ملتفتًا إلى حجرة الدرج. لم يتحرك الميجور قيد أنملة، ووجهه ما زال ملتصقًا بالجدار.

قال بول لشقيق زوجته: «إذن، لا يزال أبوك في الخارج؟»

- نعم، استقل دراجة أحد الرجال الذين كانوا يهرلون بجوارنا، والذي أُصيب بجروح طفيفة. تقدم والدي لعلاجه والاعتناء به.

- اذهب وأحضره إذا كان الملازم لا يمانع..

قاطعهما انفجار إحدى القذائف التي اخترقت شظاياها الأكياس الرملية المتراكمة أمامهما. بزغت أشعة شمس يوم جديد. تمكنا من رؤية رتل عسكري لجيش العدو تلوح ظلاله في الأفق على مسافة ألف مترٍ على الأكثر.

صاح الملازم من الأسفل: «انفصلوا عن بعضكم البعض، ولا تطلقوا النيران قبل أن أصدر لكم الأمر. تواروا جميعكم عن أعين العدو».

تمكن بول والسيد داند□يل، عقب مرور ربع ساعة، ولمدة أربع أو خمس دقائق فقط، أن يتبادلا بطريقة غير مترابطة بعض العبارات، حتى أن بول لم يكن لديه الوقت ليتساءل بشأن ردة الفعل التي ستصدر عنه في مواجهة والد إليزابيث. لاحت دراما الماضي، وانكشف الدور الذي لعبه زوج الكونتيسة هيرمين في هذه الدراما السخيفة، اختلطت جميع هذه الأفكار في ذهن بول في أثناء الدفاع المستميت عن هذا الحصن الصغير. وعلى الرغم من علاقة المصاهرة التي تربط بينهما، ترددت يد كل منهما في مصافحة الأخرى.

انهمك بول في سد نافذة صغيرة بفضل بعض الحَشِيَّات. تمركز بول في الطرف الآخر من الغرفة، فقال له السيد داند□يل:

- هل أنت واثق بأننا سنتمكن من الصمود أمامهم؟

- بالتأكيد، ما دامت المسؤولية تحتم علينا ذلك.

- نعم، يجب بذل الغالي والنفيس. كنتُ في فرقتي العسكرية أمس بصحبة جنرال إنجليزي، عندما اتخذ قرار الهجوم، ألحقت بفرقتي كمترجم فوري. يبدو أن هذا الموقع حيوي للغاية، ولا مفر من التمسك به. عندئذ، وجدت الفرصة سانحةً أمامي لألتقي بك مرة أخرى يا بول. كنت على علم بموقع تمركز كتيبتك؛ لذا طلبت مرافقة القوات المكلفة بـ..

توقف عن الحديث مرةً ثانيةً. اخترقت قذيفة سقف المنزل وثقبت الواجهة المقابلة للقناة.

- هل تأذى أحد؟

أجاب الجنود: «لا، جميعنا بخير».

واصل السيد داند□يل حديثه بعد هنيهة:

- الشيء الأكثر إثارة للفضول هو أنني عثرت بالمصادفة على برنارد في مسكن الكولونيل ليلة البارحة. لك أن تتخيل مقدار الفرحة التي غمرتني عندما رافقت راكبي الدراجات. لم يكن لدي خيار آخر للبقاء قليلًا بجوار صغيري برنارد وللمجيء كي أصافح يدك.. لم تعد تصلني أية أخبار من إليزابيث المسكينة، وأخبرني برنارد..

سأله بول بنبرة متحمسة: «هل أخبرك برنارد بكل ما حدث في القصر؟»

- على الأقل كل ما تمكن من معرفته. ولكن هناك العديد من الأحداث المبهمة الأخرى التي لا أجد لها تفسيرًا، والتي، وفقًا لما أوضحه برنارد، يمكنك إعطاء تفسير لها مستندًا على معلوماتك الأكثر دقة. كذلك أود أن أطرح عليك سؤالًا ملحًا: «لماذا مكثت إليزابيث في أورنكان؟»

- هي من رغبت في البقاء، ولم تبلغني بقرارها إلا بعد فترة طويلة عبر إحدى الرسائل.

- أعلم ذلك. لكن لماذا لم تصطحبها معك يا بول؟

- عندما غادرت أورنكان، اتخذت الترتيبات اللازمة كافة، والتي تُمكنها من المغادرة.

- لا بأس، ولكن كان يتوجب عليك ألا ترحل من دونها.

تحدث السيد داند□يل بنبرة قاسية، ولأنه وجد بول غارقًا في الصمت، ألح عليه قائلًا: «لماذا لم تصطحب إليزابيث؟ أخبرني برنارد بوقوع بعض الأحداث بالغة الخطورة، والتي ألمحت له بأنها أحداث استثنائية. ربما يمكنك أن تشرح لي..

بدا بول وكأنه يستشعر عداءً مستترًا صامتًا يضمره له صهره، وهذا ما أثار سخطه واستياءه، ولا سيما أن تصرفات الكونت، وإيماءاته بدت في تلك اللحظة محيرة ومثيرة للقلق الشديد.

أجابه بول متسائلاً: «هل تعتقد أن هذا وقتًا مناسبًا للخوض في هذه الأحاديث؟»

- بالطبع، بالطبع، من الممكن أن ينفصل كلانا عن الآخر في أي لحظة..

لم يدعه بول ينهي حديثه. استدار ناحيته بغتة ثم صاح بصوت عالٍ:

- أنت على حق يا سيدي! سيبدو الأمر مفزعًا للغاية إذا لم أتمكن من الإجابة عن أسئلتك، وإذا لم تتمكن أنت من الرد على استجوابي لك. يعتمد مصير إليزابيث على بعض عبارات تصدر من فاهَيْنَا نحن الاثنان. ذاك لأن الحقيقة المستترة قائمة بيننا، وكلمة واحدة كافية لتسليط الضوء عليها، ونحن في عجلة من أمرنا. نحن بحاجة إلى التحدث الآن، مهما كلفنا ذلك من ثمن.

تفاجأ داند□يل من حدة انفعاله، وأشار بيده:

- أليس من الأفضل أن نستدعي برنارد؟

- لا، لا على الإطلاق! يجب ألا يعرف شيئًا، ما دام الأمر يتعلق بـ..

سأله السيد داند□يل الذي تزايدت شيئًا فشيئًا دهشته: «ما دام الأمر يتعلق بمن؟»

سقط أحد الجنود بالقرب منهما جراء إصابته برصاصة. اندفع بول نحوه. أصيب الجندي في جبهته، وفارق الحياة على الفور. اخترقت رصاصتان أخريان فتحة كبيرة عكف بول على سدها جزئيًا.

واصل داند□يل حديثه، في أثناء معاونة بول في سد الفتحة:

- قلت يجب ألا يسمع برنارد ما نقوله لأن الأمر يتعلق بمن؟

أجاب بول: «لأنه يتعلق بوالدته»

- بوالدته؟ كيف ذلك! كيف يتعلق الأمر بوالدة برنارد؟ بزوجتي؟ أنا لا أفهم شيئًا.

عبر كوى إطلاق القذائف، رُصدت ثلاث أرتال عسكرية لجيش العدو يتقدمون فوق السهول المغمورة بالمياه، وعلى الجسور الضيقة المقاربة للقناة في مواجهة منزل المهرب.

قال الملازم مصدرًا تعليماته إلى المتطوعين الذين جاؤوا لتفحص التحصينات الدفاعية: «عندما يقتربون على بعد مئتي مترٍ من القناة، أطلقوا النيران بلا هوادة، ولكن شريطة ألا تلحق مدافعهم ضررًا كبيرًا بهذا المنزل المتداع!»

تساءل بول: «وماذا عن تعزيزاتنا؟».

- سيصلون في غضون ثلاثين إلى أربعين دقيقة. سننتظر حتى تقوم السرية 75 بإنجاز عمل بطولي.

تزايدت أعداد القذائف السابحة في الفضاء الفسيح. سقط البعض منها وسط الأرتال الألمانية، والبعض الآخر حول الحصن الصغير.

ركض بول في شتى الأرجاء، مثيرًا الحماسة في نفوس رجاله، مسديًا لهم بعض النصائح.

يقترب بول بين الفينة والأخرى من حجرة الدرج ليتحقق من وجود الرائد هيرمان. ثم يعود إلى موقعه.

لم يتوقف للحظة واحدة عن التفكير في الواجب الذي فُرض عليه كضابط مقاتل، وما سيتوجب عليه قوله لداند□يل. سلبت هاتان الفكرتان الممتزجتان كلاهما بالأخرى كلَّ وعيه وصفائه، ولم يكن يدري كيف يحلل الأحداث لصهره وكيف يتعامل مع موقف لا يحسد عليه. استجوبه السيد داند□يل عدة مرات، ولم يمنحه جوابًا شافيًا.

دوى صوت الملازم: «انتبهوا! صوبوا أسلحتكم! أطلقوا النيران!»

تكرر هذا الأمر أربع مرات متتالية.

بدا الرتل الأكثر قربًا، والذي أُبيد الكثير من جنوده، مترنحًا ومتراجعًا. بيد أن الرتلين الآخرين انضمَّا إليه، وشكلوا جميعهم رتلًا واحدًا.

انفجرت قذيفتان ألمانيتان فوق سطح المنزل. اقتلع السقف بغتة، وهُدمت بضعة أمتار من الواجهة، وقع ثلاثة قتلى.

ساد الهدوء بعد حالة الفزع والاضطراب. استشعر بول الخطر الذي يحدق به وبرفقائه، حتى أنه عجز لفترة طويلة عن تمالك أعصابه. حسم أمره فجأة، ثم صرخ في وجه داند□يل معنفًا إياه، ودون أن يبحث عن أية مقدمات، توجه نحوه قائلًا:

- بادئ ذي بدء.. يجب أن أعرف شيئًا واحدًا.. هل أنت واثق بأن الكونتيسة داند□يل قد وارى جثمانها الثرى؟

ثم أردف على الفور:

- نعم، يبدو سؤالي سخيفًا في وجهة نظرك.. يبدو لك هكذا لأنك تجهل الكثير والكثير، لكنني لست مصابًا بالجنون، وأطلب منك أن تجيبني على هذا السؤال، لأنني سأفسر لك لاحقًا ماهيته. هل وافت المنية الكونتيسة هيرمين؟

تمالك السيد داند□يل نفسه، وقبل طواعية، وفقًا لأمر بول، أن يستسلم لحالة ذهنية غير مألوفة، ثم تساءل: «هل هناك سبب واحد يدعوك للاعتقاد بأن زوجتي ما زالت على قيد الحياة؟

- لدي أسباب كثيرة ووجيهة للغاية، وأجرؤ على القول إنها أدلة غير قابلة للدحض.

هز السيد داند□يل كتفيه متعجبًا، وقال بنبرة حازمة:

- ماتت زوجتي بين ذراعيّ، وشعرت بيديها المتجمدتين حينما لامستهما شفتاي. أحسست ببرودة الموت التي تغدو مرعبة عندما تتسلل إلى أجساد من نحب. كفّنت جثمانها بنفسي برداء زفافها منصاعًا لرغبتها، كنت بجوارها عندما دُقت المسامير في نعشها. وماذا بعد ذلك؟

أنصت بول إليه مفكرًا: «هل نطق بالحقيقة؟ نعم، ولكن، هل يجب أن أصدق ما قاله؟»

كرر السيد داند□يل سؤاله بنبرة أكثر حزمًا: «وماذا بعد ذلك؟»

واصل بول حديثه: «بعد ذلك، يبرز سؤال آخر.. ألا وهو: هل صورة زوجتك المعلقة على جدار غرفة معيشتها هي صورتها الحقيقية؟»

- بالطبع، صورتها كاملة الطول..

- تلك الصورة التي ترتدي فيها وشاحًا من الدانتيل الأسود الملتف حول كتفيها، أليس كذلك؟

- بلى، وشاح أحبت ارتداءه كثيرًا.

- معقود من الأمام بدبوس زيني مؤطر بثعبان مذهب، أليس كذلك؟

- بلى، جزع منقوش كانت والدتي قد منحتي إياه، ووضعته زوجتي طوال الوقت.

استبدت ببول حماسة عفوية، وأضحت تأكيدات الكونت بالنسبة إليه بمثابة اعترافات صادمة لا تقبل الجدل، أخذ يرتجف غيظًا وراح يسرد له:

- سيدي، أنت لم تنس أن والدي مات مقتولًا، أليس كذلك؟ تجاذبنا معًا عدة مرات أطراف الحديث بشأن هذا الحادث الدموي، كان والدي أحد أصدقائك المقربين. حسنًا، المرأة التي أنهت حياته، ورأيتها بعيني كلتيهما، ونُحتت تفاصيل صورتها في ثنايا عقلي، كان يلتف حول كتفيها وشاح من الدانتيل الأسود، وتعلق بصدارها جزع

منقوش مؤطر بثعبان مذهب. تلك المرأة هي التي رأيت صورتها في غرفة زوجتك.. نعم تفاجأت برؤية صورتها مساء يوم زواجي.. هل اتضحت لك الأمور بعد؟ هل تدرك ما أقول؟

خيم الصمت على ظلال هذه اللحظة المأساوية الموجعة التي جمعت بين الرجلين. ارتجف داند□يل قابضًا بيديه كلتيهما على بندقيته.

تساءل بول، حيث تضاعفت الشكوك بداخله حتى أضحت اتهامات حقيقية ومباشرة: «ولكن، لماذا يرتجف هكذا؟ هل يرتعش خوفًا أم يرتجف غضبًا جراء افتضاح أمره؟ هل يجب اعتباره متواطئًا مع زوجته؟ لأنه في النهاية...

شعر السيد داند□يل أن ذراعه يتلوى إثر صدمة عنيفة، ثم تلعثم مستشيطًا غضبًا:

- أتجرؤ على قول ذلك! زوجتي أنا هي قاتلة أبيك! لا بد أنك ثمل! زوجتي التي بدت قديسة أمام الله وفي أعين الجميع! وأنت تجرؤ؟ آه! لا أدري ما الذي يعوقني عن تحطيم وجهك.

أفلت بول بعنف من بين يديه. ارتعد الاثنان بسبب ارتفاع ضجيج القتال المحموم بغتة، واحتدام نيران المعركة، كانا على وشك أن يتضاربا بالأيدي وهما ينصتان إلى صفير القذائف والرصاص من حولهما.

انهار جزء آخر من الجدار. أصدر بول بعض الأوامر، في حين أن ذهنه بدا منشغلًا بالميجور هيرمان المقيد في إحدى الزوايا، حيث تمنى أن يقتاد السيد داند□يل ليمثُل أمام الميجور معتبرًا إياه مجرمًا عاتيَ الإجرام يقف في مواجهة الأفعى المتواطئ معه في جرائمه. ولكن لماذا لا يُقدم على تلك المواجهة؟

تذكر بول فجأة صورة الكونتيسة هيرمين التي عثر عليها في حافظة الجاسوس الألماني روزينتال، ثم هم بإخراجها من جيبه.

قال للسيد داند□يل، واضعًا صورة الكونتيسة نصب عينيه: «وماذا عن هذه الصورة، أتعلم شيئًا بشأنها؟ انظر إلى التاريخ الذي كتُب عليها: 1902. بيد أنك تزعم أن الكونتيسة هيرمين قد وافتها المنية؟ هيا! أجبني: التُقطت الصورة في برلين، وأرسلتها لك زوجتك عقب مرور أربع سنوات من وفاتها!»

ترنح السيد داند□يل. بدا وكأن غضبه يتلاشى ويتبدل بذهول منقطع النظير. وضع بول أمام عينيه دليلًا لا يقبل الجدل يتمثل في قطعة من الورق المقوى، وسمعه يتمتم: «من سرق مني هذه الصورة؟ كانت من ضمن أوراقي التي تركتها في باريس.. ولكن لماذا لم أمزقها؟»

ثم أردف بصوت خفيض للغاية: «أوه! هيرمين، حبيبتي هيرمين!»

ألم يكن هذا اعترافًا صريحًا؟ ولكن ما المقصود إذن باعتراف مصحوب بهذا الفيض من المشاعر، وبكلمات ودٍ وحبٍ غير مصطنعة تجاه امرأة تلاحقها الجرائم والعار والأعمال الشائنة؟

صاح الملازم من الطابق الأرضي:

- ليتقدم الجميع إلى الخنادق الأمامية، باستثناء عشرة رجال. ديلروز، ابق مع خيرة الجنود الرماة، وأطلق النيران كيفما تشاء!

نزل المتطوعون على عجالة إلى الطابق الأرضي بقيادة برنارد. وبالرغم من الخسائر الفادحة التي تكبدها العدو، راح يقترب شيئًا فشيئًا باتجاه القناة. سعت مجموعة من طلائع الجنود الألمان، المتجددة بتعزيزات مستمرة، والمتقدمة يمينًا ويسارًا، جاهدة إلى تجميع القوارب الجانحة على الضفة. وإزاء الهجوم الوشيك، هَمَّ ملازم الجنود المتطوعين بضم رجاله إلى الخطوط الأمامية، في حين كُلّف الجنود الرماة بإطلاق النيران بلا هوادة، وهم أسفل سيل جارف من القذائف الصاروخية. سقط خمسة من هؤلاء الرماة الواحد تلو الآخر.

تمركز كل من بول والسيد داند□يل بالتناوب في العديد من الأماكن، بينما كانا يتشاوران مع بعضهما البعض بشأن الأوامر التي يجب إصدارها والإجراءات التي يتعين اتخاذها. تضاءلت فرصة مقاومة العدو نظرًا لتناقص أعداد الجنود. لكن ربما بإمكانهم الصمود قليلًا حتى وصول التعزيزات، ذاك الأمر الذي سيضمن السيطرة على الحصن.

توقفت المدفعية الفرنسية عن إطلاق النيران، لم تكن قادرة على التصويب بدقة نظرًا لتلاحم المقاتلين ببعضهم البعض، وفي الوقت ذاته، أضحى المنزل هدفًا مباشرًا تنهال عليه قذائف المدفعية الألمانية من كل صوب. لم يتوقف للحظة انفجار القذائف.

أُصيب جندي آخر بجروح بالغة، ونُقل إلى حجرة الدرج بجوار الميجور هيرمان، بيد أنه لفظ أنفاسه الأخيرة بعد ثوان معدودة. في الخارج، احتدم لهيب المعركة على ضفة القناة وعلى مائها، على متن القوارب ومن حولها. اشتباكات عنيفة، جلبة صاخبة، صيحات كراهية، وصيحات توجع، صيحات رعب وأناشيد نصر.. قال بول للسيد داند□يل:

- أخشى أننا سنخسر المعركة قبل أن تمتد يد العون إلينا؛ لذا يتوجب عليَّ أن أحذرك من أن الملازم اتخذ الترتيبات اللازمة لتفجير المنزل. ولأن وجودك هنا وليد الصدفة، دون تكليفك بمهمة تمنحك لقب أو..

اعترضه داند□يل قائلًا: «أنا هنا كمواطن فرنسي، وسأبقى هنا حتى ألفظ أنفاسي الأخيرة»

- إذن، ربما يكون لدينا بعض الوقت لننهي الجدل حول قضيتنا. أنصت إليّ جيدًا يا سيدي. سأحاول أن أكون موجزًا قدر الإمكان، ولكن إذا تفوهت بكلمة واحدة مبهمة، أطلب منك أن تقاطعني على الفور.

أدرك الكونت أن هناك ظلمة شاسعة تقف حائلًا بينهما، وأنه، سواء كان مذنبًا أم لا، متواطئًا أو مخدوعًا من زوجته، عليه أن يعرف الأسرار التي يخبِّئها بول بين ضلوعه، والتي لن تتضح جليًا إلا عبر عرض كافٍ ودقيقٍ للأحداث.

شرع بول في الحديث بهدوء تام، بينما استمع الكونت له غارقًا في صمت مهيب. لم يكفّ عن إطلاق النيران، واكتتاف بنادقهما، وتصويبها نحو العدو، وتعبئتهما بالذخيرة بتأنٍ تام، كما لو كانا يتدربان. واصل الموت عمله الدؤوب وخيم بشراسة فوق رأسيهما، ومَن حولهما.

لم يكد بول يفرغ من سرده واقعة وصوله إلى أورنكان برفقة إليزابيث، ودخول الغرفة المغلقة، وارتعاده خوفًا أمام الصورة كاملة الطول، حتى انفجرت قذيفة ضخمة فوق رأسيهما وتناثرت عليهما شظاياها.

أُصيب المتطوعون الأربعة. سقط بول أرضًا مصابًا في رقبته، وعلى الفور -بالرغم من أنه لم يتألم بشدة- انتابه شعور بأن أفكاره تضمحل تدريجيًا كالضباب دون أن يتمكن من كبح زمامها. سعى جاهدًا، بمعجزة الإرادة، أن يتشبث بما تبقى بداخله من حماسة وطاقة كي تمنحاه فرصة الاحتفاظ ببعض الأفكار والانطباعات. أبصر صهره راكعًا على ركبتيه إلى جواره، وتمكن من أن يخبره قائلًا:

- يوميات إليزابيث.. سوف تجدها في حقيبة سفري، في المخيم.. مع بعض صفحات كتبتها لي.. سوف تتضح لك الأمور أكثر.. ولكن عليك أن تنظر إلى حجرة الدرج، هناك ضابط ألماني موثق هناك.. إنه جاسوس.. راقبه.. اقتله.. وإلا، يوم العاشر من يناير.. لكنك ستنهي حياته، أليس كذلك؟

لم يعد بإمكان بول مواصلة الحديث. لكنه فضلًا عن ذلك، لاحظ أن داند□يل لم يظل راكعًا على ركبتيه منصتًا إليه ويداويه، بل رآه جريحًا، ووجهه غارق في الدماء، ثم في النهاية منبطحًا على الأرض يتصاعد رويدًا رويدًا صوت أنينه المكتوم.

ساد هدوء عظيم على الغرفة المترامية الأطراف، ثم دوى انفجار بعض القذائف. لم تعد المدافع الألمانية تطلق نيرانها. من المتوقع أن يتوج هجوم العدو بنجاح مبهر. ظل بول عاجزًا عن الحركة، منتظرًا الانفجار الهائل الذي أعلن عنه الملازم.

ذكر اسم إليزابيث عدة مرات، وتيقن أنها في مأمن الآن ولم يعد الخطر يحدق بها، سيلقي الميجور هيرمان حتفه أيضًا. فضلًا عن ذلك، سيتولى برنارد قضية الدفاع عن شقيقته. ولكن، في نهاية المطاف، تلاشت هذه الحالة من اليقين والهدوء، وتبدلت بقلق وهلع شديدين، ثم بألم مرير. هل هذا كابوس مفزع أم هلوسة مرضية قد انتابته؟ كل هذا يحدث بجوار حجرة الدرج التي اقتاد إليها الميجور هيرمان، حيث ترقد هناك جثة أحد الجنود؟ يا للهول! تراءى له أن الميجور هيرمان يفك أصفاده، ثم يستشيط غضبًا متطلعًا حوله.

فتح بول عينيه بكل ما أوتي من قوة، وسعى جاهدًا أن يبقيهما مفتوحتين. بيد أن ظلًا تكاثف شيئًا فشيئًا حاجبًا الرؤية عن عينيه، واستطاع أن يلمح عبر هذا الظل، الميجور هيرمان يخلع معطفه، ثم ينحني نحو جثة الجندي منتزعًا منه معطفه العسكري الأزرق. يسرع الميجور في ارتداء معطف الجندي، ثم يضع قبعته العسكرية على رأسه، يأخذ بندقيته، وجراب بندقيته الجلدي، وذخيرته، وهكذا، يتحول إلى شخص آخر نازلًا الدرجات الخشبية الثلاث.

يا له من مشهد مثير للفزع! يأمل بول في أن ينتابه الشك فيما أبصره وأن يتيقن من رؤية شبح جراء اضطرابه وهذيانه. لكن كل شيء من حوله يؤكد حقيقة المشهد المروع. تفاقمت معاناته لأقصى حد ممكن. فر الميچور هاربًا!

انتابت بول حالة من الوهن الشديد حتى أنه لم يتأمل تفاصيل المشهد. هل فكر الميچور في قتله أو قتل السيد داند□يل؟ هل علم الميچور أنهما جريحان موجودان بجواره وفي متناول يديه؟ هناك العديد من الأسئلة التي لم يطرحها بول على نفسه. فقط فكرة واحدة هي التي استحوذت على ذهنه المشتت الخائر: الميچور هيرمان فر هاربًا. سيتسلل وسط المتطوعين بفضل الزيّ العسكري الذي يرتديه! وسينتهز أية فرصة للانضمام إلى صفوف الألمان! سيغدو حرًا طليقًا! وسيُقدم على تعذيب إليزابيث حتى الموت!

آه! هل من الممكن أن يقع الانفجار! ليت منزل المهرب ينفجر ويسقط الميچور قتيلًا..

ظل بول متشبثًا بهذا الأمل، وهو فاقد وعيه تمامًا. ومع ذلك، أخذ عقله يترنح، وتشوشت أفكاره. غرق في غياهب الظلام، حيث لم يعد يبصر شيئًا، أو يسمع صوتًا.

بعد مرور ثلاثة أسابيع، ترجل الجنرال القائد الأعلى للقوات المسلحة عن سيارته أمام مدخل درج قصر في منطقة «بولوني»، كان قد تحول إلى مستشفى عسكري.

انتظره الضابط الإداري أمام باب القصر.

- هل أُخطر الملازم الثاني ديلروز بزيارتي؟

- نعم سيدي الجنرال.

- اصطحبوني إذن إلى غرفته!

كان بول ديلروز مستيقظًا، ويلتف حول رقبته قماش قطني. بيد أن وجهه كان هادئًا، ولم تبدُ فيه أية آثار للإجهاد والتعب.

ولشدة تأثره بوجود القائد الأعلى الذي أنقذ بفضل حزمه ورباطة جأشه فرنسا من هوة الضياع، أدى التحية العسكرية على الفور. بيد أن الجنرال مد له يده وصاح بنبرةٍ ودودةٍ: «تفضل بالجلوس أيها الملازم ديلروز.. قصدت قول ملازم، هذه رتبتك الجديدة التي حصلت عليها البارحة. لا، لا داعي للشكر. نحن مدينون لك بالكثير. إذن، أراك الآن تقف على قدميك، أليس كذلك؟

- بالطبع سيدي القائد. لم يكن جرحي شديد الخطورة.

- هذا رائع. أنا فخور للغاية بجميع ضباطي. ولكن -بالرغم من ذلك- ضابطًا جسورًا مثلك لا يقدر بدزينة من الرجال. سلمني الكولونيل تقريرًا خاصًا بشأنك، يعرض فيه سلسلة من الأحداث الفريدة من نوعها، وإني لأتساءل عما إذا كان بإمكاني أن استثنيك من القاعدة التي فرضتها على نفسي وأقوم بعرض هذا التقرير على الملأ.

- لا، أرجوك يا سيدي الجنرال.

- لديك حق يا صديقي، شرف البطولة يحثك على أن تكون مجهولًا، ويجب أن تحظى فرنسا فقط بكل المجد في الوقت الحاضر؛ لذا سأكتفي باستدعائك مرة واحدة لأمنحك وسام صليب التحرير الذي رُشحت له.

- سيدي الجنرال، لا أعرف كيف..

- إلى جانب ذلك، يا صديقي العزيز، إذا رغبت في أي شيء، فأنا ألح عليك بشدة أن تمنحني هذه الفرصة لأسدي لك أية خدمة، سيغدو هذا من دواعي سروري.

أومأ بول برأسه مبتسمًا. تسربت راحة عميقة إلى أعماقه جراء بساطة قلب القائد واهتمامه منقطع النظير بأحد رجاله.

- هل بإمكانك أن تسدي لي معروفًا، سيدي الجنرال؟

- تفضل!

- حسنًا سيدي الجنرال، هذا ما ألتمسه من سيادتكم. أولًا، إجازة نقاهة لمدة أسبوعين، تبدأ من يوم السبت التاسع من يناير، أي اليوم الذي سأغادر فيه المستشفى.

- هذا ليس معروفًا، بل هو حق واجب.

- حسنًا، سيدي الجنرال. لكن سيكون لديَّ الحق في قضاء هذه الإجازة أينما أريد.

- موافق

- بالإضافة إلى ذلك، سأحمل في جيبي تصريحًا بالتنقل مكتوبًا بخط يدك سيدي الجنرال، تصريحًا يمنحني الحرية الكاملة في الذهاب والإياب عبر الحدود الفرنسية وطلب أي دعم في أي وقت.

حدق الجنرال في وجه بول للحظة، ثم تفوه قائلًا:

- ما تطلبه مني يُعد أمرًا بالغ الخطورة يا ديلروز.

- أعلم سيدي الجنرال، لكن الخطوة التي سأقدم عليها لا تقل خطورة أيضًا.

- ليكن ذلك. موافق، وماذا أيضًا؟

- سيدي الجنرال، شارك معي الرقيب برنارد، شقيق زوجتي، في الهجوم على منزل المهرب. أصيب مثلما أصبت في أثناء المعركة، ونُقِلَ إلى هذا المستشفى. سيتمكن -على الأرجح- من المغادرة في اليوم نفسه الذي سأغادر فيه. أتمنى أن يُمنح مدة الإجازة نفسها وتصريحًا بمرافقتي.

- موافق، وماذا أيضًا؟

- أُصيب والد برنارد، الكونت ستيفان داند□يل، مترجم برتبة ملازم ثانٍ في الجيش الإنجليزي، بجروح غائرة في أنحاء جسده شتى في ذلك اليوم نفسه عندما كان

بجواري. علمت أن إصابته، بالرغم من شدتها، لا تَعرض حياته للخطر، وأنه نَقل إلى مستشفى إنجليزي.. أجهل في الواقع اسمه. ألتمس من سيادتكم أن تحضروه إلى هنا بمجرد أن يسترد عافيته، وأن يتم التحفظ عليه إلى حين عودتي وإطلاع سيادتكم على تفاصيل المهمة التي سأشرع في تنفيذها.

- موافق. أهذا كل شيء؟

- تقريبًا كل شيء سيدي الجنرال. يتبقى لي فقط أن أتوجه لكم بجزيل شكري على لطفكم البالغ، وأطلب من سيادتكم قائمة بأسماء عشرين أسيرًا فرنسيًّا، محتجزين في ألمانيا، يحظون باهتمام خاصٍ من قبلكم. سيُطلق سراح هؤلاء الأسرى في غضون أسبوعين على أقصى تقَّدير.

- أحقًا؟

بدا الجنرال مذهولًا قليلًا، بالرغم من رباطة جأشه، ثم كرر هذه الكلمات:

- إطلاق سراحهم في غضون أسبوعين! عشرون سجينًا!

- أتعهد بذلك أمامكم.

- مهما كانت رتب هؤلاء الأسرى؟ ومهما بلغ وضعهم الاجتماعي؟

- نعم سيدي الجنرال.

- وباللجوء إلى خطط منظمة ومعلنة؟

- باللجوء إلى خطط ليس بإمكان أحد الاعتراض عليها.

حدق الجنرال مرة أخرى في وجه بول كقائد اعتاد على إبداء وجهة نظره في رجاله ومنحهم حق قدرهم. أدرك أن هذا الشخص ليس مُتَبَجِّحًا أو مدعيًا، بل رجل يحترم كلمته ويلتزم بتنفيذ قراراته، سيتقدم بخطى ثابتة إلى الأمام وسيفي بما وعد به. حينئذ، أجابه الجنرال:

- هذا جيد يا صديقي. ستكون القائمة غدًا بين يديك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع
تحفة حضارية

في صباح يوم الأحد، العاشر من يناير، وصل الملازم ديلروز والرقيب برنارد إلى محطة قطار كور□ يني، ثم توجها لمقابلة قائد المنطقة، واستقلا سيارة لتوصيلهما إلى قصر أورنكان.

قال برنارد وهو مستلقٍ على المقعد الخلفي للسيارة: «لم أكن أعتقد حقًا أن الأمور ستسير على هذا النحو عندما أُصبت بشظية إحدى القذائف بين نهر «إيسير» ومنزل المهرب. يا لاحتدام لهيب المعركة في تلك الأثناء! صدقني يا بول، لو تأخرت تعزيزاتنا خمس دقائق أخرى لانتهى أمرنا وهلكنا جميعًا. يا لها من محنة قاسية!»

أجابه بول: «حقًا، يا لها من محنة قاسية! أدركت ذلك، عندما استفقت في صباح اليوم التالي، منقولًا في سيارة إسعاف فرنسية».

واصل برنارد حديثه: «الشيء الذي أثار سخطي وانزعاجي، هو هروب ذلك الملعون سافك الدماء الميجور هيرمان. إذن أنت الذي أخذته أسيرًا، أليس كذلك؟ ثم تراه، بعد ذلك، يفك أصفاده ويفر هاربًا؟ يا له من شخص وقح! كان واثقًا من أنه سينجح في التسلل هاربًا دون وجود أي عائق».

تمتم بول قائلًا:

- ليس لدي شك في أنه سينفذ تهديداته ضد إليزابيث.

- حسنًا، لدينا ثمان وأربعون ساعة، ما دام هذا المجرم أخبر كارل المتواطئ معه بأنه سيصل يوم العاشر من يناير، وأنه لن ينفذ تهديده إلا بعد مرور يومين.

اعترضه بول بصوت مضطرب: «وماذا لو نفذ تهديده اليوم؟»

وعلى الرغم من معاناته وتوجع فؤاده انقضت رحلته سريعًا. اقترب أخيرًا من المكان الذي أقصاه بعيدًا لمدة أربعة أشهر. تقبع أورنكان على الشريط الحدودي، وتلوح مدينة إبريكورت على بُعد خطوات قليلة من الحدود. لا يود أن ينشغل ذهنه بالتفكير في العقبات التي ستعترضه قبل أن يصل إلى إبريكورت، وقبل أن يكتشف مَخْبَأ إليزابيث، ومن ثم يفك أسرها. إنها لا تزال على قيد الحياة. إليزابيث لم تمت. لا توجد أية عقبات تقف حائلًا بينها وبينه.

أضحى قصر أورنكان، أو بالأحرى ما تبقى منه -ذاك لأن أطلال القصر عُرّضت في نوفمبر لقصف جديد- بمثابة معسكرٍ للقوات الإقليمية، التي امتدت خنادقها في الخطوط الأمامية بطول الشريط الحدوديِ.

انخفضت وتيرة الاشتباكات على هذا الجانب، ذاك لأن قوات الخصم، لأسباب تكتيكية، استشعرت بأنه لا طائل من التقدم نحو الأمام. تكافأتِ القوى الدفاعية مع

بعضها البعض، وتضاعف نشاط عمليات الرصد والمراقبة من كلا الطرفين.

حصل بول على بعض المعلومات من ملازم القوات الإقليمية عندما تناول بصحبته وجبة الغداء.

تحدث إليه الضابط، بعد أن أخبره بول بمغامرته المنشودة، قائلًا: «زميلي العزيز، أنا تحت تصرفك بالكامل، لكن إذا تعلق الأمر بالانتقال من أورنكان إلى إبريكورت، فثق تمام الثقة بأنك لن تتمكن من المرور».

- سوف أمر.

أجابه الضابط مبتسمًا: «إذن، ستمر عبر الهواء؟»

- لا.

-إذن، هل عبر نفق تحت الأرض؟

- ربما ذلك.

- كن متأنيًا. أردنا أن نقوم بأعمال الحفر والتنقيب لعمل خندق تحت الأرض، بيد أن جميع جهودنا ذهبت سدى. نحن نجلس على تربة صخرية قديمة تتعذر فيها أعمال الحفر.

ابتسم بول بدوره..

- رفيقي العزيز، من فضلك، أعطني لمدة ساعة واحدة فقط أربعة رجال أقوياء مسلحين بالمعاول والمجارف وسأكون الليلة في إبريكورت.

- أوه! أوه! أربعة رجال فقط، وساعة من الزمن لحفر نفق بطول عشرة كيلومترات في الصخر!

- لست بحاجة إلى أكثر من ذلك. بالإضافة إلى ذلك، يجب مراعاة السرية التامة بشأن هذه المجازفة، وبشأن النتائج التي ستنجم عنها. فقط رئيس الأركان هو من سيكون مطلعًا على دقائق الأحداث عبر التقرير الذي سأقدمه له.

- حسنًا، سأختار بنفسي الرجال الأربعة الجسورين الأقوياء. إلى أين يتوجب عليَّ اصطحابهم إليك؟

- إلى شرفة القصر، بالقرب من البرج الرئيسي.

تطل هذه الشرفة على وادي ليزرون بارتفاع يتراوح بين أربعين وخمسين مترًا، وتمتد في مواجهتها مدينة كورينيي، حيث يمكن رؤية أبراج الكنائس والتلال المحيطة من مسافة بعيدة. لم يتبقَ من البرج الرئيسي للقصر سوى قاعدته الضخمة حيث تمتد جدران الأساس ممتزجة بالصخور الطبيعية التي تدعم الشرفة.

توجه بول إلى هناك. تجول عدة مرات في ساحة القصر، انحنى نحو النهر، وراح يتأمل الكتل المتهدمة من البرج الرئيسي. حينئذ باغته الملازم الذي حضر بصحبة

رجاله قائلًا: «هل هذه هي نقطة انطلاقك؟ أود تنبيهك وتذكيرك بأننا ندير ظهرنا للحدود».

أجابه بول بنفس نبرته المازحة: «حسنًا! كل الطرق تؤدي إلى برلين».

أشار بول إلى دائرة رسمها باستخدام وتد خشبي، ثم حث الرجال على بدء الحفر قائلًا: «هيا يا أصدقائي».

انقض الرجال، في محيط ثلاثة أمتار، على التربة الخصبة، وحفروا حفرة بعمق متر ونصف خلال عشرين دقيقة. عند هذا العمق، واجهوا طبقة من الحجارة المتلاحمة ببعضها البعض، فتضاعفت جهودهم، ذاك لأن الإسمنت كان صلبًا للغاية، ولم يتمكنوا من تفكيكه إلا باستخدام المعاول التي يُدخلونها عبر الشقوق. تابع بول العمل باهتمامٍ بالغٍ، ثم صاح بعد مرور ساعة من الزمن قائلًا: «توقفوا!»

أراد أن ينزل الحفرة، وأن يواصل بمفرده، وببطء شديد عملية الحفر، متفحصًا الأثر الناجم عن كل ضربة تسقط على الحجارة.

صعد إلى حافة الحفرة قائلًا: «هذا يكفي»

سأله برنارد: «ماذا؟»

- الأرض التي نقف عليها تُشكل أحد طوابق الأبنية الضخمة التي كانت تحيط بالبرج الرئيسي القديم قديمًا، هُدمت هذه الأبنية منذ قرون، وصُممت هذه الحديقة فوقها.

- إذن، ماذا؟

- إذن، عندما تفحصت الأرضية، أحدثت ثقبًا كبيرًا في سقف إحدى الغرف القديمة. تعال انظر.

أمسك بول حجرًا وأدخله في وسط الحفرة الضيقة التي صنعها، ثم تركه. هوى الحجر، ثم اختفى، وتناهى إلى مسامعهما صوت ارتطام مكتوم.

- علينا فقط توسيع المدخل، وفي أثناء هذا الوقت، سنجلب سُلَّما خشبيًّا وبعض الضوء.. أكبر قدر من الضوء.

قال الضابط: «لدينا مشاعل الرانتج».

- ممتاز.

لم يكن بول مخطئًا. عندما أُدخل السُّلّم، وتمكن من النزول برفقة الملازم وبرنارد، تراءت أمامهم غرفة مترامية الأطراف، دُعم سقفها بأعمدة ضخمة قسمتها، كصحن كنيسة غير منتظم، إلى جناحين وممرات جانبية ضيقة. بيد أن بول، لفت على الفور انتباه رفيقيه إلى أرضية هذين الجناحين:

- لاحظا هذا، أرضية خراسانية.. وانظرا -كما توقعت- يمتد هنا طريق ذو قضيبين من الحديد بطول المسافة بين العارضتين! وها هو طريق آخر بين العارضتين

الأخريين!

صاح برنارد والملازم: «ولكن مهلًا، ماذا، ماذا يعني ذلك؟»

أوضح بول: «هذا يعني أننا ببساطة نقف أمام فك طلاسم اللغز المحير الذي أحاط بعملية الاستيلاء على كور□ يني وحصنيها الاثنين».

- كيف؟

- دُكَّت مدينة كور□ يني وحصناها الاثنان خلال بضع دقائق، أليس كذلك؟ فمن أين أُطلقت قذائف المدفعية، في حين أن كور□ يني تقع على مسافة ستة فراسخ من الحدود، ولم يعبر وقتئذ أي من مدافع العدو حدودنا؟ أطلقت قذائف المدفعية من هنا، من هذا الحصن تحت الأرض.

- هذا غير معقول!

- ها هما الطريقان ذوَا القضبان الحديدية حيث نُقلت القطعتان العملاقتان اللتان نفذتا القصف.

- ولكن، يستحيل عليهم أن يقصفوا كور□ يني من قاع هذا الكهف! أين توجد الفتحات؟

- سوف تقودنا القضبان الحديدية إليها. زوّدنا ببعض الضوء يا برنارد. انظرا، ها هو مَصَفُّ المدافع، له نفس أبعاد المدفع، ما رأيكما؟ وها هو المَصَفُّ الآخر.

- ولكن أين توجد الفتحات؟

- أمامك يا برنارد

- هذا جدار..

- هذا هو الجدار الذي يدعم، مع الصخور الطبيعية، الشرفة المطلة على وادي ليزرون، والتي تمتد في مواجهة مدينة كور□ يني. أحدِثت فتحتان دائريتان في هذا الجدار، ثم سُدّتا لاحقًا. يمكننا بوضوح رؤية آثارهما، والتعديلات التي أُجريت.

لم يصدق برنارد والملازم ما سمعته آذانهما، وما أبصرته أعينهما.

قال الضابط: «لكنها عملية ضخمة ومعقدة للغاية!»

أجابه بول: «أرجو ألا تتفاجأ كثيرًا يا رفيقي العزيز. بدأ العمل بهذه العملية المعقدة -وفقًا لما تنامى إلى معرفتي- منذ ستة عشر أو سبعة عشر عامًا. فضلًا عن ذلك -كما أوضحت لك- هناك جزء كبير من المهمة كان ممهدًا ومنجزًا، فنحن الآن في الغرف السفلية لأبنية قصر أورنكان القديمة، وكان يكفيهم العثور عليها وتهيئتها لإنجاز الهدف المنشود. هناك أيضًا مهمة شيطانية أخرى أكثر ضخامة أُقدم عليها».

- أيّ مهمة؟

- النفق الذي توجب عليهم حفره كي يحضروا القطعتين العملاقتين إلى هنا.

- أجل! من أين تعتقد أنهم جاؤوا؟

دعونا نتتبع القضبان الحديدية، في الاتجاه المعاكس، وسنبلغ غايتنا.

في الواقع، بعد أن تحركوا قليلًا إلى الخلف، وجدوا الطريقين ذوي القضبان الحديدية يلتقيان معًا وينتهيان بفتحة نفق بعرض مترين ونصف تقريبًا، وبارتفاع مماثل. صُنعت جدران النفق الجانبية من الطوب، ولم تتسرب أية رطوبة منها، بدت أرضية النفق جافة للغاية.

قال بول هازئًا: «خط إبريكورت، أحد عشر كيلومترًا لا تتسلل إليها أشعة الشمس، وهذه هي الخطة الخبيثة التي تم من خلالها الاستيلاء على حصن كور□ يني المنيع. في بداية الأمر، عبر مرور بضعة آلاف من الرجال، ثم ذبْح الجنودِ المكلفين بحراسة أورنكان والمراكز الحدودية، ثم مواصلة المسيرة إلى المدينة. في الوقت نفسه، تم إحضار المدفعين الضخمين، وتثبيتهما وتوجيههما نحو الأماكن التي رُصدت مسبقًا. بعد أن أنجزوا مهمتهم بنجاح، غادروا وسدّوا الفتحتين. لم يستغرق الأمر أكثر من ساعتين».

قال برنارد: «ظل ملك بروسيا يعمل ويخطط بجدٍ طوال سبعة عشر عامًا من أجل الظفر بهاتين الساعتين الحاسمتين».

أجابه بول: «في الواقع، يبدو أن العمل الذي أنجزه ملك بروسيا، يصب الآن في مصلحتنا».

- لنشكره، ودعنا ننطلق بسلام!

اقترح عليهما الملازم أن يرسل بعض رجاله برفقتهما.

- شكرًا لك. من الأفضل أن نذهب بمفردنا، أنا وشقيق زوجتي. إذا كان العدو قد هدم النفق، سنعود أدراجنا على الفور لنلتمس المعونة. بيد أن هذا الأمر سوف يثير دهشتي، فبجانب اتخاذ العدو جميع التدابير الاحترازية حتى لا يتمكن أحد من اكتشاف النفق، فإنه لن يقدم على إغلاقه، لأنه ربما قد يضطر يومًا إلى استخدامه مرة أخرى.

وهكذا، شرع الصهران في عبور النفق الإمبراطوري، كما يطلق عليه برنارد، في الساعة الثالثة ظهرًا. تَسَلحَا جيدًا، وتزودا بالمؤن والذخيرة، ثم اعتزما أن يخوضا المغامرة حتى آخر قطرة من دمائهما. بعد فترة وجيزة للغاية، أي على بعد مئتي مترٍ، كشف لهم ضوء المصباح اليدوي عن درجات سُلم متصاعدة إلى يمينهما.

أشار بول: «مفرق النفق رقم 1. وفقًا لحساباتي، أمامنا على الأقل ثلاثة مفارق أخرى».

- وأين تنتهي درجات هذا السلم؟

- في القصر بالطبع. وإذا سألتني في أي جانب من القصر، سأجيبك: في الغرفة التي وجدت فيها الصورة. تسلل الميجور هيرمان، بلا أدنى شك، عبر هذا الدرج، وأتى

إلى القصر ليلة الهجوم. كان برفقة شريكه اللعين كارل. عندما أبصرا اسمينا مكتوبين على الجدار، طعنا الجنديين النائمين في الغرفة. قتلا الجندي چيريفلور ورفيقه.

قال برنارد داند□يل مازحًا:

- أصغِ إلي يا بول، ردود أفعالك تصيبني بالدهشة منذ فترة وجيزة. تتبع تصرفاتك من العرافة أم من الاستبصار! تتجه مباشرة إلى مكان الحفر، ثم تخبرنا بما حدث كما لو كنت شاهدًا على الأحداث، مُطلعًا على كل شيء، وتتكهن بكل شيء. في الحقيقة، لم نعتد منك مثل هذه القدرات الخارقة للطبيعة! هل ترددت على أرسين لوبان؟

توقف بول.

- لماذا نطقت بهذا الاسم؟

- اسم لوبان؟

- نعم.

- أقسم لك، حدث هذا مصادفة.. هل هناك أية علاقة تربطك به؟

- لا، لا.. ومع ذلك.. انفجر بول ضحكًا:

- أصغِ إلى هذه القصة العجيبة غير المألوفة. هل هي حقًا قصة؟ نعم، من الواضح إنها ليست حُلمًا.. غير أن.. على أي حال، ذات صباح، عندما كنت مستلقيًا ومحمومًا، مثلما كنت كذلك داخل سيارة الإسعاف التي نقلتنا إلى المستشفى، لاحظت بدهشة بالغة وجود ضابط لا أعرفه داخل غرفتي، كان ضابطًا طبيبًا يجلس على الطاولة، ويفتش بهدوء بين محتويات حقيبة سفري.

نهضت بالنصف الأعلى من جسدي، اشرأبت عنقي، ورأيته ينشر كل أوراقي على الطاولة، ومن بين هذه الأوراق، يوميات إليزابيث.

استدار إثر سماع الجلبة التي أحدثتها. حتمًا لم أكن أعرفه. لديه شارب رقيق، وملامح مفعمة بالحيوية، وابتسامة عذبة للغاية. قال لي.. لا، لم يكن حُلمًا.. قال لي: «لا تتحرك.. وأرجو ألا يحتد غضبك...»

طوى الأوراق، ووضعها في الحقيبة، ثم اقترب مني قائلًا:

- أستميحك عذرًا لأنني لم أقدم نفسي لك أولًا، سأفعل ذلك لاحقًا، وألتمس منك العفو عما بدر مني للتو دون أن أستأذنك. فضلًا عن ذلك، كنت أنتظر اللحظة التي تستيقظ فيها لأتدارك خطئي. حسنًا، أعطاني أحد أفراد الشرطة السرية الذين ألتقيهم كثيرًا في الوقت الحالي بعض الوثائق المتعلقة بالميجور هيرمان زعيم الجواسيس الألمان وأعماله الإجرامية. تمت الإشارة إليك عدة مرات في هذه الوثائق. لهذا السبب، كشفت لي الصدفة عن وجودك هنا، فوددت أن أراك وأبرم معك اتفاقًا. أتيت إذن، وولجت غرفتك بطريقتي الخارقة. رأيتك محمومًا، ونائمًا، ولأن وقتي ثمين للغاية

(لدي بضع دقائق فقط)، لم أتردد في إلقاء نظرة على أوراقك الخاصة. كان لدي حق ما دمت أتيت في الموعد المحدد.

رحت أحدق بذهول في وجه هذا الشخص غريب الأطوار. أمسك قبعته العسكرية كما لو كان يرغب في الانصراف، ثم قال لي:

- أهنئك أيها الملازم ديلروز على شجاعتك ودهائك وفطنتك. كل ما فعلته أثار الدهشة والإعجاب، والنتائج التي توصلت إليها مذهلة للغاية. بيد أنه من البديهي أنك تفتقد بعض العطايا الخاصة والثمينة التي ستمنحك فرصة إدراك هدفك الأسمى بسرعة وإيجاز. في الواقع، أنت لا تدرك بشكل كافٍ تشابك الأحداث ببعضها البعض، ولم تستخلص الاستنتاجات المنطقية التي تمخضت عن هذه الأحداث المترابطة. لذا؛ تتملكني الدهشة من عدم انجذاب انتباهك نحو بعض الفقرات التي تحويها يوميات زوجتك، حين تتحدث عن اكتشافاتها المثيرة للقلق والانزعاج. ومن ناحية أخرى، إذا كنت قد تساءلت لماذا سعى الألمان إلى اتخاذ كم هائل من الاحتياطات والإجراءات الاحترازية التي تهدف إلى تشتيت الانتباه شيئًا فشيئًا بعيدًا عن القصر، متفحصًا العلاقة بين الماضي والحاضر، ومستحضرًا من ذاكرتك تفاصيل لقائك مع إمبراطور ألمانيا، والعديد من الأحداث الأخرى التي تتضافر مع بعضها البعض، لأدركت حينئذ ضرورة وجود وسيلة اتصال سرية بين الجانبين اللذين تفصل بينهما الحدود، وسيلة تتيح للألمان سهولة الوصول إلى المكان المحدد، حيث أطلقت النيران بغزارة على كور□يني.

يبدو للوهلة الأولى أن هذا المكان هو الشرفة، وسيزداد يقينك إذا لاحظت في مواجهة الشرفة تلك الشجرة الميتة المحاطة بنباتات اللبلاب، والتي اعتقدت زوجتك أنّ جلبة غامضة تنبعث بالقرب منها. سيتوجب عليك إذن الشروع في إنجاز مهمتك انطلاقًا من هذه النقطة، أي العبور إلى بلاد الأعداء و... لكنني سأتوقف عند هذا الحد. ستصاب بالارتباك إذا وضعت لك خطة تحرك محددة، ثم إن رجلًا مثلك ليس بحاجة إلى أن يُمهد له شخص مثلي تحركاته. طبت مساءً أيها الملازم. آه! بالمناسبة، من الجيد أنك تجهل اسمي تمامًا. دعني أقدم نفسي.. الضابط الطبيب.. ولكن على أية حال، لمَ لا أخبرك باسمي الحقيقي؟ ستتضح لك الرؤية من خلاله: أرسين لوبين.

انحشرت الكلمات في حلقي، ثم ودعني بلطف منسحبًا بهدوءٍ دون أن ينبس ببنت شفة. تلك هي القصة، ما رأيك يا برنارد؟

- أرى أنك تقابلت مع شخص هازئ.

- فليكن، بالرغم من ذلك لم يتعرف أحد على هوية الطبيب الحقيقة وكيف تمكن من التسلل إلى غرفتي. ثم يتوجب عليَّ الاعتراف بأن هذا الشخص الهازئ -كما يبدو في عينيك- زودني ببعض المعلومات التي أزالت الغشاوة عن عيني في تلك اللحظة.

- لكن أرسين لوبين وري الثرى منذ فترة بعيدة.

- نعم، أعلم أنه في عداد الموتى، ولكن من يدري ربما نموذجًا شبيهًا لتلك الشخصية! لا أكترث إذا كان لا يزال حيًا أو ميتًا، كاذبًا أو صادقًا، لكن لوبين هذا أسدى إليَّ معروفًا عظيمًا.

- إذن، ما غاياتك؟

- لدي غاية واحدة، ألا وهي تحرير إليزابيث من سجنها.

- وما خطتك؟

- ليس لدي خطة واضحة. كل شيء يتوقف على الظروف والأحداث، لكنني على ثقة من أنني أسير في الدرب الصحيح.

في الحقيقة، تطابقت فرضيات بول مع الواقع. بعد مرور عشر دقائق، وصل الشابان إلى مفرق جديد يتصل بنفق آخر نحو اليمين، ومزود بقضبان حديدية.

قال بول: «مفرق النفق رقم 2. طريق كور□يني الذي سار فيه الألمان ليباغتوا قواتنا. وهذا بالطبع هو المكان الذي اجتازته الفلاحة التي تجاذبت معك، ذات مساء، أطراف الحديث. أعتقد أن المخرج يقع على بعد مسافة من المدينة، ربما في مزرعة مملوكة لتلك المرأة التي ادعت أنها فلاحة».

- وأين يوجد مفرق النفق الثالث؟

- ها هو ذا.

- إنه دَرج.

- نعم، ولا شك أنه سيقودك إلى الكنيسة. لمَ لا نفترض أنه في اليوم الذي طُعن فيه والدي غدرًا، جاء الإمبراطور الألماني ليتابع أعمال الحفر التي أصدر أوامره بالشروع فيها، والتي كانت تُنفذ تحت إشراف السيدة التي رافقته؟ من الواضح أن هذه الكنيسة، التي لم تكن جدران الحديقة تلتف حولها في هذا الوقت، تعد أحد منافذ شبكة الأنفاق السرية، وها نحن الآن نجتاز النفق الرئيسي.

لاحظ بول مفرقين آخرين، وخمن أنهما، وفقًا لموقعيهما واتجاهيهما، ينتهيان بالقرب من الحدود، وتكتمل عبرهما منظومة التجسس والغزو المذهلة والخارقة للطبيعة.

قال برنارد: «إنه لأمر مثير للإعجاب، ها هو «الفارق الحضاري» أو لا أدري ماذا أقول بهذا الشأن. يتضح لي حقًا أن هؤلاء الألمان لديهم حس عالٍ بالحروب. إن فكرة حفر نفق لمدة عشرين عامًا بهدف قصفٍ محتملٍ لحصن صغير لن تخطر البتة في بال أي فرنسي. هذا يتطلب درجة من التمدن والحضارة لا يمكننا أن ندعيها».

ازداد حماسهما عندما أبصرا منافذ للتهوية في الجزء العلوي من النفق. لكن في نهاية الأمر، نصح بول برنارد بالتزام الصمت التام أو التحدث بصوت خفيض للغاية.

- يجب أن تدرك جيدًا أنهم إذا كانوا قد وجدوا أنه من الضروري الإبقاء على خطوط الاتصال السرية الخاصة بهم، فذاك لأنهم أيقنوا تمامًا أن الفرنسيين لن يتمكنوا من التوصل إليها أو الانتفاع بها. إبريكورت ليست بعيدة. ربما نصبوا مراكز تصنت أو نشروا جنود الحراسة في بعض الأماكن المحورية. هؤلاء الأبالسة لا يتركون شيئًا للمصادفة. أخذا يبطئان في سيرهما، ولم يَجْرؤا على إضاءة مصباحيهما إلا على فترات طويلة متقطعة.

نحو الساعة السابعة، تناهى إلى أسماعهما، أو بالأحرى بدا لهما وكأنهما يستمعان إلى ضوضاء مبهمة منبعثة من أعلى سطح الأرض وممتزجة بالحياة والحركة. انتابهما إعصار من المشاعر المختلطة. تمتد الأراضي الألمانية فوق رأسيهما، وأصداء الأصوات تجلب لهم غمرة من ضجيج الحياة الألمانية.

تفوه بول: «الأمر الذي يثير دهشتي هو أن هذا النفق لا يخضع لحراسة مكثفة، وأننا تمكنا من الوصول إلى هذه النقطة دون أي عائق يُذكر».

- لم يتداركا هذا الخطأ؛ نقطة سلبية تشين هذه التحفة الحضارية.

ومع ذلك، انسابت أنفاسهما المحتدة المتسارعة بطول جدران النفق، وتدفق الهواء من الخارج في هيئة نفحات رياح باردة. لاحظا بغتة ضوءًا بعيدًا متوهجًا في قلب الظلام الدامس. وقفا جامدين كالصخر، وبدا كل شيء هادئًا وساكنًا حولهما. اقتربا رويدًا رويدًا، ثم أدركا أن هذا الضوء ينبعث من مصباح كهربائي مثبت داخل كوخ خشبي بُني عند مخرج النفق، حيث انعكست أضواء المصباح على منحدر صخري أبيض ضخم وتلال من الرمال والحصى.

همس بول:

- هذه هي المَحاجِرُ. أتاحت لهم، فكرة إقامة مدخل النفق وسط المحاجر، فرصة مواصلة أعمال الحفر في وقت السلم دون أن يلفتوا أي انتباه. لقد استُغلّت هذه المحاجر المزعومة في سرية تامة، وداخل نطاق منطقة مغلقة، حيث تمكنوا من إقامة سياج عازل حول العمال.

كرر برنارد: « يا له من تقدم حضاري!»

شعر برنارد بيدِ بول تقبض بعنف على ذراعه، ثم تجتذبه. مر شيء ما أمام الضوء، بدا وكأنه شخص ينتصب، ثم يسقط في مكانه على الفور.

زحفا بحذر بالغ حتى وصلا إلى الكوخ، أخذا ينهضان بالنصف الأعلى من جسديهما حتى بلغت أعينهم بداية نوافذ الكوخ الزجاجية من الأسفل. أبصرا داخل الكوخ نصف دزينة من الجنود الألمان، مستلقون جميعهم، أو بالأحرى متمددون فوق بعضهم البعض، تحيط بهم زجاجات الخمر الفارغة، والأطباق المتسخة، ونشافات ملطخة بالدهون، وبقايا لحوم الخنازير.

إنهم حراس النفق. احتسوا الخمر حتى الثمالة، وفقدوا وعيهم.

قال برنارد: «الحضارة دائمًا تلعب دورها».

أجابه بول: «نحن محظوظان، ودعني أقول لك إن غياب الحراسة يعود لأن اليوم هو يوم الأحد».

ابتعد بول وبرنارد، ثم واصلا تتبع القضبان الحديدية داخل معبر ضيق محفور وسط الصخور، قادهما إلى فضاء فسيح يتلألأ بهالة من الأضواء. تمتد الآن قرية بأكملها أمام أنظارهما، تتألف من ثكنات عسكرية يسكنها الجنود الذين يمكن مراقبة تحركاتهم ذهابًا وإيابًا. تجولا حول القرية، واجتذبهما صوت هدير محرك سيارة، وأضواء ساطعة تصدر من مصباحين عملاقين، ثم لاحظا، بعد أن اجتازا سياجًا خشبيًا وعبر غابة كثيفة من الشجيرات، قصرًا أنيقًا مفعمًا بالأضواء البراقة.

توقفت السيارة أمام درج مدخل القصر حيث يصطف عدد من الخدام وفرقة من الجنود. ترجل عن السيارة ضابطان وسيدة أنيقة ترتدي الفراء. في طريق عودتهما، توهجت أضواء المصباحين منعكسة على حديقة مترامية الأطراف تطوقها جدران شاهقة الارتفاع.

قال بول: «هذا بالضبط ما توقعته، لدينا هنا المبنى المماثل والبديل لقصر أورنكان. في كل من نقطتي البداية والنهاية يوجد سياج متين يسمح لمن في الداخل بالعمل في مأمن من أعين المتطفلين». في تلك اللحظة، وصلت سيارة ثانية ترجل عنها ثلاثة ضباط، ثم انضمت إلى السيارة الأولى بجوار المرأب.

علق برنارد: «يتوجهون إلى حفل عشاء كبير».

عزم الصهران على أن يتقدما قدر الإمكان، وساعدهما في ذلك كثافة الأشجار المصطفة بامتداد الممر والتي تحيط بالقصر. انتظرا فترة طويلة، ثم أدركا، عقب سماع الصخب والقهقهة العالية المنبعثين من الطابق السفلي، أن قاعة الاحتفالات تقع في هذا المكان، وأن المدعوين يجلسون الآن إلى المائدة. تعالت أصوات الغناء والصيحات. ساد السكون القاتل شتى الأرجاء خارج القصر. بدت الحديقة كصحراء صامتة هامدة ليس فيها نسمة حياة واحدة.

همس بول: «المكان هادئ للغاية. سوف تساعدني وستظل بعد ذلك مختبئًا».

- هل تود الصعود إلى حافة إحدى النوافذ؟ وماذا عن مصراعي النافذة؟

- أعتقد أن المصاريع غير موصدة بإحكام، الضوء ينساب من الداخل عبرهم.

- إلام تسعى، في نهاية المطاف؟ لا يوجد سبب وجيه يدفعك للتسلل إلى هذا المنزل دون غيره.

- بلى، لقد أخبرتني بنفسك، وفقًا لما سمعته من الجندي الجريح، بأن الأمير كونراد يقيم في قصر فخم في ضواحي إبريكورت. أوحى لي موقع القصر وسط المواقع المحصنة، وعند مدخل النفق بأنني أدركت ضالتي المنشودة.

قال برنارد ضاحكًا: «ناهيك عن هذه الحفل الباذخ الذي يليق بالأمراء. أنت على حق».

عبرا الممر، تمكن بول بمساعدة برنارد أن يمسك بيُسرٍ بالحافة التي تشكل قاعدة الطابق العلوي، ثم تسلق الشرفة الحجرية. همس لبرنارد: «حسنًا. عد أدراجك، وإذا صادفك خطرٌ أطلق صافرتك».

بعد أن خطت قدما بول شرفة القصر، هز رويدًا رويدًا أحد المصراعين ممرِّرا أصابع يده، ثم يده بأكملها عبر الفتحة الفاصلة بينهما، ونجح أخيرًا في سحب حلقة إغلاق المصراعين.

منحته الستائر المتقاطعة من الداخل فرصة التحرك بحرية دون أن يراه أحد، بيد أن هذه الستائر المتقاطعة بشكل رديء للغاية من الأعلى على هيئة مثلث، ستسمح له دون شك برؤية الجالسين في الداخل، شريطة أن يصعد فوق سور الشرفة.

وهذا ما فعله، انحنى قليلًا، ثم راح ينظر.

أصابته صدمة موجعة مزقت فؤاده لهول المشهد الذي لاح أمام ناظريه، حتى أنه شعر بأن ساقيه ترتعشان أسفله وقلبه يرفرف رعبًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

الأمير كونراد يحظى ببعض المرح

تمتد طاولة بشكل موازٍ لنوافذ الغرفة الثلاث. تتكدس أكوام هائلة من زجاجات الخمور، والأباريق الصغيرة، والكؤوس التي بالكاد تترك مساحة صغيرة لقوالب الحلوى والفاكهة. وُضعت أيضًا باقة من الزهور فوق زجاجات المشروبات الروحية.

عشرون مَدْعُوًّا، بينهم نصف دزينة من النساء يرتدين ثياب الحفلات الراقصة، والبقية هم مجموعة من الضباط وسيمي الطلعة والأنيقين للغاية. في منتصف الغرفة، أي في مواجهة النافذة، يتصدر الأمير كونراد الحفل، وتجلس سيدة إلى يمينه، وأخرى إلى يساره. ما أثار الصدمة لدى بول هو رؤية هؤلاء الأشخاص الثلاثة مجتمعين في تحد سافرٍ للمنطق، وفي مشهد غدا بمثابة طعنة نافذة اخترقت صدره وبعثت من جديد آلامه وعذابات قلبه.

بدت إحدى السيدتين، والتي تجلس إلى الناحية اليمنى من الأمير الإمبراطوري، جامدة تمامًا في ثوبها المصنوع من الصوف البني، ترتدي وشاحًا من الدانتيل الأسود يخفي نصف شعرها القصير. هذا أمر واضح للغاية ولا يتطلب تفسيرًا. بيد أن السيدة الأخرى التي استدار نحوها الأمير كونراد وتطلع إلى وجهها بودٍ وبنبلٍ لا يضاهى، تلك المرأة التي ينظر إليها بول بعينين مرتعبتين، ويود أن يخنقها بكلتا يديه، هذه المرأة، تُرى ماذا تفعل هنا؟ ماذا تفعل إليزابيث برفقة هؤلاء الضباط المخمورين، وبجوار الأمير كونراد، بجوار هذه المخلوقة المتوحشة التي تطارده وتضمر في قلبها نحوه بغض متجدد لا ينفذ.

الكونتيسة هيرمين داند□يل! إليزابيث داند□يل! الأم والابنة معًا! لم يكن لدى بول حجة منطقية أخرى يتذرع بها ليمنح رفيقتي الأمير لقبًا مغايرًا لما تفوه به. وقع حادث مرعب، أزاح الستار عن منطقية هذين اللقبين البشعين وأضفى عليهما طابعه الحقيقي المثير للاشمئزاز، حينما نهض الأمير عن مكانه، ممسكًا بكأس من الشمبانيا، ثم صاح بصوت عالٍ:

- حسنًا! فلنشرب نخب صديقتنا الحذرة المتروية! حسنًا! نخب الكونتيسة هيرمين!

نطق الأمير بهذه الكلمات المفزعة التي تناهت إلى أذني بول.

صاح قطيع المدعوين: «نخب الكونتيسة هيرمين»

التقطت الكونتيسة كأسًا، وتجرعته في رشفة واحدة، ثم شرعت تتلفظ ببعض الكلمات التي لم يتمكن بول من سماعها، بيد أن المدعوين أبدوا رغبتهم العنيفة في الإنصات إليها بحماسة بالغة. تصغي إليزابيث هي الأخرى إليها جيدًا.

ترتدي إليزابيث ثوبًا رماديًا يعرفه بول جيدًا، بسيطًا للغاية، يغطي الصدر والكتفين، ويصل كمّاه إلى معصميها. لكن يلتف حول عنقها، متدليًا على صدارها، عُقد رائع

للغاية يتكون من لآلئ ضخمة ذات أربعة صفوف، يراه بول للمرة الأولى في حياته.

تلعثم قائلًا: «الحقيرة، الوغدة!»

ارتسمت البسمة على شفتيها. نعم، أبصر بول على شفتي الفتاة الشابة ابتسامة رقيقة أثارتها كلمات الأمير كونراد التي انطلقت من شفتيه وهو يميل نحوها. غرق الأمير كونراد في نوبة ضحك صاخبة، حتى أن الكونتيسة هيرمين، التي كانت تستأنف حديثها، ألزمته بالصمت بعد أن صفعت يده بالمروحة.

بث المشهد بأكمله الرعب في قلب بول، وأحرقه لهيب المعاناة حتى أنه لم تَتْبَهُ سوى فكرة واحدة: أن يهيم على وجهه، ويتوارى عن الأنظار، يتخلى عن النضال، ويطرد خارج نطاق حياته، وذاكرته أيضًا، هذه الزوجة البغيضة.

فكر يائسًا: «إنها ابنة الكونتيسة هيرمين».

تأهب بول للرحيل، في نفس الوقت الذي حدث فيه أمر غامض أثار انتباهه. رفعت إليزابيث نحو عينيها منديلاً مجعدًا كانت تمسكه في راحة يدها، ومسحت خلسة دمعة أوشكت أن تنساب على وجنتها. لاحظ بول أيضًا أن وجهًا ممتقعًا بشكل مخيف، لم يكن شحوبًا وهميًا نسبه بول، منذ وقت قليل، إلى الأضواء الساطعة، لكن وجهها الهزيل اكتسى بشحوب الموتى. بدا له أن الدماء هربت من وجهها. ويا لها من ابتسامة متألمة، تلك التي تنبع من أعماقها، حتى أنها برمت شفتيها في حنقٍ ردًا على دعابة الأمير السخيفة!

تساءل بول: «إذن ماذا تفعل هنا؟ أليس من حقي أن أصدق بأنها خائنة ومذنبة، وبأن التبكيت والندم ينتزعان الدموع من عينيها؟ تملكها الشعور بالخوف والجبن جراء رغبتها في العيش، وأقضت مضجعها التهديدات التي بثت الذعر في قلبها، وها هي اليوم تذرف الدموع».

لم يتوقف بول عن توجيه السباب والشتائم إليها، لكنه غُمر شيئًا فشيئًا بسيل عارم من الشفقة على هذه مخلوقة خارت جميع قواها ولم تعد قادرة على تحمل المحن القاسية التي قصمت ظهرها.

أنهت الكونتيسة هيرمين حديثها، ثم انهمكت بلا انقطاع في احتساء الخمر، ألقت بكأس تلو الأخرى خلفها عقب كل جرعة ترتشفها. أخذ الضباط ونساؤهم يقلدونها. وفي حالة من الثمالة ممتزجة بمشاعر الولاء للوطن، نهض الأمير كونراد عن مكانه وراح يغني النشيد الوطني «ألمانيا فوق كل شيء»، ردد الآخرون كلمات النشيد الوطني تتملكهم حالة من الثورة والحماس.

أسندت إليزابيث مرفقيها على سطح الطاولة، ووضعت كلتا راحتي يدها على وجهها، بدت وكأنها تود الجلوس بمفردها. لكن الأمير الذي كان لا يزال واقفًا ومتألقًا، قبض بانفعال ضارٍ على ذراعيها، وأبعدهما بوحشية إلى جانبيها، قائلًا:

- لا داعي للتكلف والرياء أيتها الجميلة!

أومأت إليه إيماءة تنم عن نفورها واشمئزازها فأثارت حنقه وجُن جنونه.

- ماذا! ماذا! نحن «نعترض»، ثم ننتحب ونتباكى! آه! يبدو أنه في جعبة سيدتي العديد من الأشياء الجميلة! ولكن، سحقًا! ماذا أرى؟ كأس سيدتي لا يزال ممتلئًا!

أمسك بالكأس، وأخذ يقربه، وهو يرتجف غضبًا، من شفتي إليزابيث.

- نخبك يا صغيرتي. حسنًا، هل ترفضين؟ أتفهم ذلك. لا تريدين المزيد من الشمبانيا. تسقط الشمبانيا! نبيذ الراين هو ما تحتاجين إليه، أليس كذلك يا طفلتي؟ أتتذكرين نشيد وطنك: «لقد حصلنا على نبيذ الراين الألماني الخاص بكم، وسكبناه في كؤوسنا» ([3]) نبيذ الراين!

وقف الضباط دفعة واحدة، وصاحوا بأعلى صوتهم: «لن يحصلوا عليه، الراين الألماني، مهما ينتحبون ويلتمسونه صارخين، مثل أسراب الغربان الجشعة...».

ردد الأمير المستشيط غضبًا: «لن يحصلوا عليه، لكنكِ ستحتسينه أيتها الصغيرة».

سنملأ كأسًا أخرى. أراد أن يجبر إليزابيث، مرة أخرى، على احتساء النبيذ، فوضع الكأس بالقرب من شفتيها، وبينما كانت تدفعه بعيدًا عنها، همس ببضع كلمات في أذنها، في حين أن ثوبها تلطخ بالنبيذ.

غرق جميع الحضور في صمت مرعب، وراحوا يتقربون ما الذي سيوشك أن يحدث. تبدلت ملامح وجهه بملامح وحشية وفظة لشخص همجي أخذ يهدد، ويلح، ويصدر الأوامر، ويقذف بسيل من الشتائم. يا له من مشهد مقزز! كان بول على أهبة الاستعداد أن يضحي بحياته، في سبيل أن تنفجر إليزابيث ثائرة وتطعن ذاك الملعون الأبله الذي يوجه إليها أقذع الشتائم وأحقر الألفاظ. لكنها أرجعت رأسها إلى الوراء، وأغلقت عينيها، ثم قبلت الكأس صاغرة، وتجرعت بضع رشفات.

أطلق الأمير صيحة النصر، ملوِّحا بالكأس، ثم رفعه بشغف إلى شفتيه، وأفرغه دفعة واحدة في فمه. صاح قائلًا:

- انهضوا أيها الرفاق! قفوا على مقاعدكم وضعوا قدمًا واحدة على الطاولة! انهضوا يا غزاة العالم! تغنوا بقوة ألمانيا! تغنوا بنبل وبسالة ألمانيا! لن يحصلوا على الراين الألماني الحر، ما دام الشباب الطامحون المقدامون يغازلون ويلاحقون الفتيات ممشوقات القوام. إليزابيث، لقد تجرعت نبيذ الراين المتبقي من كأسك، أنا هنا السيد! أوه! أيتها الباريسية.. سيدة باريس الشابة.. باريس التي نطمح إليها.. أوه! باريس! أوه! باريس..

راح يترنح ويتمايل. انزلق الكأس من بين يديه، وتهشم مصطدمًا بعنق إحدى الزجاجات. سقط على ركبتيه فوق الطاولة، في غمار ضجيج تصادم الأطباق والكؤوس المهشمة، أمسك بقارورة خمر، ثم انهار على الأرض متلعثمًا:

- لا بديل عن باريس.. باريس وبلدة «كاليه».. أبي هو الذي أخبرني بذلك.. قوس النصر.. المقهى الإنجليزي.. الطاحونة الحمراء!

توقفت الضجة بغتة، فقد انطلق صوت الكونتيسة هيرمين وأصدرت أمرًا بنبرة متسلطة: «انطلقوا! فليعد كل منكم إلى منزله! وبأقصى سرعة ممكنة، من فضلكم،

أيها السادة».

انسحب الضباط والسيدات بسرعة متناهية. في الخارج، على الجانب الآخر من المنزل، انطلقت أصوات تنبيهات السيارات. وصلت السيارات على الفور، وبدأت المغادرة الجماعية. في هذه الأثناء، أعطت الكونتيسة إشارة للخدام، وأومأت برأسها نحو الأمير كونراد قائلة: «احملوه إلى غرفته».

حُمل الأمير كونراد في لمح البصر، ثم اقتربت الكونتيسة هيرمين من إليزابيث.

لم تمر خمس دقائق منذ أن انهار الأمير كونراد أسفل الطاولة، وعقب الحفل المتعالي الضجيج، خيم الآن هدوء قاتل على الغرفة التي تسودها الفوضى العارمة، حيث وجدت السيدتان بمفردهما.

خبأت إليزابيث مرة أخرى وجهها بين راحتي يديها، وانفجرت في بكاء يدمي القلب مصحوبًا بتنهدات ونحيب أرعشوا كتفيها. جلست الكونتيسة هيرمين بجوارها، ولامست ذراعها برفقٍ شديدٍ.

ظلت السيدتان تحدقان في وجه بعضيهما البعض، دون أن تنبسا ببنت شفة. تنبعث من أعينهما نظراتٍ مسمومةٍ مشحونةٍ بنفسٍ القدر من الكراهية. لم يرفع بول عينيه عنهما، ولم يشك لوهلة في أنهما التقتا آنفًا ببعضهما البعض، وأن الكلمات التي ستنساب على شفاههما وستتبادلانها لن تكن سوى متابعة لما استخلصتاه من توضيحات سابقة. ولكن، أيّ توضيحات؟ وماذا عرفت إليزابيث عن الكونتيسة هيرمين؟ هل تقبل بهذه المرأة التي تتطلع إليها بمقت شديد كوالدة لها؟

ليس باستطاعة أحد أن يُخال له مدى تنافر سمات شخصيتين إحداهما عن الأخرى مثلما تتنافر خصال وملامح هاتين الشخصيتين. ومع ذلك، كم كانت قوية وقاطعة حزمة الدلائل التي تجمع كليهما بالأخرى بروابط وثيقة. إن شعور السيد داند□يل بالانزعاج والارتباك أمام صورة الكونتيسة الفوتوغرافية، تلك الصورة التي أُخذت في برلين عقب بضع سنوات من قصة موتها المزعومة، ألا يُعدّ برهانًا قويًا يؤكد أن داند□يل كان متواطئًا في جريمة موتها الزائف، وربما كان متواطئًا في جرائم أخرى لا حصر لها؟

في تلك اللحظة، عاد بول إلى السؤال الملح الذي طرحه عليه هذا اللقاء المثير للقلق والخوف والذي يجمع بين الأم والابنة: ماذا تعرف إليزابيث عن كل ما يجري؟ ما التفسيرات والاستنتاجات التي خلُصت إليها بشأن هذه المجموعة القبيحة الموصومة بالعار، وبالخيانة، وبالأعمال الشائنة والجرائم؟ هل ستوجه اتهامًا قاتلًا إلى أمها؟ هل شعورها بالانسحاق تحت وطأة الجرائم التي ارتُكبت، جعلها تستسلم ذليلة للجبن والعجز؟

قال بول لنفسه: «نعم، نعم، هذا يتضح جليًا للعيان. ولكن، لمَ كل هذا البغض؟ بينهما كراهية يستطيع الموت فقط أن يخمد نيرانها. وتبدو الرغبة الجارفة في القتل التي يلمع بريقها في عيني إليزابيث أكثر عنفًا وضراوة من تلك التي تلمع في عيني المرأة اللعينة التي تسعى بدورها إلى قتلها».

تملك بول هذا الشعور بقوة بالغة حتى أنه توقع أن تنقض، على الفور، إحداهما على الأخرى، وراح يفكر في طريقة لإنقاذ إليزابيث من براثن هذه السيدة المتوحشة. ولكن حدث أمر غير متوقع على الإطلاق؛ أخرجت الكونتيسة هيرمين من جيبها إحدى الخرائط الطبوغرافية الكبيرة التي يستخدمها سائقو السيارات، ثم بسطتها على الطاولة، ووضعت إصبعها على إحدى النقاط. أخذت تتبع الخط الأحمر لأحد الطرق، ثم بلغت نقطة أخرى، وهنا توقفت، وتلفظت ببضع كلمات يبدو أنها غمرت وجدان إليزابيث بفرحة عارمة.

أمسكت إليزابيث بلهفة ذراع الكونتيسة، وشرعت في التحدث إليها بسرعة بالغة، حيث امتزجت ضحكاتها بتأوهاتها، بينما أومأت الكونتيسة برأسها، وكأنها تود أن تقول لها: «هذا أمر مفروغ منه.. نحن متفقتان.. سيحدث كل شيء انصياعًا لرغبتك»

ظن بول، من فرط حبور إليزابيث وشعورها بالامتنان، أنها سوف تقبل يد عدوتها، ثم تساءل بقلق في أي فخ جديد سقطت هذه التعيسة. عندئذ، نهضت الكونتيسة عن مكانها، وسارت بضع خطوات نحو الباب ثم فتحته. عادت على الفور، بعد أن أصدرت أحد الإيماءات. ولج أحد الأشخاص باب الغرفة، مرتديًا زيًا رسميًا عسكريًا. أدرك بول على الفور أن الرجل الذي أحضرته الكونتيسة هو الجاسوس كارل، المتواطئ معها، والذي ينفذ مخططاتها القذرة، وهو بالطبع الشخص المكلف من قبل الكونتيسة لإنهاء حياة إليزابيث. لقد حانت ساعتها الأخيرة.

انحنى كارل. قدمته الكونتيسة هيرمين، ثم أوضحت له الطريق ونقطتي البداية، والنهاية على الخريطة، وشرحت له ما يتوجب عليه فعله.

خرجت إليزابيث على الفور، بناءً على أمر أصدرته الكونتيسة.

وبالرغم من أن بول لم يسمع أية كلمة مما قيل فإن بعض الأفكار تبلورت في ذهنه واتضحت معالمها إثر رؤية هذا المشهد السريع والمثير للرعب. اقترحت الكونتيسة على إليزابيث، بناء على سطوتها وصلاحياتها غير المحدودة، منتهزة فرصة نوم الأمير كونراد، خطة للهروب، على الأرجح داخل سيارة ستتجه نحو نقطة معينة في أحد الأقاليم المجاورة حُدّدت مسبقًا. قبلت إليزابيث هذا الإنقاذ غير المتوقع، وستنفذ خطة الهروب في ظل توجيهات وحماية كارل!

نُصب الفخ بمهارة فائقة الحدود، واندفعت السيدة الشابة المثقلة بالهموم، والتي أضنتها المعاناة، وأوهنتها المحن، بحسن نية إلى قدرها المحتوم، حتى أن المتواطئين الاثنين اللذين بقيا وحدهما تبادلا النظرات وارتسمت الابتسامة على ثغريهما. في الحقيقة، أنجزت المهمة بسهولة مطلقة. وقبل أن يلجأ بول إلى تحليل وتفسير المشهد، لاحظ إيماءة مختصرة متبادلة بين الطرفين، ثم إيماءتين أخريين، ليس أكثر، يتخللهما تهكم شيطاني. فتح الجاسوس كارل الذي كان يثبت عينيه على الكونتيسة أزرار معطفه، وأخرج نصف خنجر من الغمد الذي يمسكه. أصدرت الكونتيسة إيماءة تعبر عن رفضها التام، وأعطت هذا الحقير قارورة صغيرة

وضعتها في يده، فأخذها ووضعها في جيبه، وأجاب هازًا كتفيه استخفافًا: «كما ترغبون! هذا لا يعنيني».

جلسا بجوار بعضيهما البعض، وتجاذبا بحماس أطراف الحديث، أعطت الكونتيسة كارل بعض التعليمات التي كان يرضخ لها أو يتناقش معها بشأنها. شعر بول بأنه لم يعد لديه القدرة على التحكم في هواجسه ومخاوفه، ولم يكن بإمكانه أن يضع حدًا لخفقان قلبه المضطرب، فقدت إليزابيث. يجب عليه كي يهب لنجدتها أن يتخذ بالتتابع عدة قرارات فورية، تتسق مع الظروف المحيطة، دون تفكير أو تردد.

ومع ذلك، اتخذ جميع قراراته بشكل عشوائي، أو ربما بطريقة خاطئة، ما دام يجهل تمامًا خطط العدو. بيد أنه تسلح بمسدسه. افترض بول حينئذ أن زوجته، بمجرد أن تتأهب للمغادرة، ستعود إلى الغرفة، وتنطلق برفقة الجاسوس، ولكن، بعد فترة قليلة، قرعت الكونتيسة الجرس، وقالت بضع كلمات للخادم الذي اتجه نحوها. انطلق مرتين صوت تنبيه سيارة، ثم هدير محرك يقترب ضجيجه شيئًا فشيئًا. نظر كارل إلى الردهة عبر الباب نصف المفتوح، واستدار نحو الكونتيسة، وكأنه يقول لها: «ها هي.. تنزل الدرج».

أدرك بول أن إليزابيث تتجه مباشرة إلى السيارة، حيث سيلحق بها كارل. في هذه الحالة، يجب أن يتخذ إجراءً عاجلًا، وألا يتوانى.

ظل مترددًا لبرهة من الوقت. هل يستفيد من أن كارل لا يزال موجودًا داخل القصر ويقتحم الغرفة، مطلقًا النيران عليه وعلى الكونتيسة فيرديهما قتيلين؟ هذا هو الأمل الوحيد لنجاة إليزابيث، ما دام هذان الوغدان هما الوحيدان المستاءان من وجودها، بيد أنه خشي الإخفاق في هذه المحاولة الجسورة، وقفز من الشرفة مستدعيًا برنارد.

- سوف تغادر إليزابيث في إحدى السيارات بصحبة كارل الذي سيقتلها بالسم. اتبعني.. وامسك مسدسك..

- ماذا تنوي أن تفعل؟

- سوف نرى.

تجولا حول القصر، ثم تسللا عبر الأشجار المتشابكة التي تصطف على جانبي الممر. ساد سكون عظيم في شتى الأرجاء. قال برنارد: «أنصت جيدًا.. هناك سيارة تنطلق». اعتصر القلق في البداية قلب بول، لكنه اعترض برنارد: «لا، لا، إنه هدير محرك السيارة».

في الواقع، عندما تمكنا من رؤية واجهة القصر الرئيسية، أبصرا أمام درج المدخل، سيارة ليموزين يتجمهر حولها قرابة عشرة جنود ومجموعة من الخدم. نزلت امرأة على درج مدخل القصر، ثم توارت داخل السيارة. قال بول: «إنها إليزابيث، وها هو الخائن كارل».

توقف الجاسوس على الدرجة السفلية، وأعطى أوامره للجندي المكلف بالعمل كسائق، حيث تناهت بعض هذه الأوامر إلى مسامع بول.

اقتربت لحظة المغادرة. تمر الدقائق، وإذا لم يعترض بول طريق السيارة، ستنطلق وبداخلها القاتل الآثم بصحبة ضحيته. لحظات حرجة ومرعبة، ذاك لأن بول ديلروز استشعر الخطر الذي يحوم حوله إذا أقدم على التدخل لإنقاذ إليزابيث، وتيقن بأن جهوده المبذولة ستغدو في مهب الريح، ما دام موت كارل لن يعيق الكونتيسة عن استكمال مخططاتها القذرة.

همس برنارد: «أنت لا تعتزم إنقاذ إليزابيث، أليس كذلك؟ يوجد فرقة من جنود الحراسة».

- أرغب في اتخاذ إجراء واحد: إطلاق النار على كارل.

- وماذا بعد ذلك؟

- بعد ذلك؟ سيُلقى القبض علينا. سيكون هناك استجواب وتحقيق، ثم تتفجر فضيحة مدوية، سيتورط الأمير كونراد في القضية.

- وسنُعدم رميًا بالرصاص. أقسم لك أن خطتك...

- هل يمكنك اقتراح خطة أخرى بديلة؟

توقف هدير محرك السيارة. استشاط الجاسوس كارل غضبًا، وأخذ يصب جام شتائمه وغضبه على رأس سائقه، حيث تمكن بول من سماع هذه الكلمات:

- أيها الأحمق! أنت لا تفعل شيئًا من ذاتك! لا يوجد بنزين. أين يوجد البنزين؟ هل يوجد بنزين بجوار المرأب؟ اركض بسرعة أيها الأبله. وأين معطفي المصنوع من الفرو؟ هل نسيته هو الآخر؟ هيا بسرعة! اذهب لإحضاره. سأتولى أمر القيادة بنفسي. نحن نجازف بحياتنا كثيرًا برفقة شخص أحمق مثلك.

شرع الجندي في الركض مهرولًا. وعلى الفور، أدرك بول أنه لكي يتوجه نحو المرأب، حيث تسطع أضواء المصباحين، لن يضطر إلى الابتعاد كثيرًا عن المكان الذي يختبئان فيه، والذي يسيطر عليه الظلام الدامس.

همس في أذن برنارد: «تعال معي، لدي خطة سوف تدركها بنفسك».

لم ينبعث أي صوت من خطواتهما المكتومة بسبب تكدس الحشائش الخضراء. وصلا إلى الأبنية الملحقة المخصصة للإسطبلات ومرائب السيارات، حيث تمكنا من التسلل دون أن يلاحظ أحد من الخارج انعكاس ظلهما. وجدا الجندي في غرفة خلفية بابها مفتوح على مصراعيه. تمكنا من داخل مخبأهما الآمن أن يبصرا الجندي وهو يأخذ أربع صفائح من البنزين. غادر الغرفة ومر من أمام بول وبرنارد.

انقضّا عليه بقوة بالغة، وبسرعة خاطفة، قبل أن يكون لديه الوقت الكافي لإطلاق صيحات النجدة، أسقطاه أرضًا، وشلا حركته، ثم وضعا كمامة على فمه.

قال بول لبرنارد: «أنجزِ الأمر على أكمل وجه. الآن، أعطني معطفه وقبعته. سعيت بالطرق كافة إلى تجنب هذا المشهد التنكري. لكنني سأصل في النهاية إلى

مبتغاي».

عندئذ سأله برنارد: «هل ستجازف بالخوض في هذه المغامرة؟ ماذا لو فُضح أمرك، واكتشف كارل أنك لست جنديه السائق؟

- إنه لن يفكر حتى في النظر إليَّ.

- ولكن ماذا لو تحدث معك؟

- لن أنبس ببنت شفة. فضلًا عن ذلك، بمجرد خروجنا من نطاق سياج القصر، لن يكون لدي ما أخشاه.

- وماذا بالنسبة إليّ؟

- أوثق يدي ورجلي سجينك بعناية، واحبسه في مكانٍ منزوٍ، ثم اختبئ وسط الأشجار الكثيفة الملتفة التي تقع خلف نافذة الشرفة. آمل أن ألحق بك هناك، بصحبة إليزابيث، نحو منتصف الليل، وسيتعين علينا نحن الثلاثة أن نسلك طريق النفق معًا. إذا تبين لك أنني لن أعد أدراجي...

- ماذا؟

- انطلق بمفردك، قبل بزوغ أشعة شمس يوم جديد.

- لكن..

كان بول قد ابتعد بضع خطوات بالفعل. تملكته حالة ذهنية تنطوي على عدم التطرق إلى التفكير في الأشياء التي اعتزم تنفيذها. فضلًا عن ذلك، بدت له الأحداث وكأنها تتسق مع أهوائه وتخبره أنه على حق. استقبله كارل بوابل من الشتائم المقذعة، ولكن دون أن يعير أدنى اهتمام لهذا الممثل الصامت الذي لم يكن بمقدوره أن يعبر عن مدى احتقاره له. تدثر الجاسوس بمعطفه المصنوع من الفرو، وجلس خلف مقود السيارة، في حين أن بول جلس بجواره.

كانت السيارة قد شرعت في الانطلاق عندما انطلق صوت قادم من أعلى درج مدخل القصر مُصدرًا هذا الأمر:

- كارل! كارل!

غمر القلق قلب بول لوهلة. إنه صوت الكونتيسة هيرمين.

اقتربت من الجاسوس وتحدثت إليه بالفرنسية بصوت خفيض:

- أوصيك بهذا الأمر يا كارل.. ولكن سائقك لا يفهم الفرنسية، أليس كذلك؟

- بالكاد يفهم الألمانية. غبي لأقصى حد ممكن. تستطيعين التحدث دون قلق يا صاحبة الفخامة.

- حسنًا، لا تصب سوى عشر قطرات من القارورة، وإلا..

- مفهوم يا صاحبة الفخامة، وماذا بعد؟

- ستكتب لي خطابًا بعد مرور أسبوع إذا سارت الأمور على ما يرام. اكتب لي على عنواننا في باريس، لا تكتب قبل ذلك الموعد، سيغدو خطابك بلا جدوى.

- إذن سوف تعودين إلى فرنسا يا صاحبة الفخامة؟

- لقد اختمرت الخطة في ذهني.

- هل هي نفس الخطة؟

- بالطبع. يبدو أن الطقس مواتٍ. إنها تمطر منذ بضعة أيام، وقد أخبرني رئيس أركان الجيش أنه سيتصرف من جانبه. إذن، سأكون هناك ليلة الغد، وسأكتفي بتقديم القليل من المساعدة..

- أوه! نعم، مد يد العون، ليس أكثر من ذلك. لقد أنجزت بنفسي الكثير من بنود هذه الخطة، وكل شيء يسير الآن على ما يرام. بيد أنكِ تطرقتِ للحديث عن خطة ثانية استكمالًا للخطة الأولى، وعلى الاعتراف أنها..

- يجب علينا أن نتحرك. انقلب الحظ علينا. إذا كُللت خطتي بالنجاح، سأضع حدًا لهذه السلسلة من الابتلاءات المتلاحقة.

- وهل حصلتِ على موافقة الإمبراطور؟

- لا يهم. هذه هي إحدى الخطط التي لم أتحدث معه بشأنها.

- لكن الأمر في غاية الخطورة.

- لا شيء يدعو للقلق.

- ألن تكوني بحاجة إليَّ هناك يا صاحبة الفخامة؟

- لا. أرحنا من جلبة هذه الصغيرة، وهذا يكفي الآن. وداعًا.

- وداعًا يا صاحبة الفخامة.

انطلقت السيارة. ينتهي الممر أمام رواق صغير يُستخدم بمثابة مركز للحراسة يتحكم في بوابة الحديقة. على كلا الجانبين تمتد الأسوار الشاهقة. خرج أحد الجنود من الرواق الصغير. أطلق كارل كلمة المرور «هوهنشتاوفن» ([4]). فُتحت البوابة، وانطلقت السيارة في طريق ممتد يشق أولًا المدينة الصغيرة أبريكورت، ثم يتعرج وسط التلال المنخفضة.

وهكذا وجد بول ديلروز نفسه، في تمام الساعة الحادية عشرة مساءً، وحيدًا وسط الحقول المهجورة، وبصحبته زوجته والجاسوس كارل. إذا نجح في التغلب على هذا الجاسوس، وهذا أمر لا يقبل الجدل أو الشك، سيُطلق سراح إليزابيث. عندئذ، عليه فقط أن يعود مرة أخرى، ويولج بوابة قصر الأمير كونراد بفضل معرفته لكلمة المرور، ثم يتقابل مع برنارد. عندما تكتمل مهمته وتتوج بالنجاح، وفقًا لما خطط له، سيعودون هم الثلاثة إلى قصر أورنكان عبر النفق.

استسلم بول لحالة البهجة الغامرة التي تسربت إلى وجدانه. إليزابيث هنا خلفه، تحت حمايته وفي كنف رعايته، إليزابيث التي فترت همتها، وخارت شجاعتها، رازحة تحت وطأة التجارب والمصاعب، لكنه مدين لها بالغفران والحُلم لأنها تعرضت للذل والبؤس والمهانة جراء خطأ اقترفه. لقد نسي كل شيء، أرَاد أن تغدو كل مشاهد هذه الدراما البشعة في طي النسيان، لينشغل ذهنه فقط بالخاتمة الوشيكة، بلذة الانتصار، بفك أسر زوجته.

لاحظ بول الطريق بعناية، حتى لا يتوه في أثناء العودة، وأخذ يحدد تفاصيل خطة هجومه التي سينفذها عندما تواتيه الفرصة المناسبة. عزم ألا يقتل الجاسوس، بل سيوجه إليه لكمة تفقده الوعي، وبعد أن يصرعه أرضًا ويوثقه بعناية، سوف يلقي به بين الشجيرات الكثيفة.

اجتازوا بلدة عظيمة، ثم قريتين، ثم مدينة توجب عليهم التوقف فيها وإظهار أوراق السيارة. بعد ذلك، امتدت الحقول مرة أخرى، وسلسلة من الغابات الصغيرة حيث لمعت أوراق أشجارها في أثناء مرورهم.

في تلك اللحظة، تلاشت أضواء مصباحي السيارة الأماميين، فأبطأ كارل سرعة السيارة، ثم تأفف قائلًا:

- أيها الأحمق، أنت لا تعرف أيضًا كيفية صيانة مصابيح السيارة! هل وضعت الكربيد مرة أخرى؟

لم يجبه بول بكلمة واحدة. استمر كارل في التأفف والهمهمة، ثم كبح فرامل سيارته مطلقًا وابل من السباب والشتائم:

- أيها الأخرق القذر! لم يعد بإمكاننا التقدم إلى الأمام.. هيا، تحرك، وأعد تشغيلهما.

وثب بول عن مقعده عندما توقفت السيارة على جانب الطريق.

لقد حانت اللحظة الحاسمة.

اهتم بول في البداية بأمر المصباحين، مراقبًا تحركات الجاسوس، وكان حريصًا على الابتعاد عن انعكاسات الضوء على وجهه. ترجل كارل عن الليموزين فاتحًا بابها، ثم شرع في التفوه ببعض الكلمات التي لم تتناهَ إلى أذني بول. أخذ يتمشى بجوار السيارة قائلًا: «حسنًا أيها الأحمق، هل ستعيد تشغيلهما؟»

كان بول قد أدار ظهره له منتبهًا إلى أفعاله ومترصدًا اللحظة المرتقبة عندما يتقدم الجاسوس خطوتين إلى الأمام ويصبح في متناول يده. مرت دقيقة. شد بول قبضتيه. تأهب لما سُيقدم عليه، وشرع في تنفيذ مخططه، إلا أن كارل طوقه بغتةً من خصره، وطرحه أرضًا، دون أن يبدي بول أدنى مقاومة.

صاح الجاسوس مثبتًا إياه أسفل ركبته: «آه! اللعنة! إذن، ألهذا السبب لم تنبس ببنت شفة؟ بدا لي أنك تتصرف بطريقة مثيرة للريبة، وأنت تجلس بجواري.. وبعد ذلك، لم أعبأ بالأمر.. تسرب الشك إلى قلبي عندما أضاء المصباح المظهر الجانبي لوجهك. إذن، من تكون أنت أيها المقدام؟ ربما أحد الكلاب الفرنسيين؟

تشدد بول متماسكًا، واعتقد لوهلة أنه سيكون قادرًا على التخلص من إحكام قبضة عدوه عليه. خارت قوى الخصم، وتراخت أعصابه، فراح بول يسيطر عليه شيئًا فشيئًا، وصاح قائلًا:

- نعم، أحد الفرنسيين، بول ديلروز، الشخص الذي أردت أن ترديه قتيلًا فيما مضى، زوج إليزابيث، ضحيتك.. نعم، إنه أنا، وأعلم جيدًا أنك.. الجندي البلجيكي الزائف لاشين، والجاسوس كارل.

توقفت الكلمات على باب شفتي الجاسوس، الذي لم يجرؤ سوى على سحب الخنجر من حزامه، ثم أشهره في وجه بول.

- آه! بول ديلروز.. اللعنة، ستغدو رحلتي مثمرة للغاية.. سأقتل كليكما واحدًا تلو الآخر.. الزوج.. والزوجة.. آه! لقد جئت لتسقط بين مخالبي..

رأى بول وميض نصل الخنجر يلمع أمام وجهه: أغلق عينيه، وهو ينطق باسم إليزابيث..

بعد مرور لحظة، وفي تتابع سريع للغاية، دوى صوت ثلاث رصاصات. أطلق أحدهم النيران من خلف حلبة قتال الخصمين. أطلق الجاسوس سيلٍ من الشتائم البغيضة. تراخت قبضته، سقط الخنجر من يده، ثم انبطح على بطنه مُتَأَوِّهًا:

- آه! كان يجب عليّ أن أكتم أنفاسها في السيارة.. كنت أظن أن هذا سيحدث..

تلجلج بصوت منخفض: «هذا ما أدفع ثمنه، وأعاني مرارته الآن!»

انتابه الصمت، ثم بعض التشنجات. شهقة الاحتضار الأخيرة، ثم انتهى كل شيء.

انتصب بول بسرعة على قدميه. ركض إلى الشخص الذي أنقذه، والذي كان لا يزال يحمل سلاحًا في يده، ثم قال، وقلبه مغمور بالبهجة: «إليزابيث!»

بيد أنه توقف فجأة وذراعاه ممدودتان أمامه. بدا له في الظلام أن قامة السيدة الواقفة أمامه مغايرة لقامة إليزابيث، سيدة أكثر طولًا وأكثر ضخامة.

راوده قلق منقطع النظير، وقال متلعثمًا: «إليزابيث.. هل أنتِ هي؟ هل أنتِ حقًا هي؟

وفي الوقت نفسه، كان لديه حدس قوي، مترقبًا الإجابة التي كان على وشك سماعها.

قالت السيدة: «لا، غادرت السيدة ديلروز قبل انطلاقنا بوقت قليل في سيارة أخرى، كان علينا أنا وكارل أن نلحق بها».

تذكر بول هذه السيارة التي ظن أنه سمع هدير محركها عندما كان يجول بصحبة برنارد حول القصر. ونظرًا لأن انطلاق كلتا السيارتين حدث على مرحلتين فصلت بينهما عدة دقائق على الأكثر، لم يفقد بول حماسته وشجاعته فصاح: «إذن، هيا، دعينا نسرع. سنزيد من سرعة السيارة، ومن المؤكد أننا سنلحق بها. بيد أن المرأة

اعترضته على الفور قائلة: «نلحق بها؟ هذا محال. السيارتان تسيران في طريقين مختلفين».

- لا يهم، ما دامتا متجهتين نحو هدف واحد. إلى أين اصطُحبت السيدة ديلروز؟

- إلى قصر تمتلكه الكونتيسة هيرمين.

- وأين يوجد هذا القصر؟

- لا أدري.

- ألا تعلمين؟ هذا أمر مثير للفزع. ألا تعرفين اسم القصر على الأقل؟

- لم يخبرني كارل باسمه. لا أعلم شيئًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس

الصراع المستحيل

شعر بول، في خضمّ الضيقِ والذعرِ الشديدينِ اللذينِ أثارتهما كلماتُ السيدةِ الأخيرةِ، ومشهدِ الحفلِ الباذخِ الذي أقامه الأمير كونراد، بحاجةٍ ملحةٍ إلى ردةِ فعلٍ قويةٍ وفوريةٍ. بالطبع، لقد تلاشت، واضمحلت كل آماله. فشلت خطته التي كان يعتزم من خلالها عبور النفق قبل بزوغ فجر اليوم الجديد. وإذا أمكنه الافتراض بأنه سيتمكن من العثور على إليزابيث، وسيحررها من أسرها -وهو أمر يعدُ ضربًا من ضروب الخيال- فمتى، وفي أي لحظة سيحقق مبتغاه، ويدرك ضالته المنشودة؟ وكيف، بعد كل هذا، سيفلت من قبضة العدو، ويعود إلى فرنسا؟

ومع ذلك، لم تفتر همته، ولم تلن عزيمته. أدرك أن الفشل لا يمكن مداواته. يجب أن تضطرم جمرة حماسته من جديد وأن يواصل مسيرته في عزم وثبات. يجب أن تتقد حميته أكثر من أي وقت مضى. أخذ يقترب شيئًا فشيئًا من الجاسوس. كانت المرأة قد انحت نحو الجثمان متفحصة إياه على ضوء أحد المصابيح.

قال لها بول: «لقد فارق الحياة، أليس كذلك؟»

- بلى، لقد وافته المنية، تلقى رصاصتين في ظهره.

همست المرأة بصوت متقطع ومتبدل: «حقًا، ما فعلته يعدُ أمرًا شنيعًا ومرعبًا. ها أنا قد قتلته بمفردي! هذه ليست جريمة قتلٍ متعمدةٍ يا سيدي، أليس كذلك؟ ألم يكن لدي الحق فيما فعلته؟ وبالرغم من ذلك، يا له من أمرٍ مروعٍ.. ها أنا قد قتلت كارل!»

كان وجهها لا يزال شابًا باهرَ الجمالِ، وبالرغم من أنه وجهٌ مألوفٌ فقد بدا متشنجًا. لم تتحول عيناها لحظةً عن جثة القتيل.

سألها بول: «من أنتِ؟»، فأجابته منتحبةً: «لقد كنت صديقته.. بل أكثر من ذلك، أو بالأحرى أسوأ من ذلك.. أقسم لي أنه سيتزوجني.. ثم حنث بقسمه! إنه كاذب يا سيدي، جبان، وحقير! آه! غدوت شيئًا فشيئًا، جراء التزام الصمت، متواطئةً معه في كل ما عرفته عنه. أثار هذا الشخص الفزع والرعب في قلبي! ارتعدت فرائصي، وخضعت ذليلة صاغرة له، لم أعد أحبه.. تفاقمت في صدري الضغائن وأودت بي إلى تلك النهاية المحتومة! ولأنه كان يشعر بكراهيتي تجاهه، قال لي مرارًا وتكرارًا: «أنتِ قادرةٌ تمامًا على قتلي آجلًا أم عاجلًا». لا يا سيدي، راودتني كثيرًا هذه الفكرة، لكنني لم أكن أمتلك الشجاعة الكافية. تمكنت فقط من تنفيذ مخططي منذ بضع دقائق، عندما أبصرته يشرع في قتلك.. ولا سيما عندما سمعت اسمك..

- اسمي، لماذا؟

- أنت زوج السيدة ديلروز.

- وماذا في ذلك؟

- أنا أعرفها. ليس منذ فترة طويلة، منذ اليوم فقط. التقيتها في صبيحة هذا اليوم، عندما عاد كارل من بلجيكا، ومر على المدينة التي أقطن فيها، ثم أخذني إلى منزل الأمير كونراد. تعلق الأمر بالعمل كخادمةٍ لسيدةٍ فرنسيةٍ يتوجب علينا اصطحابها إلى أحد القصور. أدركت فحوى هذه المهمة. كان عليَّ أن أكون شريكةً في جريمته، منحني ثقته الكاملة.. ثم رأيت هذه السيدة الفرنسية.. رأيتها تذرف الدموع. إنها إنسانةٌ لطيفةٌ، ودودةٌ وجميلةٌ للغاية، حَركَتْ مشاعري وهزت وجداني. قدمت لها وعدًا بإنقاذ حياتها. فقط، لم أعتقد أنني سأفي بوعدي بهذه الطريقة الجنونية وأقدم على قتل كارل.

نهضت عن مكانها بغتة وتفوهت بنبرةٍ عنيفةٍ: «لكن كان لا بد من ذلك يا سيدي. كان يجب أن ينتهي الأمر بهذه الكيفية، ذاك لأنني عرفت الكثير والكثير عنه. إما هو أو أنا.. هو دون أدنى شك.. هذا أفضل بكثير، لن أندم على شيءٍ.. لم يكن هناك شخص حقير مثله في كل الدنيا. ولا يجب علينا التردد إزاء أمثال هذا الوغد. لا، لست نادمةً على شيءٍ.

حدثها بول قائلًا: «كان خادمًا مخلصًا للكونتيسة هيرمين، أليس كذلك؟

ارتجفت، وخفضت صوتها لتجيبه: «من فضلك، دعنا ألا نتحدث بشأنها، لا تزال أكثر قسوة وفظاظة. تنفث حقدًا وشرًا طوال حياتها! آه! سوف تراودها الشكوك بشأني!

- من هي هذه المرأة؟

- وهل يدري أحد؟ تصول وتجول، تُحكم سيطرتها على كل مكان تخطوه قدماها.. الجميع يدينون لها بالولاء والطاعة مثلما يفعلون مع الإمبراطور. تثير الخوف والهلع في قلب كل شخص يراها. لا تختلف كثيرًا عن شقيقها..

- شقيقها؟

- نعم، الميجور هيرمان.

- حسنًا! تقولين إن الميجور هيرمان هو شقيقها؟!

- بالطبع، يكفي أن ترى ملامح وجهه. إنه الكونتيسة هيرمين بذاتها!

- إذن فقد رأيتهما معًا من قبل، أليس كذلك؟

- أقسم لك أنني لا أتذكر هذا.. لمَ هذا السؤال؟

كان الوقت ثمينًا للغاية بالنسبة إلى بول؛ لذا لم يبغِ الإصرار على سؤاله. ما تعرفه هذه السيدة عن الكونتيسة هيرمين لم يكن جديرًا بالاهتمام.

توجه إليها متسائلًا: «هل تقيم مع الأمير كونراد؟

- في الوقت الحالي، نعم.. يسكن الأمير في الطابق العلوي في الخلف، وهي تقطن معه في نفس الطابق، ولكن في الأمام.

- إذا أخبرتها بأن كارل قد تعرض لحادث، وأرسلني أنا سائقه، لأخطرها بهذا الأمر، هل ستستقبلني؟

- بكل تأكيدٍ.

- هل تعرف سائق كارل، الذي أخذت مكانه؟

- لا. إنه أحد الجنود البلهاء الذين أحضرهم كارل من بلجيكا. شرد بول بتفكيره لوهلة، ثم تابع حديثه: «ألتمس منكِ أن تساعديني».

دفعا الجثة نحو حفرةٍ على الطريق، ثم أنزلاها هناك، وغطّياها بأغصان الأشجار اليابسة.

- سوف أعود إلى القصر في أقرب وقت ممكنٍ، أما أنتِ فسِيرِي على قدميكِ حتى تصلي إلى منطقةٍ مأهولةٍ بالسكان. أيقظي الناس واروي لهم قصة مقتل كارل على يد سائقه، وتمكنك من الفرار. الوقت الذي سيستغرقه إخطار الشرطة واستجوابك وإجراء اتصالٍ هاتفيٍّ بالقصر مهم للغاية.

ارتعدت خوفًا قائلةً: «ولكن، ماذا عن الكونتيسة هيرمين؟»

- لا تخشيْ شيئًا بشأنها. كيف لها أن تراودها الشكوك حولكِ، ما دامت نتائج التحقيقات ستشير بأصابع الاتهام إليَّ بمفردي؟ فضلًا عن ذلك، لا يوجد أمامنا خيارٌ آخر.

دون أن ينتظر بول سماع جوابها، أعاد تشغيل السيارة ممسكًا بعجلة القيادة، وبالرغم من التوسلات المذعورة، والحائرة التي انطلقت من فم المرأة، انطلق بول بالسيارة.

قال لنفسه: «سوف أرى الكونتيسة. عندئذ، إما أن ينتابها القلق بشأن مصير كارل المجهول، وتطلب مني أن أصطحبها إليه، أو أنها ستستقبلني في إحدى غرف القصر وأجبرها بأيةِ وسيلةٍ ممكنةٍ أن تكشف لي اسم القصر المستخدم بمثابة سجن لإليزابيث. سألزمها برسم خطة محكمة لي كيما أنقذ إليزابيث وأطلقها حرة»

ولكن، كم بدا كل شيءٍ مبهمًا! يا لها من عقبات مريرة! يا لها من أمورٍ مُحالةٍ يتعذر تحقيقها! كيف لي أن أفترض بأن الظروف ستكون مواتيةً لغلق كلّ أبواب العون والنجدة في وجه الكونتيسة، ولدرجةٍ جعلها تبدو حمقاء؟ امرأة في مثل مكانتها تختلف شكلًا ومضمونًا عن أولئك النساء اللواتي تنخدعن بالكلمات وتخضعن للتهديدات.

فليكن! زجر بول الشكوك التي وثبت على ذهنه. يلوح النجاح مرحبًا به، في ختام مهمته، ولكي يصل إليه بأقصى سرعةٍ ممكنةٍ، زاد من سرعة السيارة، وانطلق بها

مثل إعصار عبر الحقول المهجورة، وبالكاد تباطأ في أثناء مروره عبر البلدات الصغيرة والمدن.

قال للجندي المكلف بالحراسة والذي يقف خارج الرواق الصغير الذي يستخدم كمركز للحراسة، صائحًا بأعلى صوته: «هوهنشتاوفن».

أرسله الضابط المناوب، عقب استجوابه، إلى ضابط الصف الذي يكمن في مركز حراسةٍ آخر يقع بالقرب من درج مدخل القصر. يمتلك ضابط الصف وحده صلاحية الدخول إلى القصر، ومن خلاله تُبلّغ الكونتيسة بما يجري في الخارج.

قال بول: «حسنًا، سأضع السيارة في المرأب أولًا»

بمجرد وصوله إلى هناك، أطفأ مصباحي السيارة الأماميين، وفي أثناء توجهه إلى القصر، خطرت في باله فكرة -قبل أن يذهب للقاء ضابط الصف- البحث عن برنارد، والاستعلام منه عما تمكن من اكتشافه.

وجده أخيرًا خلف القصر، مختبئًا وسط الشجيرات الكثيفة التي تقع في مواجهة نافذة الشرفة.

سأله برنارد بقلق بالغ: «إذن، لماذا أنت هنا بمفردك؟»

- لم تفلح خطتي. اصطُحبت إليزابيث في السيارة الأولى.

- ما تخبرني به يُعد أمرًا خطيرًا للغاية!

- نعم، ولكن بإمكاننا تدارك الخطأ.

- كيف؟

- لا أعرف بعد. دعنا نتحدث بشأنك. أين كنت؟ وماذا عن السائق؟

- كن مطمئنًا. لن يكتشف أحد مكانه.. على الأقل حتى صباح هذا اليوم، عندما يأتي السائقون الآخرون إلى مرائب السيارات.

- حسنًا. وماذا أيضًا، بخلاف هذا الشأن؟

- انطلقت منذ ساعة دورية استطلاع في الحديقة.. تمكنت من الاختباء جيدًا.

- ثم بعد ذلك؟

- توجهت إلى النفق. شرع الجنود هناك في الاستفاقة من سكرهم. فضلًا عن ذلك، هناك شيءٌ دفعهم إلى النهوض بغتة والوقوف الإجباري بقسوةٍ على أقدامهم!

- ماذا؟

- الظهور المباغت لشخصٍ لم يعد مجهول الهوية، المرأة التي التقيتها في كور□ يني، والتي لا تختلف ملامحها البتة عن ملامح الميجور هيرمان.

- هل كانت تقوم بجولة؟

- لا، كانت راحلة.

- نعم، أعلم ذلك، يجب أن ترحل قريبًا.

- لقد غادرت بالفعل.

- هذا غير معقول، رحيلها إلى فرنسا لم يكن فوريًا.

- لقد شاهدتها عندما غادرت.

- ولكن من أين؟ أي طريق سلكت؟

- حسنًا، وماذا عن النفق؟ هل تعتقد أن هذا النفق لم يعد مفيدًا؟ سلكت هذا الطريق، وأمام ناظري.. استقلت شاحنة صغيرة يقودها ميكانيكيٌّ. ونظرًا لأن الغرض من رحلتها -كما أخبرتني أنتَ- هو الذهاب إلى فرنسا، سوف يتم توصيلها إلى مفرق طريق كور□يني. غادرت قبل ساعتين. تناهى إلى مسامعي هدير محرك الشاحنة في أثناء العودة.

بات اختفاء الكونتيسة هيرمين بمثابةِ صفعةٍ جديدةٍ على وجه بول. كيف سيتمكن إذن من العثور على إليزابيت وإطلاق سراحها؟ ما الحبل الذي يمكنه أن يتشبث به وسط كتلة من الظلام الدامس حيث تذهب كل جهوده سدىً وتودي به في كل مرة إلى كارثة جديدة؟

جمع شتات قواه الخائرة متجلدًا بالصبر، تفجرت ينابيع إرادته، وعزم على مواصلة مهمته حتى تكلل بالنصر المبين.

سأل برنارد: «ألم تلحظ أي شيءٍ آخر؟»

- لا شيءَ على الإطلاق.

- ألم يمر أحد أمامك ذهابًا أو إيابًا؟

- لا. خلد الخدام إلى النوم، وانطفأت جميع أنوار القصر.

- كل الأضواء؟

- كل الأضواء ما خلا الضوء المنبعث من هناك. انظر، إنه فوق رأسينا.

ينبعث الضوء من الطابق العلوي، من إحدى النوافذ التي تقع فوق النافذة التي أبصر بول من خلالها حفل عشاء الأمير كونراد. استأنف بول حديثه: «هل كان الضوء منبعثًا من النافذة، عندما صعدت أنا إلى الشرفة؟

- نعم حتى النهاية.

همس بول: «وفقًا لمعلوماتي، هذه الغرفة تخص الأمير كونراد. احتسى الخمر حتى الثمالة، وكان يجب أن يصعد إلى هناك.

- في الواقع، رأيت ظلال بعض الأشخاص في تلك الأثناء، ومنذ ذلك الحين بدا كل شيءٍ ساكنًا، وجامدًا كالصخر.

- حقًا، لا بد أن الأمير المبجل يغط في سباتٍ عميقٍ بعد أن غيبت الخمر عقله. آه! ليتنا نستطيع أن ندركه! ليتنا نتمكن من دخول هذه الغرفة!

- الأمرُ يَسيرٌ للغاية.

- من أين؟

- عن طريق الغرفة المجاورة، التي أعتقد أنها المرحاض، والتي تُركت نافذتها مواربة قليلًا، لمنح الأمير القليل من الهواء دون أدنى شك.

- لكن يلزمنا سُلّم خشبي.

- رأيت واحدًا مستندًا إلى جدار المرأب. هل تريده؟

قال بول بنبرة حماسية: «نعم، نعم. أسرع لإحضاره».

حينئذٍ، تيقن بول من أن مداخل القصر، يمينًا ويسارًا، خالية تمامًا، وأن الجنود الموجودين في مركز الحراسة لم يبتعد أحد منهم عن درج مدخل القصر. بمجرد عودة برنارد، أسند بول السُّلّم إلى الجدار، وصعد الاثنان إلى الغرفة.

كانت النافذة المفتوحة هي بالفعل نافذة المرحاض الذي غمره الضوء المنبعث من الغرفة المجاورة. لم يتناهَ إلى مسامعهما أي جلبة قادمة من الغرفة المجاورة سوى صوت شخيرٍ صاخبٍ. مد بول رأسه إلى الأمام.

بدا الأمير كونراد مستلقيًا بالعرض في فراشه، مرتديًا زيه العسكري الملطخ بالبقع، ومسترخيًا، وجامدًا كتمثالٍ لعرض الملابس. بدا غارقًا في سباتٍ عميقٍ، حتى أن بول لم يتردد في تفحص الغرفة بدقة. هناك غرفة صغيرة أخرى بمثابة ردهة تفصلها عن الممر الرئيسي، ويوجد بها بابان أغلقهما بول بإحكام وأوصد أقفالهما. وهكذا، وجد الصهران أنفسهما منفردين برفقة الأمير كونراد، دون أن ينبعث أي صوت إلى خارج الغرفة.

قال بول عندما وزّعا المهام بينهما: «هيا»

هم بول بوضع منشفةٍ مطويةٍ على وجه الأمير، وحاول جاهدًا أن يدفع طرفيها داخل فمه، في حين أن برنارد، استخدم عدة مناشف أخرى، في تقييد ساقي ومعصمي الأمير. أُنجزت المهمة في صمتٍ تام. لم تكن هناك أية مقاومة من قبل الأمير، ولم تنطلق أية صيحة فزع. فتح الأميرُ عينيه، ثم رمق مهاجميه بنظرة شخص فقد وعيه، بيد أن الخوف المتزايد تسرب رويدًا رويدًا إلى أعماقه، وراح يستشعر الخطر الذي يحدق به.

قال برنارد هازئًا: «تبددت شجاعة وريث الإمبراطور المقدام. يا للجبن والعار! هيا أيها الشاب، عليك أن تتمالك نفسك». تمكن بول، في نهاية المطاف، من وضع نصف المنشفة في فمه، ثم قال:

- الآن، حان وقت المغادرة.

سأله برنارد: «ماذا تنوي أن تفعل؟»

- سوف نصطحبه معنا.

- إلى أين؟

- إلى فرنسا.

- إلى فرنسا؟!

- بكل تأكيد! سنأخذه معنا كرهينة، سيشكل مكسبًا كبيرًا لنا!

- لن يسمحوا لنا بالخروج به من ألمانيا.

- وماذا عن النفق.

- هذا أمر متعذر تحقيقه! المراقبة على أطراف النفق نشطة للغاية الآن.

- سوف نرى ذلك.

أمسك بول مسدسه وصوبه نحو رأس الأمير كونراد قائلًا: «أنصت إليّ جيدًا. أفكارك مشوشة للغاية حتى أنك لن تتمكن من فهم فحوى أسئلتي. لكنك بالتأكيد تفهم لغة هذا السلاح، أليس كذلك؟ إنها لغة غير معقدة، وغير عثرة الفهم، حتى بالنسبة إلى شخصٍ مخمورٍ مثلك يرتجف خوفًا. حسنًا، إذا لم تتبعني بهدوءٍ، وإذا حاولت أن تقاوم محدثًا بعض الجلبة.. إذا عرَّضت حياتي أو حياة رفيقي للحظة واحدة للخطر ستخترق رصاصتي رأسك. هل نحن متفقان؟

هز الأمير رأسه موافقًا.

- هذا رائع. فُك القيود التي توثق ساقيه يا برنارد، ولكن قيد يديه جيدًا خلف ظهره.. هذا جيد.. دعونا ننطلق في صمتٍ.

نزلوا الدرج في هدوءٍ تام، وفي أفضل ظروف ملائمة، ساروا عبر الأشجار الكثيفة وصولًا إلى السياج الخشَّبي الذي يفصل الحديقة عن السور الضخم المخصص للثكنات العسكرية. هناك، مروا بالأمير من جانب لآخر مثل حزمة من الأعواد ينقلانها، ثم ساروا في نفس الطريق الذي جاؤوا منه، حتى وصلوا إلى المحاجر.

وبالإضافة إلى أن القمر راح ينثر أشعته بغزارة، وبدت تلك الليلة صافية للغاية، ولم تعق سيرهم، إلا أنهم لاحظوا أمامهم وهجًا متناثرًا، لا بد أنه يتصاعد من غرفة الحراسة الواقعة عند مدخل النفق. في الواقع، أضيئت جميع الأنوار في مركز حراسة الجنود الذين وقفوا خارج الكوخ يحتسون القهوة.

أمام النفق، يتمشى أحد الجنود وبندقيته على كتفه.

همس برنارد: «نحن اثنان، وهم ستة جنود، وعند سماع دوي أول طلقة نارية سينضم إليهم بضع مئات من الجنود الأوغاد المتمركزين على بعد خمس دقائق من هنا. سنخوض صراعًا غير متوازن، ما رأيك؟

وما زاد الطين بِلة وفاقم من صعوبة المهمة حتى أنها أضحت عقبة منيعة يستحيل اجتيازها هو إدراكهم أنهم ثلاثة أشخاص وليسوا شخصين، وأن أسيرهم يشكل بالنسبة إليهما أكبر مصدر إزعاج. برفقته، يتعذر ركضهما، ويستحيل فرارهما. كان لا بد من اللجوء إلى حيلة ماكرة.

تحركا ببطءٍ وبحذرٍ بالغٍ، حتى لا يتدحرج أي حجر أسفل أقدامهما أو أسفل قدمي الأمير، ثم حدَّدا للسير، خارج نطاق المكان الذي يتسرب إليه الضوء، طريقًا دائريًا يُمكنهما من الوصول، خلال ساعة من الوقت، إلى المنطقة المجاورة للنفق، على المنحدرات الصخرية التي ترتكز عليها دعاماته الأساسية.

تحدث بول إلى برنارد بصوت منخفض للغاية، ولكن بطريقة تتيح للأمير فرصة سماع ما يقوله: «ابقَ هنا، واتبع تعليماتي جيدًا. في البداية، أنت ستتولى مسؤولية الأمير.. احكم قبضتك على مسدسك، وطوق رقبته بيدك اليسرى. إذا أبدى أدنى مقاومة هَشِّمْ رأسه. ستنجم عواقب وخيمة ذات مردودٍ سيئ علينا، ولكن الضرر الأعظم سيلحق به. من جانبي، سوف أقف على مسافة قريبة من الكوخ، وسأسعى لاستقطاب أنظار رجال الحراسة الخمس. لذا؛ فإما أن ينضم الجندي المكلف للحراسة، أمام الكوخ، إلى رفاقه -وفي هذه الحالة سوف تمر بسلام مقتادًا الأمير- وإما أنه لن يبرح مكانه حتى لا يخرق الأوامر، وفي هذه الحالة، سوف تطلق النار عليه دون أن ترديه قتيلاً.. ثم تمر بهدوءٍ.

- نعم، ولكن إذا تمكنت من المرور، سيركض الجنود الألمان مهرولين خلفي أنا والأمير.

- بالتأكيد.

- ثم يلحقون بنا.

- لن يتمكنوا من الإمساك بك.

- هل أنت واثق من ذلك؟

- بلا أدنى شك.

- ما دمت تجزم بذلك..

توجه بول إلى الأمير قائلًا: «وأنت أيضًا، هذا مفهوم أليس كذلك؟ عليك بالخضوع المطلق، وإلا فإن ارتكاب الحماقات، وسوء الفهم سيوديان بحياتك إلى التهلكة.

همس برنارد في أذن صهره: «التقطت حبلًا من الأرض، وسأطوق به عنقه. إذا صدرت منه أية حماقة، ستنقطع أواصر علاقته بالحياة إثر ضربتي القاضية. ولكن، أود إخبارك يا بول بأنه إذا جال في خاطره أن يقاوم، فلن أتمكن من قتله بمثل هذه الطريقة بدمٍ باردٍ»

- لا تقلق. تنتابه حالة هلعٍ شديدةٍ تعوقه عن المقاومة. سوف يتبعك مثل كلبٍ خانعٍ حتى الناحية الأخرى من النفق.

- إذن، ماذا يتوجب عليَّ فعله حالمَا أصل إلى هنالك؟

- بمجرد وصولك سالمًا، احتجزه بين أنقاض قصر أورنكان، ولكن لا تكشف هويته الحقيقة لأي مخلوقٍ على الأرض.

- وماذا عنك يا بول؟

- لا تقلق بشأني.

- ولكن..

- كلانا يجازف بحياته، والخطر يحدق بنا من كل جانب. اللعبة التي سنقدم عليها محفوفةٌ بالهلع والرعب، وقد تنتهي بخسائر فادحةٍ. ولكن إذا حققنا بغيتنا وظفرنا بالفوز، ستغدو إليزابيث حرة طليقة. إذن، دعنا ننطلق بعزم وبقلب متحمس. أراك قريبًا يا برنارد. يجب إنهاء الأمر بطريقة أو بأخرى، في غضون عشر دقائق.

عانقا بعضهما البعض لوقت طويل، ثم مضى بول مبتعدًا.

أوضح بول أن الجهود المبذولة لن تتوج بالنجاح إلا إذا امتزجت بالجرأة وسرعة البديهة، ويجب الشروع في هذه المهمة المحفوفة بالمخاطر مثلما يقدم المرء على اللجوء إلى مناورةٍ يائسةٍ. فقط عشر دقائق أخرى، وستنطوي آخر صفحات مغامرة مليئة بالإثارة والرعب. عشر دقائق أخرى، وسوف يكلل بالنصر أو يعدم رميًا بالرصاص.

بدت جميع الإجراءات التي اتخذها، منذ هذه اللحظة، مرتبة ومنسقة للغاية كما لو كان يمتلك قدرًا كبيرًا من الوقت ليعد عدته بعنايةٍ بالغةٍ متيقنًا من نجاحه المحتوم، بيد أنها كانت، في واقع الأمر، سلسلة من القرارات المنفردة التي اتخذها تباعًا في ظل ظروفٍ مفجعةٍ.

سلك بول الطريق الدائري، متماسكًا فوق سفوح التلال التي تشكلت من الرمال، في الممر الضيق الذي يربط بين المحاجر والمعسكر المخصص لجنود الحراسة. دفعته الصدفة العجيبة في آخر سفوح التلال إلى الاصطدام بكتلة متهاوية من الأحجار. أدرك، متلمسًا طريقه، أن هذه الكتلة خلفت وراءه كومة من الرمال والحصي.

قال لنفسه دونما أن يفكر مليًا أو يتروى: «هذا بالفعل ما أحتاج إليه».

ركل بعنف كتلة الأحجار المتهاوية فتأرجحت، واندفعت على الفور، باتجاه خور منخفض، ثم سقطت في الممر الضيق محدثةً صوت ضجيج انهيارٍ هائلٍ. قفز بول بغتةً وسط الأحجار منبطحًا على الأرض، وأخذ يصرخ طلبًا للنجدة، كما لو كان ضحية لحادث. هرع جنود الحراسة على الفور.

هرول ما لا يقل عن خمسة جنود مسرعين باتجاهه، ثم ساعدوه على النهوض عن الأرض ليستجوبوه. أعطى بول لضابط الصف، بصوت بالكاد يمكن سماعه، إجابات غير متسقة ومتقطعة، يمكن من خلالها استنتاج أن الأمير كونراد أرسله ليبحث عن الكونتيسة هيرمين. شعر بول أن حيلته لن تفلح وسينكشف أمره قريبًا،

لكنه أيقن أن كل دقيقة يربحها لا تقدر بأغلى الأثمان، ما دام برنارد سيغتنم الفرصة ويتعامل بحكمة مع الجندي السادس المكلف بالحراسة أمام النفق، ثم يفر هاربًا مصطحبًا الأمير كونراد. ربما سيأتي هذا الجندي إلى هنا أيضًا. أو ربما سيتخلص منه برنارد دون اللجوء إلى استخدام مسدسه، وبالتالي دون أن يلفت انتباه الجنود الآخرين.

رفع بول صوته تدريجيًا، وتلجلج في تقديم توضيحات مبهمة أثارت غضب واستياء ضابط الصف لعدم إدراك فحواها. حينئذٍ، دوى صوت طلق ناري، تبعه تفجيران آخران. تلعثم ضابط الصف، في تلك اللحظة، لأنه لم يكن على درايةٍ تامةٍ بمصدر هذه الجلبة. ابتعد الجنود الآخرون عن بول مرهفي السمع إلى دوي الطلقات النارية. تسلل بول هاربًا من وسطهم، ومضى نحو الأمام مخترقًا الظلام دون أن يبصره أحد، ثم انطلق بعيدًا. شرع في الركض عند أول منعطف، ثم وصل إلى الكوخ الخشبي في بضع قفزات سريعة. لمح بطرف عينيه، على بعد ثلاثين خطوة، برنارد يهاجم الأمير كونراد الذي حاول أن يلوذ بالفرار، وبالقرب منهما، يزحف الجندي المكلف بالحراسة على الأرض، مطلقًا صيحات الألم والتأوهات.

تفحص بول بتروٍ رؤيته الدقيقة للغاية لما يتوجب عليه فعله. تُعد محاولة الهبوب لنجدة برنارد، والهروب برفقته ضربًا من ضروب الجنون، ذاك لأن خصومهما سيتمكنون حتمًا من ملاحقتهما والإمساك بهما، وفي تلك الحالة سيُحرّر الأمير كونراد من أسره. لا، المغامرة الكبرى التي يتوجب عليه خوضها تكمن في إفشال خطة هجوم رجال الحراسة -الذين لاحت ظلالهم الآن بمجرد مغادرتهم المر الضيق- على برنارد، ومنحه القدر الكافي من الوقت كيما يلوذ بالفرار ملقيًا القبض على الأمير.

خبأ بول نصف جسده وراء الكوخ، مصوبًا مسدسه باتجاه رجال الحراسة، وصائحًا: «توقفوا، ولا تتقدموا خطوة إلى الأمام».

لم يمتثل ضابط الصف للأمر مخترقًا المنطقة المضاءة. أطلق بول رصاصة عليه أسقطته طريحًا على الأرض، لكنها لم تردهِ قتيلًا، لأنه شرع في إصدار بعض الأوامر بنبرة فظة: «تقدموا إلى الأمام! انقضوا عليه! إلى الأمام يا كومة الجبناء الكسالى!

لم يتحرك الجنود قيد أنملة. استولى بول على إحدى البنادق المحزومة بالقرب من الكوخ، ثم ألقى نظرة إلى الخلف، ورأى برنارد يُحكم سيطرته تمامًا على الأمير كونراد، ويجره إلى أعماق النفق.

فكر بول: «لن يتطلب الأمر سوى خمس دقائق فقط كيما يتمكن برنارد من بلوغ أبعد نقطة ممكنة». تجلد بول بالصبر، وتحلى بالهدوء في أثناء مرور هذه الدقائق الحاسمة المعدودة التي راح يحسبها عبر نبضات قلبه المنتظمة.

ظل ضابط الصف، الذي لم يكن بمقدوره التحقق من هيئة الأمير كونراد عبر ظله بجوار ظل برنارد الذي لاذ بالفرار، يصيح بأعلى صوته: «إلى الأمام! اهجموا

عليه! إلى الأمام!». استند على ركبتيه، وأطلق رصاصة من مسدسه على بول، فأصابه في ذراعه، ثم تعالى صوت صياحه قائلًا: «تقدموا إلى الأمام، هناك رجلان يجتازان النفق! إلى الأمام! التعزيزات قادمة في الطريق إليكم!

ركضت نصف دزينة من الجنود نحو النفق إثر سماع دوي الطلقات النارية. تمكن بول، الذي نجح في اختراق باب الكوخ، من تهشيم زجاج النافذة، وأطلق النار ثلاث مرات متتالية. توارى الجنود في أماكن متفرقة، وبمجرد وصول التعزيزات إليهم، امتثلوا لأوامر الضابط، ثم اختفوا على الفور. رآهم بول يتسلقون المنحدرات المجاورة ليطوقوه ويشتتوا انتباهه. أطلق بضع طلقات أخرى، ولكن ما الجدوى! تلاشت آماله في الصمود أمامهم ومقاومتهم بشراسة لأطول فترةٍ ممكنةٍ.

ومع ذلك، تشبث بالإصرار والعزيمة، وأبقى أعداءه رابضين في أماكنهم على مسافة بعيدة منه. أطلق الرصاص بلا هوادة كي يربح أكبر قدر من الوقت. بيد أنه أدرك أن مناورة العدو الخبيثة تهدف إلى -عقب السعي إلى تطويقه وتشتيت انتباهه- التقدم ناحية النفق ومطاردة الشخصين الهاربين في آن واحد..

تمالك بول نفسه مدركًا تمام الإدراك أن كل ثانية تمر، كل ثانية لا تقدر بثمن، تزيد من المسافة التي تفصل بين أعدائه وبرنارد. اندفع ثلاثة جنود إلى الحفرة، ثم أربعة، ثم خمسة. فضلًا عن ذلك، بدأ الرصاص ينهمر كالسيل على الكوخ. قام بول بحسبةٍ عقليةٍ صغيرةٍ: «لا بد أن برنارد الآن على بُعد ستمئة أو سبعمئة متر. الرجال الثلاثة الذين يطاردونه على بُعد خمسين مترًا. خمسة وسبعون مترًا الآن. إذن، كل شيء على ما يرام».

تقدمت كتلة متراصة من الجنود نحو الكوخ الخشبي، يبدو أنه جال في خاطرهم أن بول ليس مختبئًا بمفرده في الداخل، فقد تضاعفت جهود مقاومته وبلغت أقصى حد يخاله العقل. هذه المرة، لم يكن هناك مفر سوى الاستسلام. فكر بول قائلًا: «لقد حان الوقت، برنارد الآن خارج إطار منطقة الخطر».

هرع بول بغتة نحو لوحة المفاتيح التي تحتوي على مقابض التحكم في حُفَرِ الألغام التي زُرعتْ في النفق. حطم زجاج اللوحة بمقبض بندقيته، ثم طوى المَقبضين الأول والثاني.

بدت الأرض وكأنها ترتجف رعبًا. انبعث صوت هديرٍ مدوٍ كالرعد من أسفل أرضية النفق، وسرى لوقت طويل في شتى الأرجاء مثل ارتداد الموجات الصوتية. أضحى الطريق الفاصل بين برنارد داند□يل وذاك الرهط من الكلاب المسعورة مسدودًا تمامًا. بإمكان برنارد الآن أن يقتاد الأمير كونراد بهدوءٍ إلى الأراضي الفرنسية. خرج بول عندئذ من الكوخ وصرخ بنبرة مبتهجة: «أعلن استسلامي! أعلن استسلامي!».

أحاط به عشرة رجال، ثم صاح ضابط الصف مستشيطًا غيظًا: «أطلقوا الرصاص عليه! على الفور.. على الفور.. أطلقوا الرصاص عليه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع

قانون الرابح

وبالرغم من قسوة معاملته، لم يُبدِ بول أدنى مقاومةٍ. استأنف حساباته العقلية، بينما كان مقيدًا وملتصقًا بالمنحدر الصخري: «من المؤكد منطقيًا وحسابيًا أن الانفجارين وقعا على مسافة ثلاثمئة أو أربعمئة مترٍ. لذا؛ يمكن الجزم بأن برنارد، والأمير كونراد، كانا قد اجتازا منطقة الانفجار، وأن الجنود المكلفين بمطاردتهم لم يكونوا قد بلغوا هذه المنطقة. لذلك، يمكن القول إن الأمور سارت على خير ما يرام».

تهيأ بول، عن طيب خاطر، وبنظرات ملؤها الرضا الممتزج بالسخرية، لبدء تنفيذ حكم إعدامه رميًا بالرصاص. اصطف الجنود الاثنا عشر المكلفون بحراسته أسفل أضواء الكشافِ الكهربائي المتوهجة، ينتظرون إصدار الأمر. زحف ضابط الصف، الذي أُصيب في بدء القتال المحتدم، حتى وصل إلى بول صارخًا في وجهه: «ستعدم رميًا بالرصاص! ستعدم رميًا بالرصاص! أيها الفرنسي القذر.

أجابه بول ضاحكًا: «لا، وألف لا، لا تتعجل الأمور قبل أوانها».

كرر الضابط جملته: «ستعدم رميًا بالرصاص».

- حسنًا! إذن ما الذي تنتظره أيها الضابط؟

كان الضابط قد أصدر أمرًا بإجراء مسحٍ شاملٍ وعاجلٍ أمام مدخل النفق. عاد الجنود الذين ذهبوا لمطاردة برنارد مهرولين، حيث اختنق نصفهم بالغاز الناجم عن الانفجار. أما بالنسبة إلى الحارس الذي أصابه برنارد، فقد سالت دماؤه بغزارةٍ، حتى أنه أقلع عن فكرة مطاردة برنارد، واستخلاص أية معلومةٍ جديدةٍ.

في تلك اللحظة، تواردت بعض الأنباء من قبل الثكنات العسكرية التي نما إلى علمها خبر اختفاء الأمير كونراد، وإصدار أوامر حازمة إلى الضباط بمضاعفة جهود الحراسة وتفحص مواقعهم، ولا سيما مخارج ومداخل النفق. ربما سيؤدي هذا الحادث إلى وقف تنفيذ إعدام بول، ولكن أكثر ما أثار ذهوله وأصابه بالصدمة هو عدم تشكك الأعداء في أمر اختطاف الأمير عبر النفق. فقد الجندي المكلف بحراسة النفق وعيه ولم يقوَ على الكلام. لم يدرك بقية الجنود أن الرجلين الفارين اللذين لاحا من بعيد يجر أحدهما الآخر. باختصار، أيقنوا أن الأمير قد اغتيل، ولا بد أن مهاجميه ألقوا بجثمانه في إحدى زوايا المحاجر، ثم لاذوا بالفرار، حيث تمكن اثنان من الهروب، وألقي القبض على الشخص الثالث.

اقتيد بول إلى القصر، حيث احتُجز داخل غرفة تحت حراسة أربعة جنود أقوياء البنية، عقب تجريده من زيه العسكري الألماني، وتفتيش جيوبه بدقة متناهية. استغرق في سبات عميق، وتنعم بالراحة والسكينة اللتين كان في أمسّ الحاجة إليهما، ذاك لأن كارل قد وافته المنية، والكونتيسة هيرمين غادرت ألمانيا، وإليزابيث الآن في مأمن. نحو الساعة العاشرة صباحًا، حضر أحد الجنرالات

محاولًا استجوابه، بيد أنه لم يحصل على إجابات تروي غليله، فتحرك غضبه قليلًا، ولكن بتحفظ واعٍ، استشعر بول من خلاله بعض الاحترام الذي يبدونه تجاه المجرمين شديدي الخطورة.

قال بول لنفسه: «كل شيءٍ يبدو على ما يرام، تُعد هذه الزيارة خطوةً لتمهيد الطريق أمام إرسال مفوض رسمي أكثر جدية وحزمًا، سفير مفوض مطلق الصلاحيات». فهم بول من كلمات الجنرال أن البحث عن جثة الأمير لا يزال مستمرًا. يُكثّف البحث أيضًا خارج نطاق النفق، ذاك لأن العثور على السائق الذي احتجزه برنارد داخل غرفة بجوار المرأب، واعترافاته الجديدة، بالإضافة إلى مغادرة سيارة كارل، وعودتها أمام حراسة القصر، أوسعوا نطاق دائرة التحقيقات.

في الظهيرة، قدّمت وجبة متكاملة وشهية إلى بول. تزايد التقدير والاحترام، وقدمت إليه الجعة والقهوة.

فكر قائلًا: «ربما سأُعدم رميًا بالرصاص، ولكن وفقًا للقواعد المتبعة، لن يحدث ذلك قبل إزاحة الستار عن هوية الشخص الغامض الذي سينالون شرف إنهاء حياته، ومعرفة دوافع خوضه هذه المغامرة، والنتائج المرجوة من مجازفته. في الواقع، أنا الشخص الوحيد الذي يمكنه الإدلاء بهذه المعلومات. إذن...

استشعر بول قوة موقفه، وقال لنفسه: «على الأقل، سيضطرب فكر مستشار الإمبراطور وسيهرول لاهثًا للقائي.. إلا إذا..».

ونظرًا للظروف المأساوية التي اعتصرت وجدانه، لم تَدُرْ في خلده وساطةٌ أكثر نفوذًا من وساطة مستشار الإمبراطور. عندما تناهى إلى مسامعه صوت توقف سيارة أسفل نوافذ القصر، لاحظ انزعاج الشخصين الملونين اللذين اقتاداه إلى الغرفة وظلا في حراسته، تيقن أن حساباته العقلية السريعة أصابت الهدف المنشود.

أُعدّ كل شيءٍ، واتخذ الشخصان الملونان والجنود الأربعة الأقوياء مفتولو العضلات وضعية التحية العسكرية، قبل ظهور الشخصية المجهولة المثيرة للفزع، ليبدوا كتماثيل عرض أزياء شبه جامدة.

فُتح باب الغرفة.

ولج الشخص الغامض باب الغرفة، كهبوب ريحٍ عاصفةٍ ممتزجة بقعقعة سيفه، ثم أعطى فور وصوله انطباعًا بتعجل محموم، ومضطرب، ورغبة وشيكة في المغادرة. لم يكن لديه سوى القليل من الوقت لحسم مهمته التي لا تتطلب سوى بضع دقائق.

أصدر إيماءةً مباغتةً: غادر جميع أتباعه الغرفة في لمح البصر.

وقف الإمبراطور، والجندي الفرنسي في مواجهة بعضيهما البعض. وعلى الفور، شرع الإمبراطور في الحديث بنبرة غضب هوجاء:

- من أنت؟ وماذا أتيت لتفعل؟ أين شركاؤك؟ وبناءً على أوامر من ارتكبت هذه الأفعال؟

بدا من الصعب جدًا على بول أن يتعرف على ملامح وجهه التي كانت تظهرها صوره الفوتوغرافية، وصوره في الصحف، فقد شاخت وذبلت ملامحه، وحددت التجاعيد وجهه الملطخ بصبغةٍ صفراءَ.

أخذ بول يرتعش من هول حالة الغضب والكراهية التي انتابته، والتي لم تكن نابعة فقط من ذكرى معاناته الأليمة، بل أثارها احتقاره لأعتى مجرم في تاريخ البشرية. وعلى الرغم من رغبته المطلقة في عدم الخروج عن قواعد الاحترام الظاهري، أجابه بول بتعالٍ: «أطلق سراحي!»

ارتجف الإمبراطور، هذه هي المرة الأولى، دون أدنى شكٍ، التي يتحدث فيها إليه شخص بمثل هذه النبرة الوقحة، فصاح بأعلى صوته:

- يبدو أنك نسيت أن الأمر لا يتطلب سوى كلمةٍ واحدةٍ حتى يتم إطلاق النار عليك ككلبٍ حقيرٍ! وأنت تجرؤ! وتضع شروطًا أيضًا!

التزم بول الصمت المطلق. تحرك الإمبراطور ذهابًا وإيابًا واضعًا يده على مقبض سيفه. توقف مرتين متطلعًا إلى وجه بول الذي لم يحرك جفنًا، ثم ابتعد، تجتاحه ثورةٌ عارمةٌ من الغضبِ.

ضغط فجأةً على زر جرسٍ كهربائي. أصدر أمرًا إلى الذين هرعوا استجابةً لاستدعائه قائلًا: «أطلقوا سراحه!».

نزعوا عن بول القيود التي تكبل يديه ورجليه، فانتصب على قدميه، وصحح وضعه كجنديٍّ يقف أمام شخص أعلى مقامًا.

فَرِغَتْ الغرفة مرةً أخرى من الجنود. حينئذٍ، اقترب الإمبراطور تاركًا الطاولة تنتَصب حائلًا بينه وبين بول، ومتسائلًا بنبرةٍ لم تَزَلْ تكسوها الفظاظة والخشونة: «ماذا عن الأمير كونراد؟»

أجابه بول: «الأمير كونراد لم يلقَ حتفه يا سيدي، هو بخير وفي أفضل حال».

اعتلت وجه القيصر ملامح الراحة والهدوء متعجبًا: «آه! ماذا تقول؟»

ثم استأنف حديثه مرةً أخرى، متجنبًا الخوض في لُب الموضوع.

- هذا لن يغير شيئًا بشأن الاتهامات التي تلصق بك: اعتداء.. تجسس.. ناهيك عن قتل أحد أفضل خدامي الأمناء..

- الجاسوس كارل، أليس كذلك يا سيدي؟ قتلته دفاعًا عن النفس.

- لكنك أنهيت حياته على أية حال، أليس كذلك؟ لذا، فأنت مدانٌ بجريمة قتل، وبجرائم أخرى عقوبتها إعدامك رميًا بالرصاص.

- لا يا سيدي، فحياة الأمير كونراد، نجل فخامتكم، مرهونةٌ ببقائي على قيد الحياة.

رفع الإمبراطور كتفيه استخفافًا: «إذا كان الأمير كونراد على قيد الحياة، فسوف نجده حتمًا».

- لا، يا سيدي، لن تتمكن من إيجاده.

أكد القيصر كلامه، موجهًا إليه لكمة بقبضة يده: «سيطال بحثي الدؤوب كل الأماكن المنزوية، والمتوارية عن الأنظار، في أرجاء ألمانيا شتى».

- الأمير كونراد ليس في ألمانيا يا سيدي.

- ماذا تقول؟

- أقول لك إن الأمير كونراد ليس هنا في ألمانيا يا سيدي.

- إذن، أين هو؟

- في فرنسا

- في فرنسا!

- نعم سيدي في فرنسا، محتجزٌ في قصر أورنكان، تحت حراسة مجموعة من أصدقائي الصدوقين. إذا لم ألحق بهم في الساعة السادسة من مساء الغد، سيسلمون الأمير كونراد إلى السلطة العسكرية الفرنسية.

بدا الإمبراطور وكأن أنفاسه قد اختنقت، حتى أن ثورة غضبه هدأت، وتلاشت عنجهيته على الفور. كشفت نظراته القلقة الحائرة وكتفاه المنحنيتان عن كل أشكال الإذلال والسخرية التي ستنصب عليه، وستلحق بأسرته الحاكمة وإمبراطوريته الخالدة. إذا كان ابنه سجينًا حقًا، ستدوي الضحكات الساخرة في أرجاء المسكونة شتى عقب سماع هذا الخبر.

تنسم بول بشائر النصر. لقد كبل بول هذا الرجل بالقيود، وأحكم قبضته عليه بقوة متناهية، فبدا القيصر مثل شخص خانع يئن أسفل ركبته متوسلًا إليه وملتمسًا العفو والمغفرة. انقلب ميزان القوى لصالح بول حتى أن نظرات القيصر المصوبة ناحية بول أعطته انطباعًا بأنه قد ظفر بنصرٍ مبين.

تراءت أمام عيني القيصر سلسلة المشاهد الدرامية التي تعاقبت واحدةً تلو الأخرى في هذه الليلة المشؤومة، مرورًا باجتياز النفق واختطاف الأمير، حتى انفجار الألغام التي سهلت هروب المهاجمين، وقد أربكته جرأة هذه المغامرة المجنونة المتهورة وأثارت انزعاجه، فهمس قائلًا: «من أنت؟»

وضع بول إحدى يديه المرتجفتين على الطاولة الفاصلة بينهما، وقال بنبرة خفيضة:

- منذ ستة عشر عامًا يا سيدي، في نهاية فترة ما بعد الظهيرة، في شهر سبتمبر..

أجابه الإمبراطور، مدهوشًا من هذه المقدمة التمهيدية: «حسنًا! ماذا تقصد؟

- لقد سألتني يا سيدي، ويجب أن أجيبك.

ثم أردف بول بنفس نبرة صوته الخفيضة:

- منذ ستة عشر عامًا يا سيدي، في نهاية فترة ما بعد الظهيرة، في سبتمبر، أجريت زيارة بتوجيه من إحدى الشخصيات الهامة.. شخصية كُلفت بقيادة منظومة التجسس في بلادكم لمتابعة أعمال النفق الواصل بين إبريكورت وكور□يني. في اللحظة التي خرجت فيها من كنيسة صغيرة تقع في غابات أورنكان، التقيت بشخصين فرنسيين، أب وابنه.. هل تذكر ذلك يا سيدي؟ كان المطر وقتها يهطل بغزارة.. تسببت هذه المقابلة في إرباك حساباتك وتعكُّر صفو مزاجك، فلذت بالفرار. عادت السيدة التي كانت برفقتك، عقب مرور عشر دقائق، وأرادت أن تصطحب أحد هذين الفرنسيين، الأب دون أدنى شك، إلى الأراضي الألمانية، تحت ذريعة إجراء مقابلة معك. رفض الأب. طعنته هذه السيدة طعنة قاتلة أودت بحياته أمام عيني ابنه. يُدعى هذا الشخص ديلروز، لقد كان والدي.

استمع القيصر بذهول شديد إلى ما قاله بول الذي لاحظ أن لون وجه القيصر يشحب رويدًا رويدًا وتعلوهُ الصفرةُ. ومع ذلك، بدا الإمبراطور متماسكًا كلما اخترقته سهام نظرات بول القاتلة. فبالنسبة إليه، تُعد جريمة مقتل المدعو ديلروز واحدةً من تلك الحوادث العابرة التي لا يعيرها أدنى اهتمام. هل ما زال يذكرها بالفعل؟

رفض الإمبراطور أن يقدم أي تبريرات بشأن جريمة لم يُصدَر أمرٌ بارتكابها، بيد أن تساهله مع الجاني جعله شريكًا فيها، لذا فقد اكتفى، بعد أن غرق في صمت مريع، بأن تنساب من بين شفتيه هذه الكلمات:

- الكونتيسة هيرمين مسؤولة عن أفعالها.

- مسؤولة فقط عن أفعالها تجاه نفسها، ما دام القضاء في بلدها لم يثبت إدانتها، ولم يرد معاقبتها على جريمتها النكراء.

هز الإمبراطور كتفيه كرجل يمقت الخوض في الحديث عن المسائل الأخلاقية الألمانية والسياسة العليا للبلاد. نظر إلى ساعته، دق الجرس، ثم أخبر أحد أتباعه أنه سيغادر القصر في غضون بضع دقائق، استدار ملتفتًا إلى بول وقال:

- إذن، أقدمت على اختطاف الأمير كونراد انتقامًا لموت والدك؟

- لا يا سيدي، هذه مسألة أخرى يجب تسويتها مع الكونتيسة هيرمين، أما فيما يتعلق بالأمير كونراد، لدي أمور أخرى يجب حسمها. في أثناء إقامته في قصر أورنكان، لم يكف عن مضايقة وملاحقة سيدة شابة كانت تقطن هناك. بعد أن صدته هذه المرأة بجفاء، وعبرت له عن نفورها واشمئزازها منه، اصطحبها إلى هنا كأسيرة. هذه السيدة تحمل اسمي، إنها زوجتي، وأتيت لأحررها من أسرها.

أبدت ردود أفعال الإمبراطور أنه لا يدري شيئًا عن هذه القصة، وأن مغامرات نجله الطائشة تزعجه، وتؤرقه بشكل شخصي.

- هل أنت واثق؟ هل السيدة محتجزة هنا في القصر؟

- كانت هنا ليلة البارحة يا سيدي. بيد أن الكونتيسة هيرمين، بعد أن عقدت العزم على إنهاء حياة هذه السيدة، عهدت بها إلى الجاسوس كارل الذي كُلف بمهمة إخفاء

زوجتي التعيسة عن أعين الأمير كونراد وقتلها بالسم.

صاح الإمبراطور: «هذه أكذوبةٌ! مجردُ أكذوبةٍ مقيتةٍ».

- ها هي قارورة السم التي أعطتها الكونتيسة هيرمين للجاسوس كارل.

سأله القيصر بصوت يشع غضبًا: «وماذا بعد؟ وماذا بعد؟»

- وماذا بعد يا سيدي؟ قُتل الجاسوس كارل، وظل مكان زوجتي مجهولًا بالنسبة إليّ، فعدت مهرولًا إلى هنا. كان الأمير كونراد يغط في نوم عميقٍ، فأنزلته من غرفته، بمساعدة أحد أصدقائي، وأرسلته عبر النفق إلى فرنسا.ً

- هل فعلت ذلك؟

- نعم يا سيدي

- ومما لا شك فيه أنك تطالب بحرية زوجتك في مقابل إطلاق أسر الأمير كونراد، أليس كذلك؟

- بالطبع يا سيدي.

صاح الإمبراطور مرةً أخرى: «ولكنني أجهل مكانها!»

- توجد في أحد قصور الكونتيسة هيرمين. ألتمس منك أن تمعن التفكير للحظة يا سيدي.. قصر يمكن الوصول إليه بالسيارة في غضون سويعات قليلة، لا بد أنه يقع على مسافة مئة وخمسين، أو مئتي كيلومترٍ على الأكثر.

صمت الإمبراطور قليلًا، ثم وجه ضربة إلى الطاولة برمانة سيفه، ثم ضربات أخرى متتالية حانقة سريعة.

أجابه القيصر: «هل هذا كل ما تطلبه؟»

- لا يا سيدي.

- ماذا تريد أيضًا؟

- أطالب بتحرير عشرين أسيرًا فرنسيًّا، سلّمني الجنرال القائد الأعلى للقوات المسلحة الفرنسية قائمة بأسمائهم.

في هذه المرة، انتصب الإمبراطور قافزًا، ثم صاح:

- هل أصابك مس من الجنون! عشرون أسيرًا، ولا بد أنهم جميعًا ضباط؟ قادة وجنرالات!

- تضم القائمة أيضًا جنودًا بسطاء يا سيدي.

صُمت أذنا الإمبراطور عن سماع ما قاله بول. توهج غضبه معبرًا عنه ببعض الإيماءات المبهمة، والعبارات غير المتسقة. حدق في وجه بول ليصعقه بنظراته. اغتمت نفسه ولم ترقه فكرة الخضوع لقانون هذا الملازم الفرنسي الشاب، الذي لا

يزال أسيرًا، وسجينًا داخل قصره، ومع ذلك يتحدث بنبرة متعجرفة وكأنه سيد حر طليق. وبدلًا من القصاص من هذا العدو الوقح، كان يتوجب عليه أن يتجاذب معه أطراف الحديث ويحني هامته أمام مطالبه وانتهاكاته المهينة! ولكن ما العمل؟ لا يوجد مخرج آخر. يقف القيصر في مواجهة خصم عنيد لن يثنيه التعذيب عما يدور في خلده.

استأنف بول حديثه: «حرية زوجتي في مقابل حرية الأمير كونراد، أرى أنها صفقة متكافئة للغاية. ما الذي يعود بالنفع عليك يا سيدي سواء أكانت زوجتي أسيرة أو حرة طليقة؟ من المنصف القول بأن إطلاق سراح الأمير كونراد يعود بالنفع الأكبر عليكم جراء هذه المبادلة.. وعشرون أسيرًا فرنسيًّا لا يشكلون عددًا كبيرًا.. علاوة على ذلك، ليس من الضروري أن تتم المبادلة علنًا. سيعود الأسرى إلى فرنسا واحدًا تلو الآخر، إذا كنت تبتغي ذلك، وكأن المقايضة تتم بأسرى ألمانيين من نفس الرتبة..

يا للسخرية الموجعة الكامنة وراء كلماتٍ استرضائيةٍ تهدف إلى تخفيف مرارة الهزيمة، وتغدو -تحت ستار التنازلات- ضربة قاضية لكبرياء وتشامخ الإمبراطورية! تذوق بول باستمتاع نكهة هذه الدقائق الثمينة المنصرمة. تملك بول انطباعًا بأن هذا الرجل يجب أن يتكبد أشد معاناة لرؤية إجهاض مخططه الضخم، ولشعوره بالانسحاق والمهانة تحت وطأة القدر المحتوم.

فكر بول: «حسنًا، سأنتقم أشد الانتقام، وهذه ليست سوى الخطوة الأولى في مسيرة الأخذ بثأري».

بدا استسلام وخنوع الإمبراطور قابا قوسين أو أدنى من بول. قال القيصر مترويًا: «سأتفحص هذه الصفقة.. وسأصدر أوامري قريبًا».

اعترضه بول: «أعتقد أنه من الخطر أن تنتظر كثيرًا يا سيدي. ربما ينتشر خبر أسر الأمير كونراد في أرجاء فرنسا شتى.

أجابه الإمبراطور: «أعد الأمير كونراد، وسنعيد إليك زوجتك في نفس اليوم».

- سيدي، لا أعتقد أن الأمور يجب أن تُدار بمثل هذه الطريقة. وُضعت زوجتي في موقف حرج للغاية، وأضحت حياتها محفوفة بالمخاطر. أطالب باصطحابي إليها على الفور. الليلة، يجب أن يكون كلانا في فرنسا، ولا بد أن تطأ أقدامنا الأراضي الفرنسية هذه الليلة.

كرر بول هذه الكلمات بلهجة أشد حزمًا، ثم أردف:

- أما فيما يتعلق بالأسرى الفرنسيين يا سيدي، سيُسلّمون وفقًا للشروط التي ستحدّدونها. ها هي القائمة التي تضم أسماءهم ومكان اعتقالهم.

انتزع الإمبراطور الورقة من يدي بول، واختلج وجهه بحمرته الغاضبة. أثار كل اسم من هؤلاء الأسماء -إذا جاز قول ذلك- ثورة غضب مكبوت هزت وجدان القيصر. كور الورقة في راحة يده كما لو كان عازمًا على نقض الاتفاق.

ولكن فجأة، عندما خارت جميع قواه، وفترت مقاومته المستميتة، وبحركة مباغتة، كما لو كان مدفوعًا بتعجل محموم ليضع حدًا لهذه الأحداث المثيرة للحنق، ضغط ثلاث مرات على زر الجرس الكهربائي. اندفع على الفور ضابط مرافق، ثم وقف أمامه.

أخذ الإمبراطور يفكر بتروٍ لبضع لحظات أخرى، ثم أصدر إلى الضابط هذه الأوامر:

- أوصل الملازم ديلروز بالسيارة إلى قصر «هيلدنشايم»، ثم ستعيده برفقة زوجته إلى القاعدة العسكرية المرتكزة على الحدود في إبريكورت. بعد مرور ثمانية أيام ستقابله في نفس المكان، حيث سيكون برفقته الأمير كونراد، وسيكون بصحبتك عشرون سجينًا فرنسيًّا سُجلت أسماؤهم في هذه القائمة. ستتم عملية المقايضة في سرية تامة وفقًا للاتفاق الذي ستبرمه مع الملازم ديلروز. ستطلعني على آخر المستجدات عبر التقارير الشخصية التي ستعدّها.

تفوه الإمبراطور بهذه الكلمات بنبرةٍ متقطعةٍ، وسلطويةٍ، وكأنها سلسلة من الإجراءات التي كان يتوجب على الإمبراطور أن يتخذها من تلقاء نفسه، دون أي ضغطٍ خارجيٍّ، عن طيب خاطر وبكامل إرادته الإمبراطورية.

خرج القيصر على الفور بمجرد حسم هذه القضية، مرفوع الرأس، ظافر السيف، ينبعث بقوة صوت مهمازي حذائه.

فكر بول، الذي لم يكن بمقدوره أن يكتم ضحكته أمام الضابط المرافق قائلًا: «انتصار جديد يضاف إلى رصيده». تناهى إلى مسامع بول صوت انطلاق سيارة الإمبراطور. لم تستغرق المقابلة سوى عشر دقائق. غادر بول القصر بعد عدة دقائق، منطلقًا في طريقه نحو قصر «هيلدنشايم».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن

الحصن 132

يا لها من رحلة مبهجة للقلب! وأي فرحة غامرة تلك التي سيختتم بها ديلروز مسيرته! سيبلغ أخيرًا هدفه المنشود، لم تكن المهمة هذه المرة محفوفةً بالمخاطر ولن تغدو خاتمتها مخيبةً للآمال؛ ها هو يقترب رويدًا رويدًا من نهايةٍ محسومةٍ ومنطقيةٍ تكلل وافر جهوده. لن تمسه ظلال الخوف والقلق. بالطبع، هناك انتصارات -ظفر للتو بأحدها، وانتزعه من بين مخالب الإمبراطور- تتذلل وراءها جميع العقبات. تمكث إليزابيث الآن داخل قصر «هيلدنشايم»، وها هو يتجه مبتهجًا نحو القصر دون أن يعوق شيء اندفاعه.

بدا بول، في وضح النهار، وكأنه يستكشف المناظر الطبيعية التي تورات ليلة أمس خلف الظلام الدامس، هذه القرية، وهذه الضاحية، وهذا النهر المتاخم لهما. تأمل تعاقب الغابات الصغيرة واحدة تلو الأخرى، ثم أبصر الخندق الذي دار بجواره صراعه الضاري مع الجاسوس كارل.

استغرقت الرحلة أكثر من ساعة بقليل للوصول إلى تلة تشرف عليها قلعة هيلدنشايم الإقطاعية التي سبقتها خنادق متسعة يتجاوزها جسر متحرك. اقترب حارس القصر مرتابًا من السيارة، ولكن تفوه الضابط ببضع كلمات جعله يفتح أبواب القصر على مصراعيها.

ركض خادمان من داخل القصر، وردا على سؤال وجهه إليهما بول. أوضحا له أن السيدة الفرنسية تتمشى بجوار بركة المياه، ثم أرشداه إلى الطريق الذي يجب أن يسلكه ليتمكن من الوصول إليها. قال بول للضابط: «سأذهب بمفردي، وسوف نغادر على الفور».

كانت الأمطار تهطل بغزارة. تسربت أشعة شمس الشتاء الباهتة من خلف السحب الثقيلة، وتناثرت فوق المروج وسلاسل الجبال. اجتاز بول مجموعة من الصخور الاصطناعية انسابت من بينها خيوط رفيعة لشلال مائي تحده أشجار التنوب السوداء، ويشكل بركة واسعة تتزين بالبجع والبط البري. في نهاية البركة، تنتصب شرفة تزينها التماثيل والمقاعد الحجرية.

إليزابيث تجلس هناك.

غُمر بول بفيض من المشاعر المتدفقة التي تجل عن الوصف. لقد فقد إليزابيث عشية اندلاع الحرب، ومنذ تلك اللحظة، تكبدت الكثير من المشاق، وتحملت أعتى الصعاب، وعانت أشد معاناةٍ، لسببٍ واحدٍ فقط، ألا وهو أن تبدو كامرأةٍ بلا لوم في عيني زوجها، ابنة لأم لا تشوبها شائبةٌ.

وها هو الآن يلتقي بها مجددًا، في وقت لم تسقط فيه الاتهامات الموجهة ضد والدتها الكونتيسة هيرمين، وبعد أن أثارت سخطه واستياءه ليلة البارحة عندما وجدها في

حفلة عشاء الأمير كونراد. ولكن لتذهب كل هذه الأحداث إلى الجحيم! أفعال الأمير كونراد الشائنة، وجرائم الكونتيسة هيرمين، وصلة القرابة التي تجمع بين السيدتين، وكل الصراعات التي خاضها، وآلامه، وهمه، وغمه، وثورات غضبه العارمة، وضغائنه، وأحقاده.. تلاشت من ذاكرته تفاصيل أخرى كثيرة تافهة بعد أن أبصر جليًا حبيبته التعيسة على بعد عشرين خطوة منه. لم يجل بخاطره سوى الدموع التي سكبتها من مقلتيها، ولم يلحظ سوى جسدها النحيل المرتعش إثر هبوب نسائم الشتاء الباردة.

اقترب أكثر منها، انبعث صوت صرير عندما انسحقت بعض حصى الممر أسفل قدميه، فاستدارت السيدة الشابة ملتفتة نحوه.

تسمرت قدماها في الأرض، ولم تصدر عنها أي إيماءةٍ. أدرك بول، من خلال ما عبرت عنه نظراتها، أنها لم تبصره حتى هذه اللحظة. في الواقع، بدا لها بول مثل شبح يبرز بين ضباب حُلمها، وهذا الشبح يتموج أمام عينيها المهلوستين، حتى أن ابتسامة خفيفة ارتسمت على ثغرها. شبك بول بحزنٍ مفرطٍ يديه ببعضهما، وهو يوشك أن يجثو راكعًا أمامها على ركبتيه.

تلعثم قائلًا: «إليزابيث.. إليزابيث..».

عندئذٍ، انتصبت إليزابيث على قدميها، واضعة يدها على قلبها، وصار وجهها أكثر شحوبًا مما كانت عليه ليلة البارحة عندما رآها بول جالسة بصحبة الأمير كونراد والكونتيسة هيرمين. اتضحت الصورة المهتزة وسط الضباب الكثيف، وتبلورت الحقيقة الجلية أمام عينيها وفي ذهنها. في تلك اللحظة، أبصرت بول جيدًا.

اندفع بول نحوها، حيث بدا له أنها ستتهاوى منطرحةً على الأرض. بيد أنها تمالكت نفسها، وبذلت قصارى جهدها كي تظل واقفة، ثم مدت يديها حتى لا يتقدم بول نحوها، حدقت في وجهه بعمق، وكأنها تود أن تسبر أغوار نفسه، وتدرك ما يدور في خلده.

لم يتحرك بول خطوة من مكانه، وأخذ قلبه يخفق حبًا، ويبتهج طربًا، فتمتمت إليزابيث قائلة:

- آه! أرى أنك لا تزال تحبني.. لم تتوقف عن حبي.. أنا الآن واثقة من ذلك.

ومع ذلك، أبقت إليزابيث ذراعيها ممدودتين أمامها كحائل يعوق بينهما، ولم تسعَ للتقدم خطوة واحدة. دبت الحياة مرةً أخرى في قلبيهما، ولاحت البهجة في نظرات أعينهما، وبينما تمتزج بجنون سهام نظراتهما ببعضها البعض، أردفت إليزابيث:

- أخبروني بأنه قد تم أسرك. هل هذا صحيح؟ آه! توسلت إليهم مرارًا وتكرارًا أن يأخذوني لأبقى بجوارك! أذللت نفسي كثيرًا! حتى أنني اضطررت إلى الجلوس على طاولتهم، والضحك على نكاتهم السخيفة، وارتداء حُليهم، والقلائد المرصعة باللؤلؤ التي فُرضت عليّ. فعلت كل هذا كي أراك! قطعوا عهودًا كثيرة معي بأن يستجيبوا لرغبتي.. ثم، في نهاية المطاف، اصطحبت ليلة أمس إلى هذا القصر، فظننت أنهم حنثوا بعهدهم، وأنهم يتلاعبون بي مرة أخرى.. أو أنني سقطت في فخٍ

جديدٍ.. أو أنهم قرروا أن ينهوا حياتي.. ثم ها أنت ذا! ها أنت ذا.. أنت هنا يا عزيزيَ بول!

أمسكت وجهه بين يديها، ثم تملكها اليأس بغتةً: «لكنك لن تذهب بعيدًا مرةً أخرى؟ ستبقى معي فقط إلى الغد؟ ستظل برفقتي، أليس كذلك؟ آه! خارت جميع قواي، ولم أعد أحتمل المزيد.. لا تتركني بعد الآن..

أصابتها حالة من الذهول لرؤيته مبتسمًا.

- يا إلهي، ما الأمر إذنْ؟ تبدو وكأنك مبتهجٌ للغاية!

انطلقت ضحكته هذه المرة، اجتذبها نحوه بقوةٍ شديدةٍ لا تعيقها أية مقاومةٍ، مقبلًا شعرها، وجبينها، ووجنتيها، وشفتيها، وقائلًا لها:

- أبتهج لأنه لا يوجد شيءٌ آخر عليَّ أن أفعله سوى أن أضحك، وألا أكف عن تقبيلك. أضحك هازئًا من نفسي لأنني اختلقت الكثير من الأفكار والقصص السخيفة.. لكِ أن تتخيلي أنه عندما لمحتك من بعيد، ليلة البارحة، في حفل عشاء الأمير كونراد.. وجهت إليك كيلًا من الاتهامات التي لا أدري عنها شيئًا!

لم تدرك إليزابيث الأسباب الكامنة وراء بهجته العارمة، فكررت ما قالته: «كم تبدو سعيدًا! كيف ترتسم البهجة على وجهك بهذا الشكل؟

قال بول، وهو لا يزال يضحك: «لا يوجد سبب يدفعني الآن لأن أكتم ضحكتي. انظري، دعينا نفكر قليلًا.. لقد التقينا من جديد، عقب المصائب المتتالية التي حلت بنا. نحن الاثنان معًا، لا شيء سيفصلنا بعد الآن، وأنت تودين ألا أكون مبتهجًا للغاية؟

قالت إليزابيث، وقد تملكها القلق: «إذن، لا شيء حقًا بإمكانه أن يفصل بيننا؟»

- بكل تأكيدٍ. هل أتلفظ بأشياء مثيرة للغرابة؟

- هل ستظل برفقتي؟ وهل سنعيش معًا هنا؟

- آه! لا، سوف نغادر.

- إلى أين؟

- إلى أين؟ إلى فرنسا دون أدنى شك. هناك فقط سنشعر أننا في مأمنٍ.

ولأنها كانت تحدق في وجهه بدهشةٍ بالغةٍ، أخبرها قائلًا:

- هيا، دعينا نسرع. السيارة تنتظرنا، وقد وعدت برنارد.. نعم، أخيكِ برنارد، وعدته بأن ألحق به هذه الليلة.. هل أنتِ مستعدة؟ لماذا ترتسم علامات الحيرة الشديدة على وجهك الملائكي بديع الجمال؟ هل تحتاجين إلى إيضاحات وتفسيرات أكثر؟ ولكن يا معشوقتي الغالية، لدينا ساعات وساعات ليشرح كلانا للآخر كل ما بدا مبهمًا. لقد أشحتِ بوجهك بعيدًا عن الأمير الإمبراطوري.. ثم صدر الأمر

بإعدامك رميًا بالرصاص.. ثم.. ثم بعد ذلك.. وفي النهاية، هل يجب أن أتوسل إليكِ كيما تتبعينني؟

أدركت إليزابيث للتو أن بول يتحدث بجديةٍ، وقالت له، دون أن ترفع عينيها عنه:

- هل حقًا أصبحنا حرين طليقين؟

- نلنا كامل حريتنا.

- هل سنعود إلى فرنسا؟

- في التو واللحظة.

- ولا يوجد ما نخشاه؟

- لا شيء البتة.

تسربت الطمأنينة بغتةً إلى قلب إليزابيث، وراحت تضحك بدورها، ثم غرقت في نوبة طفولية من البهجة المشوشة والمبهمة حتى أنها كادت تغني وتتراقص فرحًا. ومع ذلك، انسابت الدموع بغزارة من مقلتيها وتمتمت قائلة:

- أضحيت حرةً طليقةً! انتهى إذلالي وفُك كربي! آه! هل تعلم أنه صدر أمر إعدامي بالرصاص؟ حسنًا، سأخبرك بتفاصيل ما حدث وبأشياء أخرى عديدة.. وأنت أيضًا، ستحكي لي كل شيءٍ. ولكن كيف نجحت في العثور عليَّ؟ إذن، فهل أنت تفوقهم سطوةً وقوةً؟ أكثر قوة من الأمير كونراد ذميم الخلق أم أكثر سطوة من الإمبراطور المستبد؟ يا إلهي، كم يبدو هذا مضحكًا! يا إلهي، كم يبدو هذا مضحكًا!

توقفت عن الحديث فجأة، ثم اجتذبت بعنف ذراع زوجها قائلة له بغتة:

- هيا يا عزيزي، دعنا ننطلق من هنا. بقاؤنا للحظة واحدة في هذا المكان المقيت يُعد ضربًا من ضروب الجنون. هؤلاء الناس أياديهم طائلة، ونفوذهم متعاظم، يصولون ويجولون كما يحلو لهم. مجرمون مخادعون، وطغاة مستبدون. هيا بنا.. هيا بنا..

رحل الاثنان، لن يكدر أي حادثٍ صفوَ رحلتهما. وصلا، بحلول المساء، إلى خطوط الجبهة الفرنسية المواجهة لبلدة إبريكورت. أضاء الضابط المرافق، الذي يتمتع بكامل الصلاحيات، عاكسًا ضوئيًا، ملوحًا بعلم أبيض، ثم اقتاد إليزابيث وبول إلى ضابطٍ فرنسيٍّ كان قد توجه نحوهم. أجرى الضابط الفرنسي اتصالًا تليفونيًا مع خدمات مؤخرة الجيش، حيث أُرسلت إحدى السيارات.

في تمام الساعة التاسعة، خطت أقدام بول وإليزابيث بوابة أورنكان. ترك بول إليزابيث في السيارة، وذهب ليستعلم عن مكان برنارد، ثم التقاه قائلًا له: «أنصت لي جيدًا يا برنارد، ودعنا نتحدث بإيجازٍ. استعدت إليزابيث. نعم، إنها هنا تنتظر في السيارة. سنغادر معًا إلى كور□ينيٍ، وستأتي أنت أيضًا برفقتنا. بينما أذهب لإحضار حقيبتي وحقيبتك، أعط الأوامر اللازمة لإبقاء الأمير كونراد تحت المراقبة الدقيقة. إنه في مأمنٍ، أليس كذلك؟

- بالطبع.

- إذن، هيا، فلنسرع. يتعلق الأمر بملاحقة المرأة التي أبصرتها ليلة البارحة عندما توجهت إلى مدخل النفق. ما دامت هنا في فرنسا يتوجب علينا مطاردتها وإلقاء القبض عليها.

- ألا تعتقد يا بول أنه من الأفضل أن نعود نحن الاثنان إلى النفق لنقتفي أثرها ونبحث عن المكان الذي تنطلق منه إلى ضواحي كور□ يني.

- بات الوقت يداهمنا. نحن في مرحلة حاسمة من صراعنا ضد الأعداء، حيث يتوجب علينا أن نستبق الأحداث، ونختصر بعض الخطوات.

- ولكن يا بول، انتهى الصراع بمجرد تحرير إليزابيث من قبضة العدو، وعودتها سالمة إلى أرض الوطن.

- لن ينتهي الصراع ما دامت هذه المرأة على قيد الحياة.

- ولكن من هي هذه المرأة؟

لم ينبس بول ببنت شفة.

... في تمام الساعة العاشرة، ترجل الثلاثة عن السيارة أمام محطة كور□ يني. لم يكن هناك أي قطارات تتأهب للانطلاق. تغط جميع المخلوقات في سبات عميق. لم يتردد بول في التوجه إلى المركز العسكري، موقظًا ضابط الصف، ومستدعيًا مدير المحطة. نجح بول عقب إجراء تحقيق دقيق ومفصل في التأكد من أن المرأة قد حصلت في صباح يوم الاثنين على تذكرة سفر إلى بلدة «شاتو- تييري»، وتحمل تصريح مرور ساري المفعول باسم السيدة «أنتونا». لم تغادر أي امرأة أخرى من المحطة بمفردها سواها، مرتدية زي الصليب الأحمر. تبين من وصف طولها وملامح وجهها أنها الكونتيسة هيرمين.

قال بول، عندما خطت قدماه غرفة الفندق المجاور للمحطة، والذي سيقضي فيه ليلته مع إليزابيث، وبرنارد: «إنها بالطبع هي، إنها حقًا تلك السيدة المتوحشة، لن تتمكن من الذهاب إلى كور□ يني إلا عبر هذه البلدة التي ستنطلق منها في صباح غد الثلاثاء، في نفس الوقت الذي سنصل فيه إلى هناك. آمل ألا يكون لديها الوقت الكافي لتنفيذ مخططها الذي جاءت من أجله إلى فرنسا. على أيةِ حال، لا تزال أمامنا فرصة فريدة من نوعها. دعونا نغتنمها قبل فوات الأوان.

كرر برنارد سؤاله: «ولكن من هي هذه المرأة؟»

أجابه بول: «من تكون؟ ستخبرك إليزابيث بذلك. أمامنا ساعة لإزاحة الستار عن بعض النقاط الجوهرية، ثم سنخلد جميعًا إلى الراحة، وهذا ما نحن في أمس الحاجة إليه».

في اليوم التالي، بدأت رحلة الانطلاق.

تمتلك بول ثقة لا تتزعزع. وبالرغم من جهله التام بنوايا الكونتيسة هيرمين فإنه كان متيقنًا من سيره على الدرب الصحيح. في الواقع، تمكن بول وبرنارد، عدة مرات، من العثور على دلائل تؤكد أن ممرضة تنتمي إلى الصليب الأحمر سافرت بمفردها في الدرجة الأولى، ومرت أمس على نفس المحطات التي يمرون بها.

نزلا إلى محطة «شاتو- تييري» قرب نهاية فترة ما بعد الظهيرة. استعلم بول، واكتشف أن هناك سيارة تابعة للصليب الأحمر كانت تنتظر الممرضة أمام المحطة ليلة البارحة. تبين من الفحص الدقيق لأوراق عربة الإسعاف أنها إحدى السيارات التابعة لخدمة بلدة «سواسون»، ولكن لم يتمكنا من تحديد موقعها بدقة.

بدت هذه المعلومات كافية بالنسبة إلى بول الذي خمن أن «سواسون» هي خط المعركة القادمة. حينئذٍ قال لبرنارد: «دعنا ننطلق إلى هناك».

يمتلك بول، بموجب التصريح الموقع من قبل القائد الأعلى للقوات المسلحة، جميع الصلاحيات اللازمة للحصول على أي سيارة، واختراق منطقة القتال. وصلوا إلى بلدة سواسون وقت العشاء.

بدت الضواحي، التي عُرّضت للقصف والدمار مهجورة كصحراء جرداء، وخيم السكون على أرجاء البلدة شتى. لكنهما لاحظا أنه كلما اقتربا من منتصف البلدة ساد اضطراب عظيم داخل شوارعها. مرت السريات العسكرية في لمح البصر باتجاه الفندق الواقع في ساحة البلدة، حيث يقيم عدد من الضباط. تفاقمت الفوضى، وتزايدت تحركات المارة ذهابًا وإيابًا.

تبين لهما أنه، منذ عدة أيام، نجحت قوات الجيش الفرنسي في مهاجمة المنحدرات الواقعة أمام بلدة سواسون، على الجانب الآخر من إقليم «أيسن». اقتحمت كتائب القناصة، وكتائب الجنود المغاربة، قبل البارحة، الحصن «132»، وتمركزت القوات، ليلة البارحة، في المواقع التي احتُلّت، واستولت على خنادق منطقة «كروي».

بيد أنه، في أثناء ليلة البارحة، عندما شن العدو هجومًا مضادًا عنيفًا للغاية، وقع أمر في غاية الغرابة. فاضت مياه نهر «أيسن» عن شطّيه جراء هطول الأمطار الغزيرة، وجرفت جميع جسور بلدتي « □يلنو □»، و «سواسون».

بدا فيضان نهر أيسن طبيعيًا للغاية، ومهما بلغ اندفاع المياه المتدفقة بغزارة، من المنطقي أنه لن ينجم عنها تصدع الجسور، وانجرافها، بالتزامن مع الهجوم الألماني المباغت والمضاد. تكبدت القوات الفرنسية خسائر فادحة جراء تمركزها طوال النهار في الحصن، وعدم تمكن التعزيزات من شق طريقها إليها. في ذلك الوقت، تمكن جزء من مدفعية العدو من التمركز على الضفة اليمنى لنهر أيسن.

لم يتردد بول وبرنارد للحظة، وتيقنا أن الأيادي الخفية التي تحركها الكونتيسة هيرمين هي التي تعبث بوطنهما، وتتسبب في هذا الكم الهائل من التلف والدمار. لقد وقع حادثا انجراف الصخور والهجوم الألماني المكثف ليلة وصولها إلى سواسون. كيف للمرء ألا يشك أن هذين الحادثين كانا نتيجة خطةٍ شيطانيةٍ حاكتها الكونتيسة

وأقدمت على تنفيذها، في توقيت مثالي يتزامن مع هطول الأمطار بغزارة على نهر «أيسن». فضلًا عن ذلك، استحضر بول من ذاكرته الحوار الذي دار بينها وبين الجاسوس كارل أمام درج مدخل القصر، عندما قالت الكونتيسة: «سأغادر إلى فرنسا.. لقد رُتّب كل شيءٍ. يبدو أن الطقس مُواتٍ. إنها تمطر منذ بضعة أيام، وقد أخبرني رئيس أركان الجيش بأنه سيتصرف من جانبه. إذن، سأكون هناك ليلة الغد، وسأكتفي بتقديم القدر القليل من المساعدة».

- لقد اكتفت بالفعل بتقديم يد العون، وانهارت جميع السدود، التي ربما أصدر الجاسوس كارل أمرًا ببنائها، أو شيدها أولئك الذين كانوا يتقاضون منه أجورًا زهيدة.

تحدث برنارد قائلًا: «إنها هي دون شك، إذن، فلماذا تبدو قلقًا؟ على النقيض من ذلك، يجب أن تبتهج، صارت قاب قوسين أو أدنى منا، وستسقط بلا شك فريسة بين أنيابنا.

- ولكن هل ستطالها أيادينا في اللحظة المناسبة؟ وفقًا لحديثها مع كارل، صرحت بتهديدٍ آخر، يبدو -من وجهة نظري- أكثر خطورة وشراسة، وقد رددته آنفًا على مسامعك، لقد أخبرت كارل قائلة: «انقلب الحظ علينا. إذا كُللت خطتي بالنجاح، سأضع حدًا لهذه السلسلة من الابتلاءات المتلاحقة». وعندما سألها شريكها عما إذا كانت قد حصلت على موافقة الإمبراطوار، أجابته: «لا يهم. هذه هي إحدى الخطط التي لم أتحدث معه بشأنها». هل تعي ذلك يا برنارد؟ أضحى الأمر غير متعلق بالهجوم الألماني المضاد أو بتحطيم الجسور، لا، هناك مخطط لعين يتزامن مع هذه السلسلة من الأحداث المفزعة، وسيغدو بمثابة ضربة قاضية تثقل كاهلنا وتقض ظهورنا.

لم يكف بول، طيلة ليلة هذا اليوم، وطيلة نهار يوم الأربعاء الثالث عشر، عن إجراء تحقيقات مكثفة وبحث شامل في شوارع المدينة أو على ضفتي نهر «أيسن». كان على تواصل دائم مع السلطة العسكرية، وشارك العديد من الضباط والجنود في تقصيه الحقائق وبحثه الدؤوب. فتش الكثير من المنازل، واستجوب العديد من المواطنين. اقترح عليه برنارد أن يرافقه لمؤازرته في استكمال مهمته، بيد أن بول أعلن رفضه القاطع قائلًا له:

-لا، صحيح أن هذه المرأة لا تعرفك، لكن يجب أن تظل بجوار شقيقتك. ألتمس منك أن تبقى برفقتها، وتعتني بها جيدًا، وألا تأذن لها بالخروج، وألا تتركها تغيب عن عينيك لحظة واحدة، لأننا نواجه العدوَّ الأكثر دهاء وشراسة على الإطلاق.

قضى برنارد وشقيقته ساعات هذا النهار ملتصقين بزجاج نوافذ غرفتهما. عاد بول ليتناول وجبة الغداء، وهو على عجلة من أمره، متشبثًا بآخر بصيص أملٍ، ومتفوهًا بهذه الكلمات:

- لا بد أنها تمكث بالقرب منا. لا بد أنها خلعت زي الممرضة التنكري، ولبدت بقاعٍ إحدى الحفر، مثل عنكبوت يتوارى خلف شباكه. يمكنني رؤيتها الآن تمسك هاتفًا

في يدها، وتصدر كتلة من الأوامر لعصبة من السفاحين سافكي الدماء المختبئين مثلها تمامًا في الخنادق والمتوارين عن الأنظار. تحيك مؤامراتها، وتنصب فخاخها ظانة أنها في مأمن، في الوقت الذي تجهل فيه مقتل المجرم العاتي المتواطئ معها كارل، ولقائي الحاسم مع القيصر، وتحرير إليزابيث من قبضة الأمير الغاشم، ووجودنا هنا بالقرب منها. لقد نلت منها، تلك المخلوقة البغيضة. سأحبسها في قبضة يدي.

تواردت أنباء مفادها أن المعركة لا تسير على خير ما يرام. تواصل انسحاب القوات على الضفة اليسرى. في «كروي»، فترت حماسة الجنود المغاربة نظرًا للخسائر الفادحة، والأرض الموحلة التي تعيق تقدمهم. انجرف جسر آخر من القوارب، كان قد شيّد على عجالة.

عندما عاد بول مرة، في تمام الساعة السادسة مساءً، والدماء تقطر من قبضته، ارتجفت إليزابيث، وتملكتها حالة من الذعر الشديد.

قال لها بول ضاحكًا: «الأمر لا يستدعي القلق، لقد أُصبت بخدشٍ سطحي، ولا أعلم أين حدث ذلك».

- ولكن، لا، انظر إلى يدك، الدماء تسيل منها!

- لا، هذه ليست دمائي. لا تقلقي البتة. كل شيء على ما يرام.

سأله برنارد: «هل تعلم أن رئيس الأركان موجود هنا في بلدة سواسون منذ صباح اليوم؟

- نعم، خمنت ذلك.. هذا أمر رائع. أود أن أسلم له الجاسوسة وعصابتها. سأمنحه هديةً باهظة الثمن لا تضاهى.

غادر بول الفندق، ثم عاد لتناول طعام العشاء.

حدق برنارد في وجهه قائلًا: «تبدو الآن واثقًا من نفسك».

- هذه المرأة ليست سوى شيطانٍ في صورة إنسانٍ.

- هل عثرت على مخبئها؟

- نعم

- إذن ماذا تنتظر؟

- حلول الساعة التاسعة مساءً. وحتى ذلك الحين، سأغفو قليلًا. أيقظني قبل الساعة التاسعة بقليل.

لم يتوقف دوي القصف العنيف في أثناء الليل المتثاقل. تسقط، في بعض الأحيان، إحدى القذائف على المدينة، فينجم عنها انفجارٌ هائلٌ وضجيجٌ صاخبٌ. تتحرك قوات الجيش في جميع الاتجاهات. يسود صمت حذر، وكأن الحرب الهوجاء قد عُلقت، فتنساب الدقائق التي تغدو أكثر خطورة وريبة على الإطلاق.

استيقظ بول من تلقاء نفسه، ثم قال لزوجته ولبرنارد: «كما تعلمان، أنتما سترافقان الوحدات الاستكشافية. سيكون الأمر شاقًا يا إليزابيث، وقاسيًا للغاية. هل أنتِ واثقة بأنكِ لن تخوري؟

- أوه! بول.. لكم يبدو وجهك شاحبًا يا عزيزي!

- نعم، ليس خوفًا من المجازفة بحياتي، والخوض في مغامرة مجهولة.. لكنني، حتى آخر لحظة، وبالرغم من جميع الاحتياطات التي اتخذتها، سأخشى إفلات الخصم من قبضة يدي.. ماذا تفعل يا برنارد؟

- سآخذ مسدسي.

- لا جدوى من ذلك.

- ماذا! ألن نجابه خصمًا، ونقاتله في أثناء هذه الحملة الاستكشافية؟

لم يجبه بول بكلمة.

أخذ برنارد مسدسه.

اجتازوا الساحة الرئيسة للمدينة، مع آخر دقات الساعة التاسعة، ثم اخترقوا الظلام الدامس، وأبصروا شعاع ضوءٍ رفيعٍ منبعثٍ من داخل متجرٍ مغلقٍ. لاحت أمام أعينهم الظلال العملاقة لمجموعة من الجنود الذين يحتشدون أمام ساحة الكاتدرائية. ألقى بول عليهم ضوء مصباحه اليدوي متوجهًا نحو قائدهم، وقائلًا له:

- هل من أخبار جديدة، أيها الرقيب؟

- لا شيء أيها الملازم. لم يدخل أحد المنزل، ولم يغادره أحد.

أطلق الرقيب صافرة خفيفة. في منتصف الشارع، انسل رجلان من وسط الظلام الدامس الذي يغطيهما، ثم انعطفا نحو الفرقة العسكرية، فسألهما الرقيب:

- ألم تصدر أية جلبة من داخل المنزل؟

- لا، على الإطلاق سيدي الرقيب.

- ألم تبصرا أي ضوء يتسرب من خلف المصاريع؟

- لم نبصر شيئًا، سيدي الرقيب.

عندئذٍ، انطلق بول، وبينما يمتثل الجنود الآخرون لتعليماته، ويتبعونه دون أن تصدر عنهم أية ضوضاء، تقدم بعزمٍ مثل متنزه داهمه الوقت، يسرع الخطى كي يصل إلى منزله.

توقفوا أمام منزل ذي واجهة ضيقة للغاية، حيث تمكنوا بالكاد من رؤية الطابق الأرضي الذي تغطيه عتمة الليل الحالك السواد. يمكن الوصول إلى الباب عبر سُلم يتألف من ثلاث درجات. تناول بول مفتاحًا من جيبه، بعد أن قرع الباب أربع مرات متتالية، ثم هم بفتحه.

في الردهة، أضاء بول مصباحه اليدوي مرةَ أخرى، حيث كان رفاقه لا يزالون ملتزمين الصمت المطلق، توجه نحو مرآة تعلو بلاط الردهة قليلًا. دفع المرآة ضاغطًا على أحد جانبيها، بعد أن طرق عليها بخفة أربع مرات متتالية. كانت المرآة تحجب فتحة دَرج يؤدي إلى قبو. انبعث على الفور ضوءٌ قادمٌ من بئر الدرج.

لا بد أنها إشارة أخرى، الإشارة الثالثة المتفق عليها، ذاك لأن صوتًا أنثويًا، لكنه أجشّ، قادم من الأسفل، نادى متسائلًا:

- أهذا أنت أيها الأب «والتر»؟

حان الوقت الآن لاتخاذ ردة فعل سريعة. نزل بول الدرج في عدة وثبات سريعة، دون أن يتفوه بكلمةٍ واحدةٍ. وصل بالكاد في نفس اللحظة التي أغلق فيها باب ضخم يسمح له بالدخول إلى القبو.

دفع الباب الثقيل بعنفٍ بالغٍ، ثم هم بالدخول.

الكونتيسة هيرمين هنا، تجلس أسفل ضوءٍ خافتٍ، جامدةً كقطعةٍ من الصخر، وقد ارتسمت علامات الذهول والحيرة على وجهها. ركضت فجأةً مهرولة إلى الطرف الآخر من القبو، تناولت مسدسًا من فوق الطاولة، ثم استدارت وأطلقت النيران.

انطلق فقط صوت طقطقة زناد المسدس، ولم يدوِ أي صوت لطلقٍ ناريٍّ. كررت المحاولة ثلاث مراتٍ أخرى، ودائمًا ما كانت تحصل على نفس النتيجة الصادمة.

قال بول ساخرًا: «لا جدوى من إصرارك. السلاح فارغ من الذخيرة».

أصدرت الكونتيسة صيحةَ غضبٍ مرعبةٍ، ثم فتحت درج الطاولة، وأخرجت مسدسًا آخر، ضغطت على الزناد أربع مراتٍ متتالية بلا توقف. لم يدوِ صوت أي طلق ناري.

قال بول ضاحكًا: «باءت جميع محاولاتك بالفشل الذريع، أُفرغ هذا السلاح أيضًا من ذخيرته، وكذلك أيضًا المسدس الموجود في الدرج الثاني، وجميع الأسلحة المخبأة في المنزل».

وبينما كانت تحملق في ذهول، دون أن تعي ما يجري أمام ناظريها، مدهوشة من قلة حيلتها وشعورها بالعجز الكلي، ألقى بول التحية عليها، ونطق ببساطةٍ متناهيةٍ هاتين الكلمتين اللتين توجزان كل ما يمكن قوله:

- بول ديلروز.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع

هوهنزولرن

بدا القبو مثل الغرف الشاسعة المقببة التي تنتشر في مقاطعة شمبانيا. جدرانٌ نظيفةٌ ولامعةٌ، أرضيةٌ مستويةٌ، درجة حرارةٍ دافئة، مخدع متوارٍ بين برميلين تحجبه ستارة، مقاعد، أثاث، أبسطة، تشكل جميعها مسكنًا مريحًا، في مأمن من القذائف، كما تغدو ملاذًا آمنًا لكل من يخشون التطفل والانزعاج.

تذكر بول على الفور أنقاض المنارة القديمة الواقعة على مشارف نهر «إيسير»، والنفق الذي يربط بين أورنكان، وإبريكورت. وهكذا، يستمر النضال، وتتواصل المعركة تحت الأرض. إنها حرب الخنادق، وحرب الأقبية، حرب التجسس، وحرب خداع الآخر، حروبٌ تنطوي على نفس المنهجيات الإجرامية والماكرة والشائنة والمبهمة.

أطفأ بول مصباحه، حيث ينبعث ضوءٌ خافتٌ من مصباح الكيروسين المُعلقِ في سقف القبو. بقيت إليزابيث وبصحبتها إدوارد ماكثين في الظلام الخافت. لم يظهر الرقيب ورجاله، بيد أنه تناهى إلى مسامع الجميع ضجيج اندفاعهم في أسفل الدرج.

لم تتحرك الكونتيسة هيرمين قيد أنملة، وكانت ترتدي نفس ثياب حفل عشاء الأمير كونراد. لم ترتسم ملامح الخوف أو الفزع على وجهها، بل بدت عليه علامات تفكير متأن ومفرط، كما لو أنها تود إجراء حسبة دقيقة لاستيعاب عواقب هذا الفخ الذي نُصب لها، والذي سقطت بسهولة في براثنه. بول ديلروز؟ ما الهدف من وراء هجومه المباغت؟ لا شك أنه -وبدا أن هذه الفكرة التي توصلت إليها هي التي أرخت شيئًا فشيئًا ملامح وجهها المتجهم- جاء سعيًا وراء تحرير زوجته من أسرها.

ابتسمت ابتسامةً خفيفةً. لا تزال إليزابيث سجينة في ألمانيا، يا لها من ورقة مساومةٍ رابحةٍ تمتلكها بين يديها. ربما يبدو للجميع أن الكونتيسة وقعت في شر أعمالها، لكنه لا يزال بإمكانها التحكم في مجرى الأحداث!

تقدم برنارد بضع خطوات إلى الأمام، فقال بول للكونتيسة:

- إنه صهري. ربما رآه، الميجور هيرمان، حينما كان مقيدًا في منزل المهرب، كما قد رآني أيضًا وجهًا لوجه. ولكن، على أية حال، الكونتيسة هيرمين، ولنكن أكثر دقة ووضوحًا، ونقول إن الكونتيسة داند□يل، لا تعرف، أو ربما نسيت، برنارد داند□يل.

ارتسمت للتو علامات الطمأنينة التامة والثقة على وجهها، وبدت كشخص يهاجم ويقاتل ويمتلك أسلحةً متكافئةً، بل بالأحرى أسلحة أكثر فتكًا وخطورةً. لذلك، لم ينتَبْها أي شعور بالارتباك أو الانزعاج في مواجهة برنارد، وقالت بنبرة واضحة: «يشبه برنارد داند□يل إلى حد كبير أخته إليزابيث التي سمحت لي الظروف بعدم إغفال مراقبتها. تناولنا طعام العشاء معًا منذ ثلاثة أيام بصحبة الأمير كونراد الذي يهيم بها عشقًا، ولديه كل الحق في ذلك، فهي امرأة جذابة وساحرة ولطيفة للغاية! في الحقيقة، يفيض قلبي تجاهها بكل حبٍّ وود!

أصدر بول وبرنارد نفس الإيماءة التي كادت تودي بهما إلى الانقضاض على الكونتيسة، لولا أنهما كظمَا غيظَهُما، وكبحَا جماحَ كراهيتهما لها. دفع بول صهره جانبًا، مستشعرًا استشاطة غضبه وشدة حنقهِ، ثم تحدث بنبرةٍ مبتهجةٍ، ردًا على تحدي خصمه اللدود، قائلًا:

- نعم بالطبع، أعلم ذلك.. لقد كنتُ هناك أيضًا.. حتى أنني رأيتك وأنتِ تغادرين.

- أحقًا؟

- بالطبع. أسدى لي صديقك كارل معروفًا، وحجز لي مقعدًا في سيارته.

- في سيارته؟

- بكل تأكيد، توجهنا إلى قصرك في هيلدنشايم.. يا له من منزلٍ رائعٍ وفخم للغاية، وددت أن أنال متعة زيارة أركانه شتى.. بيد أن الإقامة بداخله محفوفة بالمَخاطر، بل بالأحرى تودي، في أغلب الأحيان، إلى الموت.. حيث إن..

حدقت الكونتيسة في وجهه بقلقٍ متزايدٍ. ماذا يعني ما قاله؟ كيف تمكن من معرفة كل هذه الأسرار؟ أرادت بدورها أن تثير مخاوفه وتكدر صفوه، فتفوهت بهذه الكلمات بنبرةٍ فظةٍ استخفافيةٍ:

- في واقع الأمر، تنتهي الإقامة في القصر بالموت المحتوم! نستنشق هناك هواءً قد يبدو ملوثًا وقاتلًا بالنسبة إلى أناس آخرين..

- تستنشقون هواء مسممًا..

- بالضبط.

- وهل تخافين على إليزابيث من هذا الهواء؟

- نعم، فصِحّة هذه الفتاة المسكينة أكثر عرضة للخطر، ولن يهدأ لي بالٌ أو يغمض لي جفنٌ...

- إلا إذا وافتها المنية، أليس كذلك؟

تركت الكونتيسة بضع ثوان تمر، ثم أجابته بوضوح شديد للغاية كيما يتمكن من إدراك مغزى كلماتها: «نعم، إلا إذا وافتها المنية.. وهذا الأمر لن يتأخر كثيرًا.. إن لم يكن قد حدث بالفعل».

ساد صمت مطبق. أبدى بول، مرة أخرى، في مواجهة هذه المرأة المتوحشة، نفس الشعور برغبة ملحة في سفك دمائها، وبحاجة إلى إرواء ظمأ كراهيته لها. يجب عليه أن يُقدم على هذا الفعل. الواجب يحتم عليه أن يرديها قتيلة، وعدم الخضوع لهذا الواجب يعد بمثابة جريمة عظمى.

كانت إليزابيث لا تزال واقفةً في الظلام الدامس على بُعد ثلاث خطواتٍ إلى الوراء.

استدار بول ببطء جانبًا، دون أن ينبس ببنت شفة، ثم رفع ذراعه، وضغط على زر مصباحه اليدوي، موجهًا إياه نحو السيدة الشابة، حيث بدد ضوءه الساطع ظلام

القبو، كاشفًا ملامح وجهها.

لم يكن يظن بول، عندما صدرت عنه هذه الإيماءة، أن تأثيرها سيكون بمثابة صاعقة تسقط على رأس الكونتيسة هيرمين. فامرأة مثلها لا تخطئ حساباتها، ويجانبها الصواب دائمًا، لذا ربما بدا لها الموقف كلعبة هازئة، أو كخدعة تشابه وجوه ليس أكثر. لا، استسلمت على الفور لفكرة أن بول حرر إليزابيث من أسرها، وأن إليزابيث تقف الآن أمامها بشحمها ولحمها. ولكن، كيف لمثل هذا الأمر الخارق للطبيعة أن يصير ممكنًا؟ إليزابيث، التي أودعتها بين قبضتي كارل قبل ثلاثة أيام.. إليزابيث التي يجب أن تكون، في هذه الأثناء، في عداد الموتى أو سجينةً داخل قلعة ألمانية محصنة يترصد أكثر من مليوني جندي من يحاول الاقتراب إليها. إليزابيث هنا تقف في مواجهتها؟ كيف لها أن تفلت من بين قبضتي كارل في أقل من ثلاثة أيام، وتفر هاربةً من قصر هيلدنشايم، ثم تخترق خطوط مليونين من جنود الجيش الألماني؟

جلست الكونتيسة هيرمين على الطاولة التي كانت تُعدُ بمثابة سورٍ واقٍ لها، ثم أسندت بغضب فائر، وحنقٍ ثائرٍ، وجنتيها على قبضتيها المرتعشتين. لم يعد هناك وقتٌ للمزاح أو للاستفزاز. لم تعد هناك صفقة لإتمامها، أو مساومة للتحدث بشأنها. تبددت فجأة جميع فرص تحقيق الفوز في لعبة مرعبة محفوفة بالمخاطر. يتوجب عليها الآن أن تخضع ذليلة منكسرة أمام قانون من ظفر بالنصر، والرابح هنا هو بول ديلروز!

تلعثمت قائلةً: «من أين أتيت؟ وما الذي تسعى إليه؟ هل تود قتلي؟

رفع بول كتفيه:

- نحن لسنا أمثال من يتعطشون إلى سفك الدماء ويتلذذون بالقتل. أنتِ هنا كمذنبة. ستُحاكمين، وسوف تنالين العقوبة التي ستُفرض عليك عقب مرافعة قانونية يمكنك من خلالها الدفاع عن نفسك.

ارتجف قلبها معترضةً:

- ليس لديك الحق في محاكمتي، فأنت لست قاضيًا.

تسرب الخوف -ذلك الشعور المؤلم الذي بدت وكأنها تتجاهله حتى هذه اللحظة- إلى أعماق أعماقها.

كررت بصوت خفيض: «أنت لست قاضيًا.. أنا أحتج بشدة.. ليس لديك الحق».

في تلك اللحظة، تعالى صوت جلبة قادم من ناحية الدرج، وصاح أحد الأصوات: «ثابت!»

دُفع الباب، الذي ظل مفتوحًا قليلًا، على الفور، ومر عبره ثلاثة ضباط يرتدون معاطف طويلة. اندفع بول نحوهم بسرعة، وأجلسهم على ثلاثة مقاعد متجاورة، في أحد أركان القبو التي لا يتسرب إليها الضوء. ظهر شخص رابع، استقبله بول، وأجلسه بمفرده بعيدًا عنهم. ظل برنارد وإليزابيث واقفين بجوار بعضهما البعض.

عاد بول إلى مكانه، على جانب الطاولة، وظل واقفًا، ثم قال بنبرة رصينة جادة:

- في الواقع، أنا لست قاضيًا، ولا أود أن أغتصب حقًا لا يخصني. هؤلاء هم من سيشرعون في محاكمتك. وها أنا أوجه إليكِ اتهامًا.

نطق بول بهذه الكلمات الأخيرة بنبرة شرسة وقاطعة تمتزج بحيوية مفرطة.

وعلى الفور، دون أدنى تردد، تفوه بنبرةٍ وديعةٍ ومسالمةٍ، قائلًا:

- لقد وُلدتِ في قصر هيلدنشايم الذي كان يدير شؤونه جدك، ثم مُنح هذا القصر لوالدك في أعقاب حرب 1870. اسمك الحقيقي هو هيرمين «هيرمين دو هوهنزولرن». شارك والدك في حرب عام 1870 بصفته عقيدًا، واشتهر بشراسةٍ ووحشيةٍ غير مسبوقتين. جلب جميع التحف التي تزين قصره من فرنسا، وما زاد الطين بلة، هو أن جميع اللوحات والتحف النادرة دُونت عليها عبارات تحدد مكانها الأصلي واسم المالك الذي سُرقت منه. بالإضافة إلى ذلك، يوجد في ردهة القصر لوحةٌ رخاميةٌ نُقشتْ عليها بأحرفٍ ذهبيةٍ جميع أسماء القرى الفرنسية التي أُحرقت بالنار بناء على الأوامر الصادرة من قبل سعادة الكولونيل الكونت هوهنزولرن. تردد القيصر كثيرًا على هذا القصر، وفي كل مرة، يجتاز فيها أمام هذه اللوحة الرخامية، كان يلقي التحية العسكرية.

استمعت إليه الكونتيسة بذهنٍ شاردٍ. لم تبدُ هذه القصة، بالنسبة إليها، ذات أهمية بالغة. تنتظر، في واقع الأمر، سماع ما سيقال بشأنها.

أردف بول:

- لقد ورثتِ عن والدك شعورين سيطرا تمامًا على مجرى أحداث حياتك، حب جارف لأسرة «هوهنزولرن» الحاكمة، وضغينة شرسة ووحشية ضد فرنسا التي ندم والدك على عدم إلحاق الضرر بها بشكل مرجوٍ وكافٍ. تزوجتِ من أمير نمساوي وافته المنية في ظروف غامضة، ثم تزوجتِ من أمير روسي، لا يعلم أحد أيضًا كيف لقى حتفه، توالت مؤامراتك ولم يتوقف سعيك الدؤوب في شتى الأماكن من أجل تحقيق أهدافك المنشودة. عندما اندلعت الحرب بين إنجلترا، ومقاطعة «ترانسفال»، كنتِ وقتئذ في ترانسفال، وعندما دقت طبول الحرب الروسية اليابانية، توجهتِ عل الفور إلى اليابان. ذهبتِ إلى كل مكان، كنتِ في فيينا عندما اغتيل الأمير رودولف، وكنتِ في بلجراد عندما اغتيل الأمير ألكسندر، والملكة دراجا. لن ألقي الضوء أكثر من ذلك على دورك.. الدبلوماسي. أتوق شوقًا الآن إلى التطرق على مهنتك الأسمى والمفضلة التي بذلتِ فيها قصارى جهدك طيلة عشرين عامًا للإيقاع بفرنسا.

ارتسمت تعابير الخبث والدهاء على وجه الكونتيسة، ممتزجة بعلامات الزهو والبهجة. حقًا، لقد امتهنت هذا العمل بحرفية بالغة، ووظفت جميع قدراتها، مستغلة ذكاءها المدمر في تحقيق بُغيتها.

- لن أسهب في الحديث عن دورك المحوري في توزيع المهام الجاسوسية العملاقة، والإعداد للمخططات الشيطانية. سأكتفي بذكر واقعة وجودي في إحدى قرى شمال

فرنسا، والصعود إلى قمة برج كنيسة، عندما هاجمت أحد شركائك، ووجدته مسلحًا بخنجر يحمل الأحرف الأولى من اسمك. الأدلة التي جمعتها هي بالفعل الآن بين أيدي المحكمة. ولكن الحدث الجلل الذي أود أن أزيح الستار عنه، وأبرزه جليًا أمام الحضور، يتعلق بما بذلته من مجهودٍ مضنٍ للاستيلاء على قصر أورنكان. سلسلة من الجرائم الموثقة والمرتبطة بأحداثٍ عديدةٍ متعاقبةٍ، سوف أسردها واحدة تلو الأخرى على مسامعكم.

خيم الصمت مرة أخرى. أصغت الكونتيسة إلى بول بفضول بالغ يخامره القلق.

- في عام 1894، قدمتِ اقتراحًا إلى الإمبراطور بحفر نفق يربط بين إبريكورت وكور□يني. بعد الدراسات المضنية التي أجراها المهندسون، تم التوصل إلى أن هذا المشروع العملاق يمكن تنفيذه شريطة أن يُستولى على قصر أورنكان. كان مالك القصر في حالة صحية متردية؛ لذا توجب الانتظار فترة من الوقت. ولأنه تعافى قليلًا، وبقي على قيد الحياة، أتيتِ إلى كور□يني، وعقب مرور ثمانية أيام على قدومك، وافته المنية أيضًا في ظروف غامضة. هذه هي الجريمة الأولى.

صاحت الكونتيسة: «أنت تكذب! أنت تكذب! أنت لا تمتلك دليلًا واحدًا. أتحداك أن تقدم دليلًا واحدًا».

واصل بول حديثه، دون أن يجيبها بكلمة واحدة:

- عُرض القصر للبيع، وتصرف وكيل أعمالك الذي كان يتلقى أولًا بأولٍ تعليماتك ببعض الرعونة. حُسم الأمر، ومُنح القصر، في نهاية المطاف، بأمر قضائي إلى الكونت داند□يل الذي جاء في العام التالي للإقامة فيه برفقة زوجته وطفليه الاثنين. تملكتكِ حالة من الغضب والاضطراب الشديدين. وفي النهاية، اتُّخذ القرار ببدء العمل في هذا المشروع العملاق، وإجراء المسوحات الأولى حول كنيسة صغيرة كانت تقع -حينئذ- خارج أطراف حديقة القصر. زار الإمبراطور إبريكورت عدة مرات، وذات يوم، عند مغادرته لهذه الكنيسة، التقى بي وبوالدي. وبعد مرور عشر دقائق، دنوتِ من والدي، ثم أنهيتِ حياته، وسقط طريحًا على الأرض. الجريمة الثانية.

صاحت الكونتيسة مرة أخرى: «أنت تكذب! أنت لا تتفوه سوى بالأكاذيب! لا يوجد دليل واضح!

- بعد مرور شهر، أُجبرت الكونتيسة داند□يل، هادئة الطباع، على ترك أورنكان نظرًا لتردي حالتها الصحية، متجهة نحو الجنوب، وانتهى بها الأمر إلى أن تفارق الحياة بين ذراعي زوجها الذي أصيب بصدمة مروعة، وقرر ألا يعود مرة أخرى إلى أورنكان. نُفذت خُطتك على الفور. أضحى القصر خاليًا من سكانه، وتوجب عليكِ أن تمكثِي هناك. ولكن كيف؟ بشراء الحارس چيروم وزوجته واجتذابهما نحوك. نعم، بشرائهما. هذان الحقيران اللذان لم يكن لديهما -في واقع الأمر- ذريعة سوى أنهما ليسا ألزاسيّين -كما كانا يزعمان- بل ينتميان إلى أصول أجنبية، لم يتوقعا عواقب خيانتهما، هذان الحقيران تحالفا مع الشيطان. منذ ذلك الحين، غدا

القصر ملكًا لكِ، وأضحيت تمتلكين الحرية الكاملة في القدوم إلى القصر ومغادرته وقتما تشائين. وبناء على أوامرك، أخفى چيروم عن الجميع سر وفاة الكونتيسة هيرمين، الكونتيسة هيرمين الحقيقية. وبما أن اسمك هو أيضًا الكونتيسة هيرمين، ولم يكن أحد يعرف السيدة داند□يل التي عاشت في عزلة بعيدًا عن أعين الجميع، مرت الأمور على خير ما يرام.

اتخذتِ جميع الاحتياطات اللازمة. ومن بين الأمور الأخرى التي أصابتني بالحيرة، بخلاف تواطؤ الحارس وزوجته، كانت صورة الكونتيسة داند□يل التي وجدت في غرفة معيشتها آنفًا. صممتِ صورة لكِ متساوية الأبعاد تتوافق مع الإطار الذي نقش عليه اسم الكونتيسة الحقيقية. أظهرتك الصورة وأنتِ ترتدين نفس ثيابها، وتشبهين هيئتها إلى حد كبير.

قضبت الكونتيسة حاجبيها مدهوشةً وتَلوَّى ثغرها.. لم تبدِ شعورًا بالخزي أو الخجل جراء أفعالها الشائنة، بل ازدادت دهشتها لرؤية أدق تفاصيل حياتها تنساب رويدًا رويدًا، وتشاع على الملأ، وينبثق ماضيها الإجرامي وسط أغوار الظلام ملطخًا بالدماء، وقد ظنته توارى في قبر بعيد عن الأنظار.

استأنف بول حديثه قائلًا: «عندما اندلعت الحرب، كان كل شيءٍ معدًا على أحسن وجه. أقمتِ في قصر إبريكورت أمام مدخل النفق، وكنت على أهبة الاستعداد للشروع في تنفيذ مخطتك اللعين. أصابتكِ الدهشة قليلًا عندما تنامى إلى علمك، عبر خادمك الأمين چيروم، خبر زواجي من إليزابيث، ووصولي المفاجئ إلى قصر أورنكان، والارتباك وحالة القلق التي تملكتني فور رؤيتي صورة قاتلة والدي. لذا، توجب عليكِ أن تنصبِي لي فخًا للإيقاع بي وإنهاء حياتي، بيد أن قرار التعبئة العامة أنقذني من بين مخالبك المسنونة. بعد ثلاثة أسابيع، قُصفت كور□يني بالمدافع، وتم الاستيلاء على أورنكان، وأضحت إليزابيث أسيرة لدى الأمير كونراد.

عشتِ هناك لحظات لا توصف غامرة بلون المجد والفخر؛ فبالنسبة إليك، يعُد ما حدث بمثابة انتقام عظيم، بل أيضًا -والفضل كله يعود لكِ- نصر مبين، حُلم صعب المنال كاد يكتمل. تم الاستيلاء على باريس بعد مرور يومين فقط، وهُزمت أوربا بأسرها خلال شهرين. يالنشوة الانتصار ولذة البطولة! أعرف جميع الكلمات التي تراقصت على شفتيكِ طربًا في تلك الأثناء، فقد قرأت الرسائل التي سطرت يدك أحرفها وكشفت جليًا جنونك الحقيقي، جنون العظمة، الجنون الهمجي، الجنون الخارق للطبيعة.

ثم تبددت أوهامك وباغتتك، على حين غرة، يقظة فظة. معركة نهر المارن! آه! مرة أخرى، رأيت الرسائل التي سطرتها أقلامك هناك. لكن، كان عليكِ أن تدافعي عن نفسك بكل ما أوتيتِ من قوة. استجوبت صهري برنارد وعلمتِ أنني انتقلت إلى كور□يني. هل ستُحرّر إليزابيث من قبضتك اللعينة؟ إليزابيث التي تعرف كل أسرارك. لا، يجب أن تموت. أصدرتِ أمرًا بإعدامها رميًا بالرصاص. أعدت العُدة لتنفيذ الحكم. تدخل الأمير كونراد في اللحظة المناسبة، وهَمَّ بإنقاذها من براثن الموت؛ لذا توجب عليكِ أن تصطنعي مشهد إعدام وهمي زائف يهدف إلى إخماد

حماستي وتشتيت انتباهي، ووضع حد لبحثي الدؤوب عن زوجتي التي اصطحبت كأحد العبيد إلى ألمانيا. حاول چيروم وروزالي المتواطئان معكِ أن يلوذا بالفرار بصحبة إليزابيث، بعد أن أحرقتهما نيران التبكيت والندم، وتأثر قلباهما جراء فرط تعذيب إليزابيث. تملكك الفزع من أن يفشيا أسرارك، فأعدما رميًا بالرصاص.. الجريمتان الثالثة والرابعة. وفي اليوم التالي، قمت باغتيال جنديين آخرين عوضًا عني وعن برنارد. الجريمتان الخامسة والسادسة.

وهكذا تشكلت الدراما بأكملها عبر سلسلة من المشاهد المأساوية، ووفقًا لتعاقب الأحداث وجرائم القتل. كم يبدو هذا المشهد مليئًا بالرعب، حيث تجلس هذه المرأة المذنبة المتهمة بارتكاب كومة من الجرائم، والتي زج بها القدر المحتوم ونصب شباكه حولها في الجزء الخلفي من القبو، على مرأى ومسمع أعدائها اللدودين. ولكن، كيف يمكن لها أن تبدو هكذا متشبثةً بآخر بصيصٍ من الأمل، ولم تنهر كل طموحاتها؟ تبدو بالفعل هكذا، أخذ برنارد يراقبها بدقة، ثم اقترب من بول قائلًا له:

- انتبه إليها جيدًا. تطلعت إلى ساعتها مرتينِ متتاليتين. أعتقد أنها تنتظر تدخلًا معجزيًّا، بل بالأحرى، إغاثةً مباشرةً محتومةً في طريقها إليها وستصل في وقتٍ محددٍ. انظر.. عيناها حائرتان تبحثان عن شيءٍ غامضٍ.. تنصت جيدًا إلى سماع شيءٍ ما.

أجابه بول: «أحضر كل الجنود المتكدسين أسفل درج القبو. لا يوجد سبب يعيقهم عن سماع ما تبقى لي لأقوله على الملأ»

استدار بول نحو الكونتيسة، وتفوه بنبرة أخذت تتعالى شيئًا فشيئًا، قائلًا:

- نحن نقترب من النهاية. خاضت الكونتيسة رحلة صراعها الشيطاني متنكرة في هيئة الميجور هيرمان كيما يتثنى لها متابعة أحوال الجيوش ولعب دور زعيم منظومة الجاسوسية. هيرمان، وهيرمين.. الميجور هيرمان هو أنتِ دون أدنى شك، ذلك الشخص الذي أصابني الذهول فور رؤيته بصحبة الجندي «لاشين» المزيف، أو بالأحرى الجاسوس كارل، داخل أنقاض المنارة القديمة التي تقع على ضفة نهر «إيسير». ذلك الشخص الذي تمكنت من الإمساك به، وأوثقته بالحبال داخل عُلية منزل المهرب.

آه! لم تغتنمي الفرصة التي قُدمت لكِ على طبق من ذهب في ذلك اليوم. سقط أعداؤك الثلاثة جرحى، وكانوا في متناول يدك.. فررتِ هاربة دون أن تلاحظي وجودهم، دون أن تنهي حياتهم! لم تعد تصلك أخبارنا، بيد أننا كنا على درايةٍ تامةٍ بكل ما تخططين له. الأحد العاشر من يناير، موعد هام في إبريكورت، لقاء كارثي عُقد مع كارل، حيث أخبرته برغبتك الملحة في التخلص من إليزابيث للأبد. في ذلك اليوم، العاشر من يناير، كنت أنا هناك في الموعد المناسب. راقبت حفل عشاء الأمير كونراد! نعم، كنت هناك أيضًا، عقب حفل العشاء، عندما أعطيتِ كارل قارورة السم! كنت هناك، جالس في المقعد الأمامي للسيارة، عندما أعطيتِ كارل تعليماتك النهائية! كنت في كل مكان. قُتل كارل في مساء ذلك اليوم، وفي الليلة التالية، اختطفت الأمير كونراد من قلب قصره وأخذته كرهينة. وفي اليوم التالي،

أي أول من أمس، أجبرت الإمبراطور على التفاوض معي، أمليت شروطي عليه، وأولها تحرير إليزابيث بشكل فوري. استسلم الإمبراطور خانعًا لشروطي، وها نحن ذا!

طرقت كلمة واحدة من بين جميع الكلمات المرتبة التي انطلقت من بين شفتي بول باب ذهن الكونتيسة، مخترقة قلبها كسهم نافذ، وشوشت تفكيرها، نظرًا لأن هذه الكلمة أزاحت الستار عن أكثر المصائب المفجعة على الإطلاق. تلعثمت قائلة: «قُتل؟ هل تقول إن كارل قُتل؟»

صاح بول، وقد اشتعلت نيران البغضة في جنبات قلبه مرة أخرى: «أردَته عشيقته قتيلًا عندما حاول اغتيالي. قُتل مثل وحش مسعور! نعم، مات الجاسوس كارل، وظل حتى اللحظة التي وافته فيها المنية جاسوسًا خائنًا طيلة حياته. تطالبين بتقديم دليل واضح، أليس كذلك؟ عثرت على جميع هذه الدلائل، والمستندات في جيبه! قرأت بتأنٍ بالغ مفكرة يومياته، وسرده الدقيق لسلسلة جرائمك، طالعت بعض رسائلك. لقد توقَّع أنك، بمجرد إنجاز مهمتك، وتحقيق غايتك المنشودة، ستضحين به يومًا ما، في مقابل أن تنعمي بالأمن والسلام، فأراد أن يثأر لنفسه قبل فوات الأوان.. انتقم بشراسة مثلما انتقم آنفًا الحارس چيروم وزوجته روزالي، قبل أن يُقتلا بالرصاص بناء على أوامرك أفشيَا أسرارك لإليزابيث، وأوضحَا لها دورك الغامض في الاستيلاء على قصر أورنكان. ها هم شركاؤك! أرديتهم قتلى، بيد أنهم تسببوا في افتضاح أمرك. رسائلهم، وشهاداتهم، وأدلتهم هي الآن بين أيدي القضاة. ما ردك على جميع اتهاماتي؟

كاد وجه بول يلتصق بوجهها. بالكاد فصلت زاوية المنضدة بينهما، وراح بول يوجه إليها تهديداته بغضب جارف، وبمقت واشمئزاز بالغين.

تراجعت الكونتيسة بضع خطوات إلى الوراء نحو الحائط، ثم تورات عن الأنظار أسفل حامل معاطف عُلقت عليه بعض الأقمصة النسائية، والثياب البالية، وملابس عديدة أخرى. وبالرغم من أنها محاصرة من جميع الاتجاهات، حبيسة، مفحمة بالأدلة والبراهين، منزوعة الأقنعة، وعاجزة تمامًا، رفعت شعار التحدي والاستفزاز. يبدو أنها لم تستسلم ولم تخسر الجولة. لا تزال محتفظة ببعض الأوراق الرابحة.. قالت بنبرة واثقة:

- لست ملزمة بالإجابة عن هذه الأسئلة. أنت تتحدث عن امرأةٍ همجيةٍ ارتكبت العديد من الجرائم، وأنا لست هذه السيدة. لا يتعلق الأمر بإثبات أن الكونتيسة هيرمين جاسوسة أو سيدة عاتية الإجرام، بل بإثبات أنني الكونتيسة هيرمين. ومن بإمكانه أن يثبت ذلك؟

- أنا!

إلى جانب الضباط الثلاثة الذين أوضح بول أنهم قضاة، كان هناك ضابط رابع استقبله بول، وأجلسه بعيدًا عنهم، تلفه هالة من السكون والجمود الكلي.

تقدم هذا الضابط الرابع بضع خطوات إلى الأمام.

تسلط ضوء المصباح على وجهه، فتمتمت الكونتيسة قائلة: «ستيفان داند□يل.. ستيفان..»

إنه بالفعل ستيفان والد إليزابيث وبرنارد. بدا وجهه شاحبًا شحوب الموتى، وجسده واهنًا إثر الجروح التي أصابته، والتي راح يتعافى منها شيئًا فشيئًا. عانق بشدة ابنه وابنته، فقال له برنارد بنبرة تفيض حبًا:

- ها أنت قد أتيت يا أبي.

- نعم، أُخطرت من قبل القائد العام، وجئت بناءً على استدعاء من بول الذي أطلعني على آخر التطورات، عندما التقينا منذ قليل في أحد شوارع «سواسون». والآن أدرك مرارة ما عاناه بول بمفرده، وما بذله من مجهودٍ مضنٍ لسحق رأس هذه الأفعى.

وقف الكونت وجهًا لوجهٍ أمام الكونتيسة، واستشعر الحضور الأهمية البالغة للكلمات التي كادت أن تنطلق من بين شفتيه. أحنت الكونتيسة رأسها لوهلة، ولكن سرعان ما اشتعلت عيناها غضبًا قائلة له: «هل أتيت أنت أيضًا لتكيل لي المزيد من الاتهامات؟ ماذا لديك لتقوله ضدي؟ أكاذيب ومزاعم واهية، أليس كذلك؟ هل ستتفوه بإهانات وأقوال معيبة؟

انتظر ستيفان برهة من الوقت كيما يخيم الصمت المطبق على كلماته، ثم راح يتحدث ببطء:

- في بدء الأمر، أتيتُ إلى هنا كشاهد يُدلي بمعلوماته حول هويتك الحقيقية. لقد انتحلتِ في السابق اسمًا لم يكن ملكًا لكِ، وتمكنتِ بواسطة هذا الاسم الزائف من كسب ثقتي. وبعد فترة وجيزة، بعد أن توطدت وتوثقت أواصر العلاقة بيننا، كشفتِ الستار عن هويتك الحقيقية، يحدوك الأمل بأن تبهريني بألقابك وتحالفاتك. لذا؛ من الواجب أن أعترف أمام الله وأمام الحضور أنك بالفعل الكونتيسة «هيرمين دو هوهنزولرن». ولأنني تيقنت بوضوح من هويتك الحقيقية باعتبارك الكونتيسة هوهنزولرن، الشخصية المثيرة للجدل على وجه التحديد، أنهيت علاقتي بكِ على الفور. انتهى دوري الآن كشاهد.

صاحت الكونتيسة مستشيطة غضبًا: «دورٌ دنيءٌ ومقززٌ، دورٌ ينطوي على الأكاذيب والغش والخداع، كما قلت لكم آنفًا. لا يوجد دليل واحد يدينني!»

اقترب الكونت منها، وقال لها بصوتٍ يرتعش غضبًا: «لا يوجد دليل واحد، أليس كذلك؟ وماذا عن هذه الصورة التي أرسلتِها من برلين، مزيلةً بتوقيعكِ؟ تلك الصورة، حيث أقدمتِ بحماقة وجسارة على ارتداء ثياب زوجتي؟ نعم، أنتِ! كيف تجرئين على فعل ذلك! لقد اعتقدتِ أنه من خلال محاولة تجسيد شخصيتها، وارتداء ثيابها، ستتمكنين من استثارة مشاعري وتحريك قلبي تجاهك! لكنك -في الحقيقة- لم تدركِي أنك توجهين إليَّ أقذع الشتائم والإهانات، وتنتهكين حرمة زوجتي التي وافتها المنية! كيف تجرئين على فعل ذلك!

أخذ الكونت يوجه إليها كمًا هائلًا من التهديدات، مثلما فعل بول ديلروز منذ قليل، تتملكه حالة من الغضب الأهوج. همهمت الكونتيسة بنبرة يكسوها الاضطراب والقلق: «حسنًا، ولمَ لا؟» ضم الكونت قبضتي يده في حنق، ثم تابع حديثه:

- ولمَ لا؟ كنت أجهل حينئذ هويتك الحقيقية، ولم أكن أعلم شيئًا عن المأساة.. عن مأساة الماضي.. اليوم فقط، ربطت خيوط الأحداث ببعضها البعض، وإذا كنت قد دفعتك في السابق بعيدًاعن حياتي باشمئزاز فطري، ها أنا اليوم أوجه إليكِ اتهاماتي بنفورٍ لا يضاهى.. الآن، أدرك كل شيء.. نعم، ومتيقن مما نما إلى علمي. عندما كانتً زوجتي المسكينة تصارع الموت، وتحتضر في غرفتها، أخبرني الطبيب قائلًا: «إنها تعاني من أمر غريب». بالطبع، تعاني من التهاب الشعب الهوائية، والالتهاب الرئوي، ولكن -بالرغم من ذلك- هناك أشياء يتعسر عليَّ فهمها.. تعاني من أعراض.. لماذا لا أقولها على الملأ؟ أعراض التسمم. حينئذ، اعترضت على ما يقوله الطبيب. هذه الفرضية مستحيلة. زوجتي مسمومة! ومن أقدم على دس السم لها؟ أنتِ، أيتها الكونتيسة هيرمين، أنتِ بكل تأكيد! اليوم أؤكد لكِ، وأقسم أنكِ دبّرت ذلك. أتبتغين الدلائل؟! بقاؤك على قيد الحياة هو أعظم دليل يدينك، ويوجه إليكِ أصابع الاتهام.

واصل الكونت حديثه:

- هناك نقطة واحدة لم يسلط بول ديلروز الضوء عليها. لم يدرك لماذا، عندما أردَيت أباه قتيلًا، كنتِ ترتدين ثيابًا تشبه ثياب زوجتي. لماذا؟ لسبب واحد شائنٍ وبغيض للغاية، ألا وهو أنه في ذلك الوقت، عندما بات أمر وفاة زوجتي محققًا سعيتِ جاهدة أن تثيري الحيرة والبلبلة في أذهان أولئك الذين يصطدمون بكِ، وسعيتِ بخس ودناءة إلى استغلال الشبه الواضح بينك وبين الكونتيسة داند□يل. هذا دليل موثوق لا يقبل الجدل. كانت زوجتي تثير انزعاجك وغضبك.. أنتِ من قتلتِها. استنتجتِ أنه بمجرد وفاة زوجتي لن أعود مرة أخرى إلى أورنكان؛ لذا قتلتِها بدمٍ باردٍ! بول ديلروز، لقد ذكرت ست جرائم ارتكبتها هذه الشيطانة. إليك الجريمة السَّابعة، اغتيال الكونتيسة داند□يل.

رفع الكونت قبضتي يده، وأغلقهما على غضبه وغيظه أمام وجه الكونتيسة هيرمين. ارتجف من شدة الغضب، وكاد يصفعها.

ومع ذلك، ظلت الكونتيسة مكتوفة الأيدي، لم تنبس ببنت شفة أمام هذا الاتهام الجديد. ما كان يتوجب عليها قوله للدفاع عن نفسها لم يعد يشغل بالها. شرد ذهنها إلى مكان آخر، وراحت تنصت لصوت آخر، لم تعر انتباهًا لتهديدات أعدائها. كانت ترى مشهدًا مغايرًا لذلك المشهد الذي يدور أمامها، وكما لاحظ برنارد منذ فترة وجيزة، بدا وكأن ذهنها منشغلًا بما يجري في الخارج، أكثر من اهتمامها بما يحدث أمام ناظريها.

ولكن ماذا تتوقع أن يحدث؟

تطلعت إلى ساعتها للمرة الثالثة. مرت دقيقة. دقيقة أخرى.

انبعثت ضوضاء خفيفة قادمة من الأعلى، في مكان ما في القبو، صوت تشغيل آلة.

نهضت الكونتيسة عن مكانها. وأخذت تنصت متحمسة بكامل انتباهها، وكأنها لا تود أن يعكر أحد من الحضور صفو الصمت المطلق الذي يخيم على المكان. راحت تنصت.. وتنصت بانتباه أكثر..

وفجأة، انبعث من سقف القبو السميك، صوت رنين جرس. وبعد بضع ثوان فقط.. أربعة نداءات منتظمة.. كان هذا كل شيء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العاشر

إعدامان

ومن المثير للدهشة -بالإضافة لانطلاق صوت رنين بصورة يتعذر تفسيرها- انقلاب الأحداث المفاجيء، والناجم عن قفزة فجائية للكونتيسة عبرت من خلالها عن احتفالها بالنصر العظيم. أطلقت صيحة فرح وحشية، ثم انفجرت مقهقة. تبدلت على الفور ملامح وجهها. لم يعد هناك مكانًا للانزعاج والقلق. زال التوتر الذي يتملك عقلها الحائر الفزع وحل محله الشعور بالغطرسة والثقة الزائدة والاحتقار والزهو.

ضحكت هازئة: «أيها الحمقى! يا لكم من أغبياء! ماذا كنتم تظنون إذن؟ يجب القول إن الفرنسيين ساذجون جميعهم! هل كنتم تعتقدون أنكم تنصبون لي فخًا؟ هيهات أن تسقطوني في هذه المصيدة! أنا! أنا!

تماسكت، وتصلب جسدها، أغمضت عينيها لوهلة بجهد إرادي ملحوظ، ثم مدت ذراعها اليمنى، دفعت أحد المقاعد لتكشف عن لوحة معدنية صغيرة يعلوها مقبض نحاسي راحت تتحسسه، وعيناها متجهتان بالتناوب نحو بول والكونت داند□يل وابنه والضباط الثلاثة. أخذت تردد بنبرة جافة وحازمة:

- ما الذي يثير خوفي منكم الآن؟ هل تبحثون عن الكونتيسة «هيرمين دو هوهنزولرن»؟ أتودون معرفة إذا ما كنت أنا حقًا الكونتيسة «هيرمين دو هوهنزولرن»؟ نعم، إنها أنا بكل تأكيد.. أنا لا أنكر ذلك.. أزف بمثل هذا الخبر على مسامعكم جميعًا.. كل الأفعال التي تدَّعُون بغباء منقطع النظير أنها جرائم، نعم، أنا التي خططت إليها وارتكبتها.. أليس هذا واجبي تجاه إمبراطوري.. أن أكون جاسوسة مخلِصة؟ ببساطةٍ متناهيةٍ، سيدة ألمانية. وما تفعله هذه السيدة الألمانية لصالح بلدها أُوتيت ثماره الآن.

كفوا عن أحاديثكم السخيفة وثرثرتكم المقيتة عن الماضي. الحاضر بين أيدينا، والمستقبل يلوح أمامنا. غدوت الآن المتحكمة الوحيدة في الحاضر والمستقبل. نعم، بفضلكم جميعًا استعدت قدرتي على التحكم بمجرى الأحداث، وستنطلق الآن ضحكاتنا جميعًا. هل تودون معرفة أمر بالغ الأهمية؟ كل الأحداث التي وقعت هنا مؤخرًا، منذ بضعة أيام قليلة، أنا من خططت لها؟ الجسور التي جرفها النهر، قُوّضت ركائزها بناءً على أوامري.. لماذا؟ لإجباركم على التراجع؟ بالطبع، توجب علينا فعل هذا قبل أي شيءٍ آخر، كنا بحاجة ملحة إلى إعلان أي انتصارٍ.. انتصار حقيقي أو زائف. ولكن ما أسعى حقًا إليه، يفوق هذا الانتصار بكثير. وها أنا نلت مبتغاي».

توقفت قليلاً، ثم واصلت حديثها بنبرة أكثر هدوءًا متجهة أنظارها نحو من ينصتون إليها بذهول:

- الانسحاب وإثارة الفوضى بين صفوف قواتكم، وضرورة عرقلة تقدمكم، وجلب المزيد من التعزيزات العسكرية، تلك هي الأهداف التي وضعناها نصب أعيننا لإجبار القائد الأعلى لقواتكم على الحضور إلى هنا بهدف التشاور مع جنرالاته. أترصده منذ عدة أشهر. يتعذر الوصول إليه. لم أتمكن من تنفيذ خطتي. إذن، ما العمل؟ ماذا أفعل، بكل بساطة، جعلته يهرول راكضًا إلى هنا، طالما أنني لم أتمكن من الذهاب إليه.. أحضره إلى هنا، ثم أستدرجه إلى أحد الأماكن الأكثر ملاءمة بالنسبة إليّ متخذة جميع الترتيبات اللازمة. لقد جاء بالفعل، واتخذت جميع احتياطاتي. إنه هنا، في إحدى غرف نوم قصر صغير يمكث فيه كلما جاء إلى «سواسون». أعلم يقينًا أنه هناك. كنت أنتظر الإشارة التي سيعطيني إياها أحد عملائي السريين، والتي استمعتم إليها جميعًا. لذا؛ لم يعد هناك مجالًا للشك. الشخص الذي أراقبه، وأسعى للنيل منه يتشاور الآن مع جنرالاته في منزل مرصود زرعت الألغام تحته. يجلس بجواره أحد أبرز القادة العسكريين، وأحد أبرز قادة الفيالق العسكرية. ثلاثة رجال ذوو نفوذ عظيم -لن أتحدث هنا عن الأشخاص الثانويين- هؤلاء الثلاثة يقبعون تحت رحمة إشارة واحدة يمكنني القيام بها، عندما أرفع هذا المقبض، سيتم تفجيرهم وتفجير المنزل الذي يحتمون بداخله، هل يجب أن يصدر عني هذا السلوك المعيب؟

انبعث فجأة داخل القبو صوت طقطقة سريعة. إنه برنارد داند□يل يذخر مسدسه، ثم يصيح بأعلى صوته: «يجب أن أقتلها، هذه الشيطانة الحقيرة». ألقى بول بنفسه أمامه قائلًا له: «اصمت! لا تتحرك قيد أنملة!

تعالت قهقهة الكونتيسة من جديد، ويا لها من بهجة خبيثة تلك التي امتزجت مع ضحكاتها!

- أنت محق يا بول ديلروز. أنت تدرك خطورة الوضع. إذا أطلق هذا الشاب الأرعن رصاصته سريعًا باتجاهي، سيكون لدي قدر كافٍ من الوقت لرفع المقبض. وهذا ما لا يجب أن يحدث، أليس كذلك؟ هذه ما تريدون تجنّب وقوعه بأي ثمن.. حتى لو كان هذا الثمن هو حريتي الكاملة، أليس كذلك؟ واحسرتاه! ستنهار خطتي المُحكمة ما دمت صرت لقمة سائغة بين أياديكم. بيد أنني لست أقل قدرًا من جنرالاتكم الثلاثة العظماء، أليس كذلك؟ ولدي كل الحق في العفو عنهم في مقابل الظفر بحريتي، وإنقاذ حياتي من براثن الموت.. لذا دعونا نعقد هذه الصفقة، هل نحن متفقون؟ حياتهم في مقابل حياتي! لديك دقيقة واحدة لتتشاور مع هؤلاء السادة يا بول ديلروز. إذا تحدثت في غضون دقيقة باسمك، أو نيابة عنهم، ولم تعطني ضمانًا بنيل حريتي، وتوفير الحماية اللازمة للسفر إلى سويسرا، عندئذ.. لتحل المصائب بي، وبأعدائي. آه! كم يبدو هذا مضحكًا!

أسرع يا صديقي ديلروز. أعطني وعدًا.. نعم، هذا يكفيني. اللعنة! ها أنا أنتظر وعدًا من ضابط فرنسي!

انطلقت ضحكاتها الضجرة والمتهكمة، ثم غرقت في بحر من الصمت. بدا لبول أن ثقتها بنفسها تتلاشى شيئًا فشيئًا. أخذت تنهار من تلقاء نفسها، توقفت عن الحديث

فجأة.

أصابتها حالة من الذهول: لم يتحرك بول ديلروز قيد أنملة، تسمرت أقدام الضباط، والجنود في أرضية القبو، وبدوا جامدين كالصخر دون حراك.

راحت تلوح بقبضة يدها مهددة، ومتوعدة: «من الأفضل أن تسرعوا، آمركم بذلك! لديكم دقيقة واحدة أيها السادة الفرنسيون. دقيقة واحدة، لا أكثر..

لم يتحرك أحد قيد أنملة.

راحت تعد تصاعديًا بصوت خفيض الثواني المنقضية، عشر ثوان تتلوها عشر ثوان أخرى.

عندما وصلت إلى الثانية الأربعين، انطبقت شفتاها على بعضهما، وظهرت ملامح القلق على وجهها. تملكتها نوبة من الغضب العارم قائلة:

- يبدو أنه أصابكم مس من الجنون! ألم تدركوا ما قلته؟ أو ربما أنكم لا تصدقون؟ نعم، خمنت ذلك، أنتم لا تصدقون! لا يُخال لكم أن هذا ممكنًا، وأنني أستطيع بلوغ مثل هذا الهدف! أمر خارق، أليس كذلك؟ ولكن، بالإرادة والعزيمة يغدو كل شيء سهل المنال. ثم، ألم يكن جنودكم تحت إمرتي؟ أقسم بالله أن جنودكم بأنفسهم هم من ينفذون أوامري، مدوا خطوط الهاتف من مكتب البريد إلى المنزل المخصص كمقر رئيسي! كان على عملائي السريين أن يوصلوها فقط بالألغام، وقد حدث ذلك بالفعل؛ حفرة الألغام المزروعة تحت المنزل تتصل بهذا القبو! هل تصدقونني الآن؟

انكسرت حدة صوتها، وراحت تنهج بصوت أجش، تتملكها حالة من الهلع. لماذا لم يتحرك هؤلاء الرجال من أمكانهم؟ لماذا يتجاهلون أوامرها؟ هل اتخذوا القرار غير الصائب، ورضخوا للأمر الواقع بدلًا من العفو عنها؟

همست قائلة: «حسنًا، ماذا ألم بكم؟ هل تدركون حقًا ما أعنيه؟ أم أنكم أُصبتم بالبلاهة والجنون! هيا، فكروا بتمعن في الأمر.. في جنرالاتكم؟ في الأثر الذي سيُحدثه خبر موتهم؟ الانطباع الرائع بأن قتلهم يبرز قوتنا، ويؤكد هيمنتنا على العالم بأسره؟ فكروا فيما سيعقب ذلك من فوضى! تقهقر القوات! تشتت القيادات العليا!

يمكن للمرء أن يظن أنها تسعى جاهدةً إلى إقناعهم.. بل بالأحرى، تتوسل إليهم بأن ينحازوا إلى وجهة نظرها، وأن يعترفوا بالنتائج التي توصلت إليها، والتي ستنجم عن عملها الإجرامي.

تملكها بغتة شعور بالحنق على نفسها، ومن هذا النوع من الإذلال المهين الذي يُحقر من شأنها، استأنفت تهديدها ووعيدها، ثم صاحت:

- فلتذهبوا إلى الجحيم! أنتم الخاسرون! أنتم تنهون حياتهم بغبائكم! هل تودون ذلك؟ إذن، هل نحن متفقون؟ وماذا بعد، هل تعتقدون أنه بإمكانكم أن تلقوا القبض عليَّ؟ مهما بلغ إصراركم، وعنادكم، لم تقل الكونتيسة هيرمين كلمتها الأخيرة! أنتم لا

تعرفون الكونتيسة هيرمين جيدًا.. إنها لا تستسلم أبدًا.. الكونتيسة هيرمين.. الكونتيسة هيرمين..

بدت بشعة المنظر.. تملكتها نوبة من الجنون. أخذت تنتفض، وتتلوى من هول الغضب، صارت أكثر قبحًا، وكأنها تقدمت في العمر عشرين عامًا، استحضرت إلى الأذهان صورة الشيطان محترقًا في لهيب الجحيم. أطلقت وابلاً من الشتائم واللعنات، حتى أنها شرعت تضحك على الكارثة التي ستحل عقب فعلتها الإجرامية. تلجلجت قائلة:

- أنتم الخاسرون! أنتم.. أنتم قساة القلوب.. آه! يا للجنون! إذن، أنتم تبغون هذا؟ يبدو أنكم أصبتم بالجنون! ماذا عن جنرالاتهم! وقادتهم! لا بد أنهم فقدوا عقولهم! ها هم يضحون بجنرالاتهم العظماء في مقابل نزوة عابرة! قادتهم الكبار! وذلك دون سبب مقنع، يا لعنادهم الغبي! ليذهبوا إلى الجحيم! هم الخاسرون دون أدنى شك! أنتم تتشبثون برأيكم! أنتم تريدون ذلك. ها أنا ذا ألقي بهذه المسؤولية الجسيمة على عاتقكم. الأمر يتعلق بكلمة واحدة. وهذه الكلمة..

انتابتها حيرة شديدة، وحملقت بعينين شرستين في وجوه الرجال العنيدين الذين بدا عليهم أنهم يخضعون لأوامر مشددة.

لم يتحرك أحد منهم من مكانه.

يمكن القول الآن إن الكونتيسة تواجه قرارًا حتميًّا اتُّخذ بالفعل، تناست لوهلة هول موقفها، ثم قالت ببساطة بالغة:

- لتكن مشيئة الله، ولتكلل إمبراطوريتي بالنصر!

وبعينين ثابتتين كالزجاج، رفعت المقبض بإصبعها.

اخترق صوت دوي الانفجار البعيد القبو على الفور، عبر الفضاء، وعبر السقف السميك. اهتزت أرضية القبو، كما لو أن هناك صدمة عنيفة قد سرت في أحشاء الأرض.

ثم، ساد صمت رهيب.

بدت الكونتيسة هيرمين منصتة إلى شيءٍ ما، لبضع ثوان أخرى. تهلل وجهها فرحًا، ثم كررت هذه الكلمات:

- لتكلل إمبراطوريتي بالنصر!

بدت فجأة أنها تبذل قصارى جهدها متراجعة بظهرها إلى الوراء وسط الثياب، والأقمصة النسائية التي كانت تستند إليها، بدت حقًا وكأنها تغوص في الجدار، ثم توارت عن الأنظار.

تناهى إلى مسامع الجميع صوت صرير بوابة ضخمة تُغلق، وفي الوقت نفسه تقريبًا، دوى صوت انفجار وسط القبو.

كان برنارد قد هم باختراق كومة الثياب، مندفعًا نحو الباب السري، إلا أن بول أمسكه وسمره في مكانه. حاول برنارد جاهدًا أن يفلت من قبضة يد بول قائلًا له:

- لكنها تفر هاربة! لماذا تركتها تفعل ذلك؟ هل تتذكر نفق إبريكورت، ستتجه إليه الآن؟ وها أنت تدعها تلوذ بالفرار!

لم يتمكن برنارد من تفسير ردة فعل بول، وإدراك الدافع وراء تصرفه المبهم. بدت شقيقته إليزابيث مثله تمامًا مستاءة للغاية وغاضبة. هذه هي المخلوقة القذرة التي أنهت حياة والدتهما، والتي انتحلت اسمها وحلت مكانها، كان يجب عليهم ألا يتركوها تركض هاربة!

صاحت إليزابيث: «بول، بول، يجب أن تلاحقها.. يجب أن تسحقها.. هل نسيت كل ما فعلته هذه المرأة الحقيرة يا بول؟

لم تنسَ إليزابيث شيئًا البتة، علقت جميع الأحداث بذاكرتها. تتذكر الأيام المريرة التي قضتها في قصر أورنكان، وفي قصر الأمير كونراد، وليلة إقامة حفل العشاء، عندما توجب عليها أن تحتسي كأسًا من الشمبانيا، والصفقة التي فُرضت عليها، وكل العار والتعذيب والإذلال...

بيد أن بول، لم يعر أدنى اهتمام لها أو لشقيقها، للضباط أو للجنود. لاحظ جميع الواقفين سلبيته وجموده التام. مرت دقيقتان أو ثلاث دقائق، تم خلالهما تبادل بعض العبارات بصوت منخفض دون أن يتحرك أحد من مكانه. اغرورقت عينا إليزابيث بالدموع لشعورها بالعجز والفشل والانكسار. اضطربت مشاعر برنارد، واستشاط غضبًا لرؤية شقيقته تذرف الدموع بغزارة، وشعر كأنه ضحية لكابوس مزعج، تنساب أمام ناظريه أكثر المشاهد رعبًا وفزعًا، وهو يقف مكتوف الأيدي، لا يمتلك القدرة والقوة على أن ينتفض من سباته، أو يغير شيئًا.

بعد عدة لحظات، حدث أمر لافت للنظر، حيث بدا لجميع الواقفين، باستثناء برنارد وإليزابيث، طبيعيًّا للغاية. انبعث صوت صرير باب غير مرئي من جانب كومة الثياب. اهتزت كومة الثياب مفسحة المجال لهيئة بشرية هوت على الأرض مثل حزمة ضخمة من الأعواد.

أطلق برنارد صيحة فرح غامر، وحدقت إليزابيث في ذهول ضاحكة، وعيناها تلمع بالدموع. كانت الكونتيسة هيرمين موثقة بالحبال ومكممة الفم، ثم ظهر خلفها ثلاثة من رجال الدرك.

قال أحدهم مازحًا بصوت جهوري: «ها هو الصيد الثمين»، ثم توجّه نحو الجنديين الآخرين، حيث أثارت كلماته ضحكاتهما، قائلًا: «أيها الرفاق، لم يكن ينقصنا في مطاردتنا السابقة سوى هذا الصيد الثمين.. بيد أن الملازم ديلروز نجح في اقتفاء أثرها. اكتمل الجدول الآن. عصابة من اللصوص الألمان في نهار يوم واحد! حسنًا، أيها الملازم، ماذا تنوي أن تفعل؟ انتبه! ما زال الوحش يمتلك أنيابًا حادة!»

كان بول قد انحنى نحو الجاسوسة مُرخيا الكمامة التي شعر بأنها تسبب لها ألمًا مبرحًا. حاولت الكونتيسة، على الفور، أن تصرخ بأعلى صوتها.. بيد أن صرختها

لم تكن سوى مقاطع لفظية مختنقة وغير مترابطة، حيث تمكن بول من فهم بعضها، ثم أبدى اعتراضه عليها قائلًا:

- لا، ولا حتى هذا، ولا حتى الشعور بالارتياح والرضا. لقد خاب سعيك.. هذا هو القصاص الأكثر رعبًا، أليس كذلك؟ الموت دون أن تلحقي الضرر بمن حولك. ويا له من قصاص عادل!

نهض بول عن مكانه مقتربًا من الضباط الثلاثة الذين كانوا يتجاذبون أطراف الحديث معًا، فقد انتهت مهمتهم كقضاة على أكمل وجه، وقال أحدهم لبول: «أحسنت، يا ديلروز، لك خالص تحياتي وتقديري».

- أشكرك سيدي الجنرال. كان بإمكاني أن أتجنب محاولة هربها البائسة، لكنني أردت أن أجمع أكبر قدر ممكن من الأدلة التي تدين هذه السيدة، ليس فقط لتوجيه أصابع الاتهام إليها جراء الجرائم التي اقترفتها، ولكن للقبض عليها متلبسة بارتكاب جريمة أخرى.

- حسنًا! لولاك يا ديلروز لانفجر المنزل بي وبجميع مساعديّ! ولكن، قل لي إذن، ما هذا الانفجار الذي دوى صوته؟

- بناء متهاوٍ عديم الفائدة سيدي الجنرال، بناء قصفته مدفعية العدو من قبل. علاوة على ذلك، أرادت القيادة المحلية التخلّص منه. كل ما كان علينا فعله هو تحويل مسار السلك الكهربائي الذي يبدأ من هنا.

- إذن، هل قُبض على جميع أفراد العصابة؟

- نعم سيدي الجنرال، تم ذلك بفضل أحد المتواطئين، حيث تمكنت من ملاحقته والإمساك به. زودني بجميع المعلومات والإرشادات اللازمة للدخول إلى هنا، بعد أن كشف لي بشكل مفصل خطة الكونتيسة هيرمين وأسماء جميع المتواطئين معها. كان عليه أن يعطي إشارة للكونتيسة، في العاشرة من مساء هذا اليوم، عبر صوت رنين جرس، ليخطرها بأمر وجودك داخل المنزل. أطلقت جميع النداءات أيضًا بناء على أمر أعطيته لأحد جنودنا.

- أحسنت، وأتوجه بالشكر إليك مرة أخرى يا ديلروز.

تقدم الجنرال القائد العام نحو دائرة من الضوء. بدا قوي البنية، وطويل القامة. لديه شارب أبيض كثيف يغطي شفته العليا.

دفع رجال الدرك الكونتيسة أمامهم باتجاه الحائط، ثم فكّوا الحبال التي تقيد ساقيها المتأرجحتين رعبًا وتوترًا أسفلها. وفضلًا عن حالة الهلع والفزع التي انتابتها، علت ملامح وجهها دهشة يتعذر وصفها. راحت تحدق بإمعان، بعينيها المفتوحتين على اتساعهما، في وجه ذاك الشخص الذي ظلت تطارده، وسعت دون كلل أو ملل أن تنهي حياته، ثم تحولت عيناها بتلقائية نحو السيدة التي ظنت أنها فارقت الحياة، والتي أصدرت ضدها في السابق حكمًا حتميًا بالموت.

أخذ بول يكرر هذه الكلمات: «كم يبدو أمرًا مريرًا وقاسيًا ومرعبًا أن تفارق هذه اللعينة الحياة دون أن تلحق الضرر بمن حولها، أليس كذلك؟»

لا يزال الجنرال القائد العام على قيد الحياة! أُحبطت المؤامرة الخطيرة والدنيئة! ما زال الجنرال على قيد الحياة، هو وجميع مساعديه أيضًا، لا يزال أعداء الجاسوسة على قيد الحياة أيضًا؛ بول ديلروز، وستيفان داند□يل، وبرنارد، وإليزابيث.. أولئك الذين لاحقهم شرها المقيت نهارًا وليلًا، يقفون جميعهم هنا! سوف تلقى حتفها، وهم ماثلون أمام ناظريها، تزعجها رؤيتهم، ويعتصر قلبها ألمًا لرؤية أعدائها مبتهجين ومجتمعين معًا. وفوق كل شيء، ستعاني سكرات في نفس الوقت الذي ستحاصرها فيه فكرة فقدان كل شيء. لقد انهارت آمالها العريضة.

قال الجنرال لأحد مساعديه:

- هل أصدرت الأوامر؟ هل ستُعدم هذه العصابة رميًا بالرصاص؟

- نعم أيها الجنرال، سينفذ الحكم هذا المساء.

- حسنًا، لنبدأ بهذه المرأة الملعونة، وعلى الفور، هنا في هذا المكان.

انتفضت الجاسوسة فزعًا، وبفضل مجهود بالغ بذلته عبر تحريك فكيها، نجحت في إبعاد الكمامة عن شفتيها، ثم تناهى إلى مسامع الجميع صوت توسلاتها التي تدفقت كسيل عرمٍ من بين شفتيها، بنبرة يكسوها التأوه والأنين.

قال الجنرال: «تأهبوا لتنفيذ حكم الإعدام»، ثم شعر بيدين دافئتين وناعمتين تقبضان بشدة على يديه. لقد انحنت إليزابيث نحو يديه متوسلة وباكية تطلب الصفح والغفران.

قدم بول امرأته إلى الجنرال الذي تحدَّث إليها بلطف قائلًا:

- أرى أنكِ تشعرين بالشفقة تجاهها يا سيدتي، على الرغم من الإهانات التي لحقت بكِ جراء شرها المدمر ووحشيتها المرعبة. يجب عليك ألا تشفقي عليها. تتملكنا -دون أدنى شك- حالة من الشفقة على أولئك الذين يفارقون الحياة. ولكن، لا ينبغي لنا أن نشفق على أمثال هذه السيدة، وعلى أولئك الذين ينتمون إلى هذا العرق. إنهم مجردون من الإنسانية، ويجب علينا ألا تغيب لحظة واحدة عن أذهاننا هذه الحقيقة الواضحة كوضوح الشمس في رابعة النهار.

أمسك ذراعها بلطف واقتادها نحو الباب قائلًا:

- اسمحي لي أن أصطحبك إلى خارج القبو. هل أنت قادم يا ديلروز؟

أنت بحاجة إلى أن تنال قسطًا من الراحة بعد عناء هذا اليوم الشاق.

خرج الجنرال وإليزابيث من القبو، ثم صاحت الجاسوسة:

- الرحمة! الرحمة!

كان الجنود قد اصطفوا بطول الجدار المقابل.

ظل الكونت وبول وبرنارد داخل القبو برهة من الوقت. لقد قتلت هذه السيدة زوجة الكونت داند□يل، أنهت حياة والدة برنارد، وسفكت دماء والد بول. عرضت إليزابيث للذل والمهانة والتعذيب. وعلى الرغم من اضطراب أرواحهم فإنهم اختبروا شعورًا بالارتياح والرضا التام النابعين من تجلي العدالة أمام أعينهم. لم تحركهم الكراهية، ولم تثرهم الضغائن والأحقاد. لم تختلج قلوبهم للحظة مشاعر الأخذ بالثأر والانتقام.

قال بول للجاسوسة: «يوجد هنا أحد جنودنا القساوسة. هل أنتِ بحاجة إلى مساعدته؟

بيد أنها لم تفهم شيئًا مما نطق به بول، بل بالأحرى، لم تعره أدنى انتباه. تركزت عيناها على ما يدور أمامها، وعلى الأمر الحتمي الوشيك الحدوث الذي سينتهي بتمزيق أحشائها. تلجلجت الحروف على حافة شفتيها، وصاحت بكل قوتها: «الرحمة! الرحمة! الرحمة».

غادر الرجال الثلاثة القبو، وبمجرد أن لامست أقدامهم أعلى الدرج، تناهى إلى مسامعهم صوت إصدار الأمر التالي: «صوبوا أسلحتكم! «

أغلق بول باب الردهة بسرعة، ثم باب المنزل المطل على الشارع خلفه، كيما لا يتسرب الصوت إلى مسامعه. استنشق بعمق هواء الشارع النقي الصافي. ردد الجنود أنشودة النصر. أدركوا أن صفحة القتال الشرس قد طويت، وأن مواقعهم مؤمنة تمامًا.

بعد بضعة أيام، في قصر أورنكان، ولج الملازم الثاني برنارد داند□يل، يتبعه اثنا عشر رجلًا، باب مستودع محصنٍ صحي ودافئ يستخدم كسجن، احتجز بداخله الأمير كونراد. لا تزال زجاجات الخمر الفارغة فوق الطاولة، وبقايا وجبة غنية ومتكاملة.

يغط الأمير كونراد في سبات عميق على فراشه. صفعه برنارد على كتفه، قائلًا: «كن شجاعًا يا صاحب الفخامة». نهض السجين عن مكانه مذعورًا.

- ماذا! ماذا! ماذا تود أن تقول؟

- تحلى بالشجاعة يا سيدي. لقد حان الوقت.

تلعثمت الكلمات على شفتي السجين، وشحب وجهه شحوب الموتى:

- أتحلى بالشجاعة؟ أتحلى بالشجاعة؟ لا أفهم شيئًا.. يا إلهي! يا إلهي! هذا مستحيل!

- لا شيء مستحيل، وكل أمر نخشاه يحل على رؤوسنا، ولا سيما الكوارث والمصائب. اقترح عليه برنارد:

- أتود احتساء كأسٍ من شراب الروم يا سيدي؟ أتريد سيجارة؟

راح الأمير يكرر هذه الكلمات مرتعشًا مثل ورقة شجر في مهب الريح: «يا إلهي! يا إلهي!»

أمسك بتلقائية شديدة السيجارة التي قدمها له برنارد، بيد أنها سقطت من بين شفتيه عند أول نفخة. تفاقم ضيقه، واذداد انزعاجه عندما لاحظ اثني عشر رجلًا يتطلعون إليه واضعين بنادقهم تحت أذرعهم. تشتتت نظراته المذعورة، وبدا مثل شخص مُدان صدر ضده حُكم بالموت، يحاول، مع باكورة أضواء الفجر الشاحب، تخيل شكل المقصلة. كان عليهم أن يحملوه إلى الشرفة ويضعوه أمام جزء متبقٍ من جدار متهدم.

قال له برنارد: «اجلس يا سيدي».

لم يقوَ الأمير التعيس على الوقوف على قدميه، فسقط منهارًا على أحد الأحجار.

اتخذ الاثنا عشر جنديًا وضعية الوقوف في مواجهته. أحنى رأسه كي لا يراهم، وراح جسده يرتعش مثل دمية تحركها بضع خيوط. سأله برنارد بنبرة ودودة هادئة:

- أتفضل أن تتلقى الرصاص من الأمام أم من الخلف؟

صُمت أذناه، وتلاشى تركيزه، فلم ينبس ببنت شفة، فصاح برنارد بحدة في وجهه:

- حسنًا يا سيدي، هل تبدو مريضًا؟ حاول أن تتمالك نفسك قليلًا. لديك الكثير من الوقت. لن يأتي الملازم بول ديلروز إلى هنا قبل عشر دقائق. إنه يود حضور هذا المشهد.. كيف أقول لك ذلك؟ يود حضور هذا الحفل الصغير. سوف يجدك في حالة مزرية. لقد هُزمت يا سيدي، وباءت كل مساعيك بالفشل.

تحدث إليه برنارد باهتمامٍ بالغٍ، وكأنه يسعى إلى تشتيت انتباهه قائلًا:

- ماذا يمكنني أن أقص على مسامعك؟ قصة هلاك صديقتك الصدوقة الكونتيسة هيرمين؟ آه! آه! يبدو لي أن هذا الأمر سيجعلك تعيرني كل انتباهك! حسنًا، لك أن تتخيل أن هذه المرأة الفاضلة قد أُعدمت منذ بضعة أيام في سواسون. وفي الواقع، لم تبدُ في حالة أفضل من حالتك. توالت صرخاتها واحدة تلو الأخرى! التمست مرارًا العفو والرحمة! أُهدرت كرامتها! لكنني ما زلت ألاحظ أن أفكارًا أخرى تراود ذهنك. كيف ألهيك عن أفكارك المزعجة؟ آه! لدي فكرة..

أخرج برنارد كُتيبًا من جيبه.

- هيا، سأقرأ ببطء بعض العبارات على مسامعك يا سيدي. بالطبع، لا أجد كتابًا أكثر ملاءمة لهذا الموقف سوى الكتاب المقدس، لكنني لا أمتلك واحدًا الآن. ثم أنني أود أن أهديك بضع دقائق من النسيان، أليس كذلك؟ ولا أجد شيئًا أفضل من ذلك لأمنحه لشخص ألماني صالح، فخور بوطنه وبمآثر جيشه، لا أعرف شيئًا آخر أكثر قيمة يجلب لقلبك الطمأنينة والراحة سوى هذا الكتاب الصغير. سوف نتجول بلذة لا تضاهى بين صفحاته، أتود ذلك يا سيدي؟ عنوان الكتاب: «الجرائم الألمانية وفقًا لاعترافات الألمان». هذا الكتاب عبارة عن يوميات دوّنها مواطنوك الشرفاء، لذا؛ فهو يعد إحدى الوثائق الثمينة التي لا تقبل النقاش أو الجدل، والتي ينحني أمامها العلم الألماني بكل وقار وهيبة. سأفتح الكتاب وأقرأ بشكل عشوائي:

- فر السكان هاربين من القرية. كان الأمر مريعًا. تلطخت المنازل بالدماء، وبدت وجوه القتلى بشعة لأبعد حد ممكن. دُفنوا جميعًا على الفور، وعددهم ستون شخصًا.. بينهم العديد من الرجال والنساء العجائز، وامرأة حبلى، وثلاثة أطفال لفظوا أنفاسهم الأخيرة وهم يعانقون بعضهم البعض. طُرد جميع من بقوا على قيد الحياة، ورأيت أربعة غلمان يحملون مهدًا، بداخله طفل رضيع يتراوح عمره بين خمسة وستة أشهر. لم يسلم ركن من أعمال السلب والنهب. كما رأيت أمًا مع صغيريها؛ يعاني أحدهما من جرحٍ غائرٍ في الرأس، وعينه مفقوءة.

كم يبدو هذا مثيرًا للفضول يا سيدي، أليس كذلك؟ واصل برنارد قراءته:

- 26 أغسطس. أُحرقت قرية «أدرن» ذات الطبيعة الخلابة، على الرغم من براءة سكانها، كما يبدو لي. قيل لي إن شخصًا سقط عن دراجته، وفي أثناء سقوطه، انطلق الرصاص بشكل عشوائي من بندقيته دون أن يقصد ذلك. حينئذ، أطلقنا نيران مدفعيتنا باتجاهه. عندما وصلنا القرية، ألقينا السكان الذكور وسط ألسنة اللهب.

وكذلك أيضًا:

- 25 أغسطس (في بلجيكا). أُعدم ثلاثمئة شخصٍ من سكان البلدة رميًا بالرصاص. أُحرق أولئك الذين نجوا من الهجوم المباغت داخل الخنادق. كم يبدو رائعًا مشهد النساء في تلك اللحظة..

تخللت قراءات برنارد المتواصلة بعض الملاحظات العميقة التي انطلقت من بين شفتيه بنبرة هادئة، وكأنه يعلق على نص تاريخي، في الوقت الذي بدا فيه الأمير كونراد على وشك الإغماء.

عندما وصل بول إلى قصر أورنكان مترجلًا عن السيارة، توجه مباشرة نحو الشرفة، وبمجرد رؤية مشهد الأمير والجنود الاثني عشر، أدرك بول المسرحية الهزلية الصغيرة، المثيرة للرعب قليلًا، والتي انغمس فيها برنارد. اعترض على ما يحدث بنبرةٍ توبيخيةٍ قائلًا: «أوه! برنارد...»

صاح الشاب متصنعًا نبرة تكسوها البراءة:

- آه! ها أنت ذا يا بول؟ هيا بسرعة! نحن في انتظارك. سوف ننجز المهمة أخيرًا!

وقف برنارد أمام رجاله على بعد عشر خطوات من الأمير، ثم سأله:

- هل أنت جاهز يا سيدي؟ آه! بالتأكيد تفضل تلقي الرصاص من الأمام.. رائع! علاوة على ذلك، سيبدو مظهرك أكثر جاذبية وأنت تعطينا الوجه لا القفا. آه! من فضلك، لا تُرخي ساقيك! ولمَ لا ترتسم الابتسامة العريضة على وجهك؟ انتبه.. سأعد.. واحد، اثنان.. لذا ابتسم، اللعنة!

كان برنارد قد خفض رأسه قليلًا ممسكًا بآلة تصوير فوتوغرافي. وبمجرد أن انبعث صوت التقاط الصورة، صاح هازئًا:

- حسنًا يا سيدي! لا أعرف كيف أعبر لك عن جزيل شكري. لقد تحليت بالكياسة والصبر. ربما تبدو ابتسامتك مصطنعة أو قسرية قليلًا، ترتسم على ثغرك تكشيرة شخص حُكم عليه بالموت. بخلاف ذلك، تبدو تعبيراتك ساحرة. لك وافر شكري وتقديري.

لم يتمكن بول من كتم ضحكته. لم يعِ الأمير جيدًا فحوى دعابة برنارد الساخرة. ومع ذلك، شعر بأن الخطر قد زال، وحاول جاهدًا أن يتمالك نفسه مثل سيد يتحمل الأهوال والمصائب بكرامة واستعلاء. اتجه بول ديلروز ناحيته قائلًا:

- أنت حر طليق يا سيدي.. لدي موعد على الحدود الفاصلة بيننا وبينكم مع أحد الضباط المرافقين للإمبراطور في تمام الساعة الثالثة. سيجلب برفقته عشرين أسيرًا فرنسيًّا، وسأسلمك له عوضًا عنهم جميعًا، هلا تكرمت، وصعدت إلى السيارة من فضلك؟

لم يستوعب الأمير كونراد كلمة واحدة مما قاله بول. بدت جميع العبارات مبهمة، ولم تطرق أبواب عقله. بيد أنه عندما صعد إلى السيارة، وانطلقت السيارة ببطء متجاوزة الحشائش الخضراء، أصابه الذهول والصدمة لرؤية شخص ما يقف مكتوف الأيدي.. إنها إليزابيث داند□يل تقف على العشب، ثم تنحني وقد ارتسمت الابتسامة الصافية على محياها.

لا بد أن حالة من الهذيان والهلوسة قد انتابته. فرك عينيه في حيرة شديدة، وعبرت إيماءاته عما يجول في خاطره، حتى أن برنارد أخبره قائلًا:

- أنت لست على خطأ يا سيدي. إنها حقًا إليزابيث داند□يل. أقسم لك أنها هي، وجدت أنا وبول ديلروز أنه من الأفضل أن نذهب إلى ألمانيا للبحث عنها. لذلك توجهنا إلى الإمبراطور وطلبنا منه أن يأذن لنا بموعد لمقابلتها. وافق على الفور عن طيب خاطر. جلالة الإمبراطور غاضب منك لأقصى حد ممكن. يا للعار، والفضيحة الكبرى!

تم تبادل الأسرى في الموعد المحدد.

تمت استعادة عشرين أسيرًا فرنسيًّا. أخذ بول ديلروز الجندي المرافق جانبًا قائلًا له:

- سيدي، أود أن تحمل رسالة إلى الإمبراطور، أخبره بأن الكونتيسة هيرمين دو هوهنزولرن حاولت اغتيال القائد العام للجيش في سواسون. ألقيت القبض عليها، وتمت محاكمتها وأُطلق عليها الرصاص بناءً على أوامر القائد العام. لا يزال بحوزتي العديد من الأوراق الخاصة بها، ولا سيما خطاباتها ومذكراتها الشخصية التي يوليها الإمبراطور -دون شك- أهمية قصوى. ستعاد هذه الرسائل إليه في نفس اليوم الذي سيرسل فيه التحف واللوحات والأثاث وجميع الأشياء التي سُلبت ونُهبت من قصر أورنكان. وداعًا يا سيدي.

حُسم كل شيء. ربح بول المعركة في نهاية المطاف؛ حرر إليزابيث، وأخذ بثأر والده، وجه ضربة قاضية إلى منظومة التجسس الألمانية، وأوفى بكل عهوده تجاه القائد العام ملزمًا الأعداء بإطلاق سراح العشرين ضابطًا الفرنسيين.

في طريق العودة، قال له برنارد: «أتعلم، كان يجب أن أقطع طرف أنف هذا الأفعوان! كم أنا نادم! كم أنا أحمق، اكتفيت بتلقينه درسًا بائسًا ربما لن يتذكره غدًا! يا لي من ساذج أبله! الأمر الذي يهدئ من روعي ويمنحني بعض الهدوء والشعور بالارتياح هو أنني التقطت صورة له لا تقدر بثمن. رأس سليل أسرة هوهنزولرن في مواجهة الموت. حسنًا، هلا تطلعت إلى هذه الرأس!

مرت السيارة بقرية أورنكان التي بدت مهجورةً كصحراء جرداء؛ أحرق الرعاع الهمجيون كل منازلها، وأخذوا جميع سكانها كأسرى، اقتادوهم أمامهم كقطعانٍ من العبيد.

بيد أنهما أبصرا شيخًا عجوزًا مرتديًا ثيابًا رثةً وباليةً، يجلس بين الأنقاض.. راح يتطلع إليهما ببلاهةٍ بعينين مذعورتين.

بجواره، يجلس طفلٌ يمد ذراعيه نحوهما، ذراعيه الصغيرتين الهزيلتين المبتورتي الطرفين..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

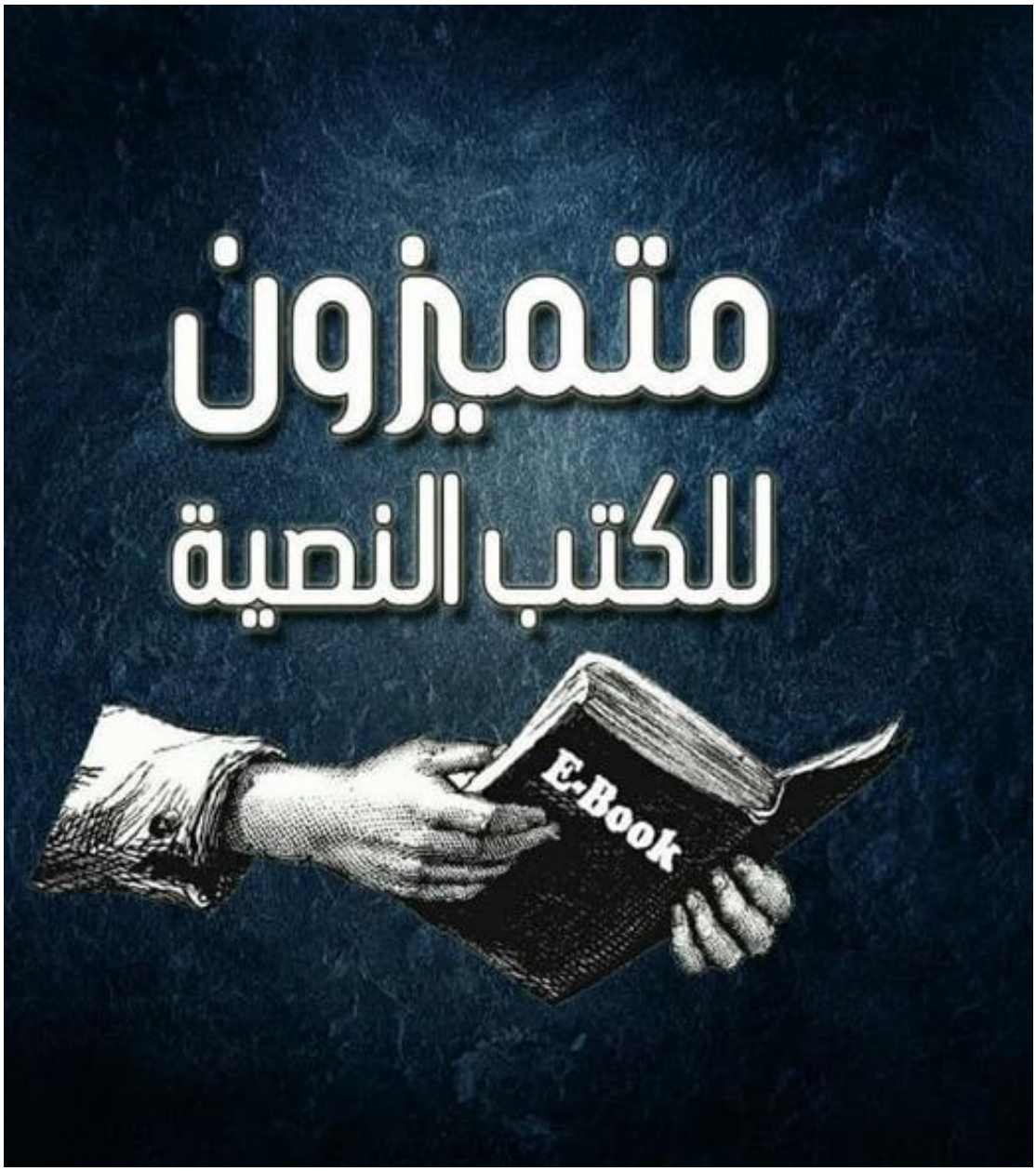
متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الرواية..

الجزء الأول

الفصل الأول

جَريمةُ قَتْلٍ

الفصل الثاني

الغرفة المغلقة

الفصل الثالث

أمر بالتعبئة العامة

الفصل الرابع

خطاب من إليزابيث

الفصل الخامس

فلاحة كورڤيني

الفصل السادس

ما رآه بول في قصر أورنكان

الفصل السابع

«هــ»، «يــ»، «ر»، «مــ»

الفصل الثامن

يوميات إليزابيث

الفصل التاسع

نجل الإمبراطور

الفصل العاشر

75 أم 155؟

الجزء الثاني

الفصل الأول

نهر «إيسير».. بؤس وشقاء

الفصل الثاني

الميجور هيرمان

الفصل الثالث

منزل المهرب

الفصل الرابع

تحفة حضارية

الفصل الخامس

الأمير كونراد يحظى ببعض المرح

الفصل السادس

الصراع المستحيل

الفصل السابع

قانون الرابح

الفصل الثامن

الحصن 132

الفصل التاسع

هوهنزولرن

الفصل العاشر

إعدامان

Notes

[←1]

(1) سيباستيان وبان أو المركيز دو فوبان: مهندس عسكري فرنسي. في بعض الحروب، لا بد من محاصرة بعض المدن والقلاع والحصون. وللقيام بذلك بفعالية؛ كانت الضرورة تقتضي استخدام مهندسين عسكريين يفهمون تقنيات لغْم القلاع، وتشييد التحصينات، وتفكيك المباني، وما إلى ذلك.

[←2]

(2) الجلجثة هي اسم يشير إلى مكان يقع خارج مدينة القدس القديمة، ويعتقد بحسب الإنجيل أن المسيح صلب عنده.

[←3]

(3) قصيدة «الراين الألماني»، من ديوان «أشعار جديدة» للكاتب الفرنسي ألفريد دو ميسيه.

[←4]

(4) هوهنشتاوفن كانوا سلالة من الملوك الألمان، توج العديد منهم كإمبراطوريين للإمبراطورية الرومانية المقدسة ودوقات لشوابيا. اسمهم الدقيق مأخوذ عن قلعتهم في شوابيا هو شتاوفن.